http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٣

فى متاجرهم ومسايرهم فى طلب معاشهم ، فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ بفائتين قدرتنا حتى نعجز عن أخذهم ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ : على تنقص ، بأن ينقص أموالهم وأنفسهم ، شيئا فشيئا ، حتى يهلكوا جميعا ، من غير أن يهلكهم جملة واحدة. وعليه يترتب قوله : فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث لم يهلكهم دفعة واحدة ، أو : على تخوف : على مخافة بأن يهلك قوما قبلهم ، فيتخوفوا ، فيأتيهم العذاب وهم متخوفون.

وهو قسيم قوله : (وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ) ، وقوله : فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ أي : حيث لم يعاجلكم بالعقوبة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما خوف به أهل المكر بالأنبياء والرسل ، يخوف به أهل المكر بالأولياء والمنتسبين ، وقد تقدم هذا مرارا.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار لأنه سبب النجاة من الاغترار ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٥٠)

قلت : الاستفهام للإنكار ، و(مِنْ شَيْ ءٍ) : بيان ل «ما». والضمير فى (ظِلالُهُ) يعود على (ما) ، أو على (شَيْ ءٍ).

و(سُجَّداً) : حال من الظلال ، وكذا جملة : (وَ هُمْ داخِرُونَ) ، وجمعه بالواو لأنه من صفة العقلاء.

وقال الزمخشري :

هما حالان من الضمير فى (ظِلالُهُ) إذ هو بمعنى الجمع لأنه يعود على قوله : (مِنْ شَيْ ءٍ) ، فعلى الأول يكون السجود من صفة الضلال ، وعلى الثاني يكون من صفة الأجرام. و(مِنْ دابَّةٍ) : يحتمل أن يكون بيانا ل (ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) معا لأن كل حيوان يصح أن يوصف بأنه يدب ، ويحتمل أن يكون بيانا ل (ما فِي الْأَرْضِ) خاصة ، فعلى الأولى : يكون عطف الملائكة عليه ، من عطف الخاص على العام تشريفا لهم ، وعلى الثاني : من عطف المباين.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أهل المكر والخدع بالرسل والمؤمنين ، إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ من الأجرام والأشكال كالجبال والأشجار والبحار ليظهر لهم كمال قدرته وقهره ، فيخافوا سطوته وبطشه ، حتى لا يمكروا بخواصه. حال كون ما خلق من الأجرام يَتَفَيَّؤُا أي : يميل ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ أي : يرجع الظل من جانب إلى جانب ، أي : يميل عن الأيمان والشمائل ، وذلك أن الظل من وقت

(١٣٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٤

طلوع الشمس إلى الزوال يكون إلى جهة ، ومن الزوال إلى الغروب يكون إلى جهة أخرى. ثم يمتد الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس. والتفيؤ : من الفيء ، وهو : الظل الذي يرجع بعكس ما كان غدوة. وقال رؤبة بن العجاج : يقال بعد الزوال : ظل وفيء ، ولا يقال قبله إلا ظل. ففى لفظ «يَتَفَيَّؤُا» ، هنا ، تجوز.

وقال فى سلوة الأحزان : فاء الظل : معناه : رجع بعكس ما كان من بكرة إلى الزوال وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى الزوال ، إنما هى فى نسخ الظل العام قبل طلوعها ، فإذا زالت ، ابتدأ رجوع الظل العام ، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم. والظل الممدود فى الجنة لم يذكر اللّه تعالى فيها فيئا لأنه لا مذهب له ، ولا تكون الفيئة إلا بعد ذهاب الظل ، ولا ذهاب لظل الجنة ، فلا يتعقل له فيأة. هـ.

واستعمال اليمين والشمال ، فى غير الإنسان ، تجوز فإنهما فى الحقيقة خاص بالإنسان. هـ.

حال كون تلك الأجرام ، أو الظلال سُجَّداً لِلَّهِ ، قيل : حقيقة. قال الضحاك : إذا زالت الشمس سجد كل شيء قبل القبلة ، من نبات أو شجر ، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة فى ذلك الوقت.

وقال مجاهد : إنما تسجد الظلال ، لا الأشخاص. وقيل : هو عبارة عن الخضوع والطاعة ، وميلان الظلال ودورانها بالسجود ، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض ، على جهة الخضوع : ساجدا ، ثم استشهد لذلك. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : والمتّجه : أنه خضوع وطاعة للمشيئة وانقياد ، لا حقيقة لأنه لا يقال فيه ، كذلك : أو لم يروا ، وإنما يرى الانقياد. وخص الظل لأنه مشهود ذلك فيه ، ولو حاول صاحبه عدمه أو ضده ، لم يستطع ، بخلاف الأفعال الاختيارية ، فإن الجبر فيها غير محسوس ، فظهر سر الإشارة للظلال. واللّه أعلم. هـ.

قال البيضاوي : المراد من السجود : الاستسلام ، سواء كان بالطبع أو الاختيار ، يقال : سجدت النخلة ، إذا مالت لكثرة الحمل ، وسجد البعير ، إذا طأطأ رأسه ليركب. أو سُجَّداً : حال من الظلال وَهُمْ داخِرُونَ : حال من الضمير ، والمعنى : ترجع الظلال ، بارتفاع الشمس وانحدارها ، بتقدير اللّه

تعالى ، من جانب إلى جانب ، منقادة إلى ما قدّر لها من التفيؤ ، أو واقعة على الأرض ، ملتصقة بها ، على هيئة الساجد ، والأجرام فى أنفسها أيضا داخرة ، أي : صاغرة منقادة لأفعال اللّه. هـ.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أي : ينقاد لإرادته ، وتأثير قدرته طبعا ، ولتكليفه وأمره طوعا ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض. وقوله : مِنْ دابَّةٍ : بيان لهما لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية ، سواء كان فى أرض أو سماء ، وَالْمَلائِكَةُ عطف على المبين به ، عطف خاص على عام ،

(١٣٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٥

أو عطف المجردات على الجسمانيات ، وبه احتج من قال : إن الملائكة أرواح مجردة. قاله البيضاوي. قلت : وهو خلاف الجمهور. بل الملائكة : أجسام لطيفة نورانية متحيزة ، لها مادة نورانية وتشكيل مخصوص ، غير أن اللّه تعالى أعطاها قوة التشكيل لأنها قريبة من أسرار المعاني الأزلية. وعبّر الحق تعالى ب «ما» ليشمل العقلاء وغيرهم.

ثم قال تعالى فى وصف الملائكة : وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادته ، يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ هو تقرير ، وبيان لنفى الاستكبار عنهم ، أي : يخافون عظمة ربهم من فوقهم إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت ، مقهورون تحت القدرة والمشيئة ، أو : يخافون عذاب ربهم أن يرسل عليهم من فوقهم ، أو : يخافون ربهم وهو من فوقهم بالقهر والغلبة. والجملة : حال من الضمير فى (يَسْتَكْبِرُونَ) ، أو بيان له وتقرير لأن من خاف ربه لم يستكبر عن عبادته ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ من الطاعة وتدبير الأمور التي أمرهم بتدبيرها. وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء. قاله البيضاوي.

الإشارة : كل ما دخل تحت عالم التكوين لزمته العبودية ، وأحاطت به القهرية ، فلا بد من الخضوع لأحكام الواحد القهار ، تكليفية كانت أو تعريفية ، فمن لم ينقد لها بملاطفة الإحسان ، قيد بسلاسل الامتحان. وبهذا امتاز الخصوص من العموم ، فالخصوص علموا أن سلسلة الأقدار فى عنقهم ، تجرهم إلى مراد ربهم ، فاستسلموا لها ، وانقادوا ، وخضعوا ، وتأدبوا لها ، فاستحقوا التقريب والاصطفائية. والعموم جهلوا هذه السلسلة ، أو علموها ، ولم يقدروا على الاستسلام لها فاستحقوا البعد من حضرة الحق إذ لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتأديب. وباللّه التوفيق.

ثم نهى عن الشرك الجلى والخفي ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥١ الى ٥٥]

وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

قلت : (إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ) ، إلهين : مفعول أول ، واثنين : تأكيد ، والثاني : محذوف ، أي : معبودين لكم ، وفائدة التأكيد :

التنبيه على أن المقصود هو النهى عن الاثنينية تنبيها على أن الاثنينية تنافى الألوهية ، كما ذكر الواحد فى قوله :

إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ إثبات الوحدانية دون الإلهية. قاله البيضاوي. وعبارة صاحب المطول : لفظ إلهين حامل لمعنى الجنسية – أعنى : الإلهية – ومعنى العدد – أعنى : الاثنينية – وكذا لفظ «الله» حامل لمعنى الجنسية والوحدة ،

(١٣٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٦

والغرض المسوق له الكلام فى الأول : النهى عن اتخاذ الاثنين من الإله لا إثبات جنسه ، فوصف الإلهين باثنين وإله بواحد إيضاحا لهذا الغرض وتفسيرا له. هـ. ويحتمل أن يكون «اثْنَيْنِ» مفعولا أولا ، و«إِلهَيْنِ» مفعولا ثانيا.

وقوله : (فَإِيَّايَ) : مفعول بفعل محذوف ، أي : ارهبوا ، ولا يعمل فيه (ارهبون) لأنه أخذ مفعوله ، وهو : ياء المتكلم ، و(واصِباً) : حال من (الدِّينُ). و(ما بِكُمْ) : إما شرطية ، أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول فإن استقرار النعمة بهم يكون سببا للإخبار بأنها من الله ، لا سببا لحصولها منه لأن جواب الشرط يكون مسببا عن فعله ، واستقرار النعمة بهم ليس سببا فى حصولها من الله ، وإنما هو سبب فى الإخبار بأنها من الله. فتأمله. وأصله للبيضاوى ، والجملة : يحتمل أن تكون استئنافية ، أو حالية ، فيتصل الكلام بما قبله ، أي : كيف تتقون غير الله ، والحال أن ما بكم من نعمة فمنه وحده؟ واللام فى (لِيَكْفُرُوا) : لام الأمر على وجه التهديد ، كقوله بعد : (فَتَمَتَّعُوا) ، فعلى هذا يبتدأ بها ، وقيل : هى لام العاقبة ، فعلى هذا توصل بما قبلها لأنها فى الأصل لام كى ، وهو بعيد.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ ، بأن تعبدوا الله تعالى ، وتعبدوا معه الأصنام ، إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له ولا ظهير ، ولا معين ولا وزير ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، عدل من الغيبة إلى التكلم مبالغة فى الترهيب ، وتصريحا بالمقصود ، كأنه قال : فأنا ذلك الإله الواحد ، فإياى فارهبون ، لا غيرى ، وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، وَلَهُ الدِّينُ أي : الطاعة والانقياد واصِباً :

لازما ، أو : واجبا وثابتا لما تقرر أنه الإله وحده ، والحقيق بأن يرهب منه ، فلا يدان لأحد إلا هو.
وقيل : وَلَهُ الدِّينُ أي : الجزاء واصِباً أي : دائما ، فلا ينقطع ثوابه لمن آمن ، ولا عقابه لمن كفر.
أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ مع أنه ليس بيد غيره نفع ولا ضر؟! كما قال : وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ أي : وأىّ شىء اتصل بكم من نعمة فهو من الله وحده ، ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ أي : فلا تتضرعون عند الشدة إلا إليه ، ولا تستغيثون إلا به. والجؤار : رفع الصوت فى الدعاء والاستغاثة ، ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ وهم : كفاركم ، ففى وقت الشدة ينسون أصنامهم ، وفى الرخاء يرجعون إليها. فعلوا ذلك لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من نعمة الكشف عنهم ، كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة ، أو يكون تهديدا ، أي : ليكفروا ما شاءوا فسوف يعلمون ، كقوله : فَتَمَتَّعُوا بكفركم فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة أمركم.

(١٣٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٧
الإشارة : قال فى التنوير : أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية ، وإحاطة الديمومية. هـ. فمن فتح اللّه بصيرته ، لم يشهد مع الحق سواه إذ الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فما حجبك عن الحق وجود موجود معه إذ لا شىء معه ، وإنما حجبك توهم موجود معه». فمن غاب عن ثنوية نفسه غاب عن ثنوية الأكوان ، ووقع على عين الشهود والعيان. فما ظهر فى الوجود إلا أسرار ذاته وأنوار صفاته. وبالله التوفيق.
ثم ذكر جهالة أهل الشرك وسفاهة رأيهم ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥٦ الى ٦٠]
وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)
قلت : الضمير فى (يَجْعَلُونَ) للكفار ، وفى (يَعْلَمُونَ) لهم ، أو للأصنام. و(لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ) : يجوز أن يكون (ما يَشْتَهُونَ) مبتدأ ، وخبره : (لَهُمْ) ، وأن يكون مفعولا بفعل مضمر ، أي : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وأن يكون معطوفا على البنات ، وهذا منعه البصريون لاتحاد الفاعل والمفعول ، وهو الواو ، وضمير لهم فى الغيبة ، فلا يقال :
زيد ضربه ، وإنما يقال : ضرب نفسه ، ولا يقال : أنا ضربتنى ، ويجوز ذلك فى أفعال القلوب. وقال

البيضاوي :

ولا يبعد تجويزه فى المعطوف ، كما فى الآية.

يقول الحق جل جلاله : وَيَجْعَلُونَ أي : كفار العرب لِما لا يَعْلَمُونَ إلاهيتهم ببرهان ولا حجة ، وهم الأصنام. أو : لما لا علم لهم من الجمادات التي يعبدونها ، نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الزرع والأنعام ، بقولهم :

هذا لله وهذا لشركائنا ، تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ سؤال توبيخ وعتاب عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ من أنها آلهة بالتقرب إليها ، أو عما كنتم تفترون على الله من أنه أمركم بذلك.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ من قولهم : الملائكة بنات اللّه ، وكانت خزاعة وكنانة يقولون ذلك. سُبْحانَهُ تنزيها له عن ذلك ، وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ أي : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون ، وهم البنون ، والمعنى : أنهم يجعلون لله البنات التي يكرهونها – وهو منزه عن الولد – ، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى

(١٣٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٨

أي : أخبر بولادتها عنده ، ظَلَّ أي : صار وَجْهُهُ مُسْوَدًّا : متغيرا تغير مغتم من الكآبة والحياء من الناس ، وَهُوَ كَظِيمٌ : ممتلئ غيظا ، يَتَوارى يختفى مِنَ الْقَوْمِ أي : من قومه حياء منهم ، مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ من قبح المبشر به ، متفكرا فى نفسه ، أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أي : يتركه ، عنده على ذل وهوان ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أي : يخفيه فيه ويئده ، وهى : الموءودة ، وتذكير الضمير للفظ «ما» ، أَلا ساءَ : بئس ما يَحْكُمُونَ حكمهم هذا حيث نسبوا لله تعالى البنات ، التي هى عندهم بهذا المحل.

لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ أي : صفة السوء ، وهى : الحاجة إلى الولد المنادية بالموت ، واستبقاء الذكور استظهارا بهم ، وكراهة البنات ووأدهن خشية الإملاق ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى أي : الصفة العليا ، وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق ، والجود الفائق ، والنزاهة عن صفات المخلوقين ، والوحدانية فى الذات والصفات والأفعال. وقال الأزهرى : المثل الأعلى ، أي : التوحيد والخلق والأمر ، ونفى كل إله سواه. ويترجم عن هذا كله بقول : «لا إله إلا الله». هـ. وَهُوَ الْعَزِيزُ فى ملكه ، الْحَكِيمُ فى صنعه ، أي : المنفرد بكمال القدرة والحكمة ، فالقدرة مظهرة للأشياء فى أوقاتها ، والحكمة تسترها برداء أسبابها وشروطها. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى لأهل التوحيد الكامل أن يتنزهوا عن شبهة الشرك فى أعمالهم وأموالهم ، فلا يشركون فيما رزقهم الله ، من الأموال ، أحدا من المخلوقين ، يجعلون لهم نصيبا فى أموالهم ، على قصد

الحفظ ، أو إصلاح النتاج ، كما تفعله العامة مع الصالحين ، فإن ذلك مما يقدح فى صفاء التوحيد إذ لا فاعل سواه. وقوله تعالى : وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ... الآية ، فيه ذم وتهديد لمن يكره البنات ، وينقبض من زيادتهن لأن فيه نزغة من فعل الجاهلية ، بل ينبغى إظهار البسط والبرور بهن أكثر من الذكور ، ولا شك أن النفقة عليهن أكثر ثوابا من الذكور ، وفى الحديث : «من ابتلى بهذه البنات ، فأحسن إليهنّ ، كنّ له حجابا من النّار». «١» إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة ترغب فى الإحسان إليهن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إمهاله تعالى للكفار ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٦١]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة) ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات) عن السيدة عائشة – رضى اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٣٩

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ أي : بكفرهم ومعاصيهم الصادرة من بعضهم ، ما تَرَكَ عَلَيْها أي : على الأرض مِنْ دَابَّةٍ : نسمة تدب عليها ، بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود : (كاد الجعل «١» يهلك فى جحره بذنب ابن آدم). وقيل : لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى سماه لأعمارهم ، أو لعذابهم ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ عليه ، بل يهلكون ، أو يعذبون حينئذ لا محالة ، فالحكمة فى إمهال أهل الكفر والمعاصي لئلا يعم العذاب ، كقوله : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً «٢» ، و(لعل الله تعالى يخرج من أصلابهم من يوحد الله). والله تعالى أعلم.

الإشارة : إن الله يهم أن ينزل إلى أهل الأرض عذابا لما يرى فيهم من كثرة الظلم والفجور ، فإذا رأى حلق الذكر ومجالس العلم رفع عنهم العذاب. وفى بعض الأخبار : «لو لا شيوخ ركع ، وصبيان رضّع ، وبهائم رتّع ، لصبّ عليكم العذاب صبّا». «٣».

ثم ذكر وعيد الكفار ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٢]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)

قلت : (أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى) : بدل من (الْكَذِبَ) ، ومن قرأ (مُفْرَطُونَ) بالكسر ، فاسم فاعل من الإفراط ، وهو : تجاوز الحد ، ومن قرأها بالفتح فاسم مفعول ، من أفرط فى طلب الماء ، إذا قدمه. ومن قرأ بالتشديد فمن التفريط.

يقول الحق جل جلاله : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ لأنفسهم من البنات ، والشركاء فى الرئاسة وأراذل الأموال ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ مع ذلك ، وهو أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى عند اللّه ، وهى الجنة. وهذا كقوله :

وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى «٤». قال تعالى : لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ أي : لا شك ، أو حقا أن لهم النار ، وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ مقدّمون إليها ، أو متركون فيها ، أو مفرطون فى المعاصي والظلم ، متجاوزون الحد فى ذلك. أو مفرطون فى الطاعة من التفريط.

---

(١) الجعل : حيوان كالخنفساء ... انظر : النهاية (جعل ، ١/ ٢٧٧).

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقي فى الكبرى (صلاة الاستسقاء ، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان ٣/ ٣٤٥) والطبراني فى الأوسط (ح ٦٥٣٩) ، وابن عدى فى الكامل (٤/ ١٦٢٢) عن مالك بن عبيدة الديلي ، عن أبيه ، عن جده.

(٤) من الآية ٥٠ من سورة فصلت.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤٠

الإشارة : الواجب فى حق الأدب أن ما كان من الكمالات ينسب إلى اللّه تعالى ، كائنا ما كان ، وما كان من النقائص ينسب إلى العبد ، وإن كان ، فى الإيجاد والاختراع ، كل من عند اللّه ، وهو بهذا الاعتبار فى غاية الحسن.

كما قال صاحب العينية رضي اللّه عنه :

وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معانى الحسن فيه تسارع

يكمّل نقصان القبيح جماله فما ثمّ نقصان ولا ثمّ باشع

ثم سلّى نبيه صلى اللّه عليه وسلم بقوله :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

قلت : (وَ هُدىً وَرَحْمَةً) : معطوفتان على «لِتُبَيِّنَ» ، وانتصبا على المفعولية من أجله ، أي : لأجل البيان والهدى والرحمة.

يقول الحق جل جلاله : تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا رسلا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ يا محمد ، فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ السوء ، فرأوها حسنة ، فأصروا على قبائحها ، وكذبوا الرسل ، فصبروا حتى نصروا. فاصبر كما صبروا ، حتى تنصر كما انتصروا. فكان عاقبة من اتبع الشيطان الهلاك والوقوع فى العذاب ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ أي : متولى أمورهم الْيَوْمَ فى الدنيا ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة ، أو : فهو وليهم يوم القيامة ، على أنه حكاية حال آتية ، أي : لا ولى لهم غيره فى ذلك اليوم ، وهو عاجز عن نصر نفسه ، فكيف ينصر غيره؟

وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ : القرآن إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ : للناس الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ من التوحيد ، والقدر ، وأحوال المعاد ، وأحكام الأفعال ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ به ، فإنهم المنتفعون بإنزاله.

الإشارة : كل من وقف دون الوصول إلى مشاهدة الحق ، فهو مزين له فى عمله ، مستدرج به وهو لا يشعر ، وحظه يوم القيامة الندم والأسف. وفى ذلك يقول أبو المواهب «١» :

من فاته منك وصل حظّه النّدم ومن تكن همّه تسمو به الهمم

---

(١) التونسى ، صاحب «قوانين حكم الإشراق».

وناظر فى سوى معناك حقّ له يقتصّ من جفنه بالدّمع وهو دم

والسّمع إن جال فيه من يحدّثه سوى حديثك أمسى وقره الصّمم

فهذه علامات الوصول إلى الحق ، بحيث ترتفع همته إلى حضرة الحق ، ويصرف نظره فى معانى أسرار التوحيد ، وسمعه فيما يقرب إلى صريح التفريد ، ومن لم يبلغ هذا المقام ، لم ينقطع عنه تزيين الشيطان ، فيزين له عمله ، فيقف معه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده وباهر قدرته ، وفى معرفتهما معرفة ذاته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٥]

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً مطرا فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها ، فكانت هامدة غبراء ، غير منبتة ، شبيهة بالميت ، فصارت ، بعد إنزال المطر ، مخضرة مهتزة رابية شبيهة بالحي. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر وإنصاف فإن هذه الآية ظاهرة ، تدرك بأدنى تنبيه وسماع ، غير محتاجة إلى كثرة تفكر واعتبار.

الإشارة : واللّه أنزل من سماء الغيوب ماء العلوم النافعة ، فأحيا به أرض النفوس الميتة بالغفلة والجهل ، فصارت مبتهجة بأنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وفى ذلك يقول الشاعر :

إنّ عرفان ذى الجلال لعزّ وضياء وبهجة وسرور

وعلى العارفين أيضا بهاء وعليهم من المحبّة نور

فهنيئا لمن عرفك ، إلهى هو ، واللّه ، دهره ، مسرور

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٦ الى ٦٧]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

قلت : سقى وأسقى : لغتان ، على المشهور. والضمير فى (بُطُونِهِ) : للأنعام ، وذكّره باعتبار ما ذكر «١» ، كقوله :

كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ «٢» ، أو : باعتبار الجنس ، وعدّه سيبويه فى المفردات المبنية على : أفعال ،

---

(١) أي : مما فى بطون ما ذكرناه.

(٢) الآيتان : ١١ – ١٢ من سورة عبس.

كأخلاق وأكباش ، فهو ، عنده ، اسم جمع ، كقوم ورهط ، فلفظه مفرد ومعناه جمع ، فذكّره هنا مراعاة للفظه ، وأنثه ، فى سورة المؤمنين مراعاة لمعناه. ومن قال : إنه جمع «نعم» ، جعل الضمير للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها.

و(من) فى قوله : «مِمَّا» للتبعيض ، و«مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ» لابتداء الغاية ، و(مِنْ ثَمَراتِ) : يتعلق بمحذوف

، أي :

ونسقيكم من ثمرات النخيل ، يدل عليه (نُسْقِيكُمْ) الأول. و(تَتَّخِذُونَ) : استئناف لبيان الإسقاء ، أو يكون (ثَمَراتِ) :

عطفا على (مِمَّا فِي بُطُونِهِ) ، أو يتعلق (مِنْ ثَمَراتِ) بتتخذون ، أي : تتخذون من ثمرات النخيل سكرا. وكرر (مِنْهُ) للتأكيد ، أو يكون (تَتَّخِذُونَ) : صفة لمحذوف ، أي : شيء تتخذون منه سكرا.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ لَكُمْ أيها الناس ، فِي الْأَنْعامِ وهى : الإبل والبقر والغنم ، لَعِبْرَةً ظاهرة تدل على كمال قدرته ، وعجائب حكمته ، وهى أنا نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ أي : بعض ما استقر فى بطونه من الغذاء ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وهو ما فى الكرش من القذر ، وَدَمٍ وهو ما تولد من لباب الغذاء ، لَبَناً خالِصاً من روائح الفرث ، صافيا من لون الدم. والمعنى : أن اللّه يخلق اللبن متوسطا بين الفرث والدم يكتنفانه ، ومع ذلك فلا يغير له لونا ولا طعما ولا رائحة. وعن ابن عباس : (إن البهيمة إذا اعتلفت ، وانطبخ العلف فى كرشها ، كان أسفله فرثا ، وأوسطه لبنا ، وأعلاه دما). ثم وصفه بقوله : سائِغاً لِلشَّارِبِينَ سهل المرور فى حلقهم ، حتى قيل : لم يغصّ أحد قط من اللبن. وروى ذلك عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «١».

وَنسقيكم ، أيضا ، مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ أي : من عصيرهما. ثم بيّن كيفية الإسقاء فقال : تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أي : مما ذكر سَكَراً يعنى : الخمر ، سميت بالمصدر ، ونزل قبل تحريم الخمر ، فهى منسوخة بالتحريم. وقيل : هى على وجه المنة بالمنفعة التي فى الخمر ، ولا تعرّض فيها لتحليل الخمر ولا تحريم ، وهذا هو الصحيح. وفى دعوى النسخ نظر لأن النسخ إنما يكون فى الأحكام المشروعة المقررة ، وهنا ليس كذلك ، إنما فيه امتنان واعتبار فقط. وَتتخذون من ثمراتها رِزْقاً حَسَناً كالتمر ، والزبيب ، والدبس – وهو ما يسيل من الرطب – ، والخلّ ، والربّ «٢» ، وقيل : السّكر : المائع من هاتين الشجرتين كالخل ، والرّب ، والرزق الحسن : العنب والتمر. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً دالة على كمال قدرته تعالى ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يستعملون عقولهم بالتأمل ، والنظر فى الآيات.

---

(١) روى ذلك بلفظ : «ما شرب أحد لبنا فيشرق» ، عزاه السيوطي ، فى الدر (٤/ ٢٨) ، لابن مردويه عن يحيى بن أبى كبشة عن أبيه عن جده مرفوعا.

(٢) الرّبّ : ما يطبخ من التمر ... انظر : النهاية (ربب ٢/ ١٨١).

الإشارة : كما استخرج الحق ، جل جلاله ، من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، استخرج مذهب أهل السنة ، القائلين بالكسب ، من بين مذهب الجبرية ومذهب المعتزلة ، بين قوم أفرطوا ، وقوم فرطوا. واستخرج أيضا مذهب الصوفية – أعنى : المحققين منهم – من بين الواقفين مع ظاهر الشريعة والمتمسكين بمجرد الحقيقة ، بين قوم تفسقوا وقوم تزندقوا ، بين قوم وقفوا مع عالم الحكمة ، وقوم وقفوا مع شهود القدرة من غير حكمة ، وهو ، إن لم يكن عن غلبة سكر ، كفر. واستخرج ، أيضا ، مذهب أهل التربية من بين سلوك محض وجذب محض ، فأهل السلوك المحض محجوبون عن اللّه ، وأهل الجذب المحض غائبون عن طريق اللّه ، وأهل التربية برزخ بين بحرين ، الجذب فى بواطنهم ، والسلوك على ظواهرهم. ولا يعرف هذا إلا من شرب مشربهم ، قد أخذوا من ثمرات نخيل الشرائع وأعناب الحقائق ، سكرا فى قلوبهم ، بشهود محبوبهم ، ورزقا حسنا معرفة فى أسرارهم ، وعبودية فى ظواهرهم ، فصاروا جامعين بين جذب الحقائق وسلوك الشرائع ، كل واحد فى محله. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]

وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

قلت : (أَنِ اتَّخِذِي) : مفسرة للوحى الذي أوحى إلى النحل ، أو مصدرية ، أي : بأن اتخذي. و(مِنَ) : للتبعيض فى الثلاثة مواضع ، (ثُمَّ كُلِي) : عطف على (اتَّخِذِي). و(مِنْ) : للتبعيض لأنها لا تأكل من جميع الشجر ، وقيل :

من كل الثمرات التي تشتهيها ، فتكون للبيان. و(ذُلُلًا) : حال من السبل ، أو من الضمير فى (فَاسْلُكِي).

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أي : ألهمها ، وقذف فى قلوبها ذلك. والوحى على ثلاثة أقسام : وحي إلهام ، ووحي منام ، ووحي أحكام. وقال الراغب : أصل الوحى : الإشارة السريعة ، إما بالكلام رمزا ، وإما بصوت مجرد عن التركيب ، أو بإشارة ببعض الجوارح ، والكناية. ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى الأنبياء : وحي ، وذلك أضرب إما برسول مشاهد ، وإما بسماع كلام من غير معاينة ، كسماع موسى كلام اللّه ، وإما بإلقاء فى الروع ، وإما بإلهام ، نحو : وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى «١» ، وإما تسخير ، كقوله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ، أو بمنام ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم : «انقطع الوحى ، وبقي المبشرات رؤيا المؤمن» «٢».

---

(١) من الآية ٧ من سورة القصص. [.....]
(٢) أخرجه البخاري فى (التعبير ، باب المبشرات) ، بلفظ : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات؟ قال الرؤيا الصالحة» من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

ثم بيّن ما أوحى إليها فقال : أَنِ اتَّخِذِي ، أو بأن اتخذي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً تأوين إليها ، كالكهوف ونحوها ، وَمِنَ الشَّجَرِ بيوتا ، كالأجباح «١» ونحوها ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ أي : يهيئون ، أو يبنون لك الناس من الأماكن ، وإلا لم تأو إليها. وذكرها بحرف التبعيض لأنها لا تبنى فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش من كرم أو سقف ، ولا فى كل مكان منها. وإنما سمى ما تبنيه ، لتتعسل فيه ، بيتا تشبيها ببناء الإنسان لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة ، التي لا يقوى عليها حذّاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة. ولعل ذكره : للتنبيه على ذلك. قاله البيضاوي. قلت : وليس للنحل فعل فى الحقيقة ، وإنما هو صنع العليم الحكيم فى مظاهر النحل.
ثم قال لها : ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ التي تشتهيها ، حلوها ومرها. قيل : إنها ترعى من جميع النوار إلا الدفلة «٢». فَاسْلُكِي أي : ادخلى سُبُلَ رَبِّكِ طرقه فى طلب المرعى ، أو : فاسلكى راجعة إلى بيوتك ، سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تلتبس. وأضافها إليه لأنها خلقه وملكه. ذُلُلًا : مطيعة منقادة لما يراد منك ، أو اسلكى طرقه مذللة مسخرة لك ، فلا تعسر عليك وإن توعرت ، ولا تضل عن العود منها وإن بعدت. قال مجاهد : لم يتوعّر على النحل قط طريق.
يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ وهو العسل ، عدل عن خطاب النحل إلى خطاب الناس : لأنه محل الإنعام عليهم ، والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. وسماه شرابا لأنه مما يشرب. وظاهر الآية أن العسل يخرج من بطون النحل ، وهو ظاهر كلام سيدنا على بن أبى طالب رضي اللّه عنه فى تحقيره للدنيا ، قال : (أشرف لباس ابن آدم فيها نفثة دود ، وأشرف شراب فيهارجيع نحلة – أو قيء نحلة – ، وأشرف لذة فيها مبال فى مبال). وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل. قاله ابن عطية. قلت : والذي ألفيناه ، ممن يتعاطاهم ، أنه يخرج من دبرهم.
وقوله : مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ أي : أبيض ، وأحمر ، وأسود ، وأصفر ، بحسب اختلاف سن النحل ، ومراعيها. وقد يختلف طعمه ورائحته باختلاف مرعاه. ومنه قول عائشة للنبى – عليه الصلاة والسلام : (جرست نحله العرفط) «٣» وهو نبت منتن الرائحة ، شبهت رائحته برائحة المغافير «٤».
ثم قال تعالى : فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إما بنفسه ، كما فى الأمراض البلغمية ، أو مع غيره ، كما فى سائر

الأمراض ، إذ قلما ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه. قاله البيضاوي. قال السيوطي : قيل : لبعضها ، كما دل

---

(١) الجبح : هى مواضع النحل فى الجبل ، وفيها تعسل ، وقيل : الأجباح : حجارة الجبل .. انظر اللسان – جبح.

(٢) الدفلة : نبت مرّ ، أخضر ، حسن المنظر انظر .. اللسان (دخل ، ٢/ ١٣٩٧).

(٣) جاء ذلك فى حديث شرب النبي صلى اللّه عليه وسلم العسل. وأخرجه البخاري فى (الطلاق ، باب لم تحرم ما أحل اللّه لك). والعرفط – بالضم – :

شجر الطّلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكلته النحلة حصل فى عسلها من ريحه. انظر النهاية (عرفط).

(٤) المغافير : جمع مغفور ومغفار ، وهو صمغ حلو ، له رائحة كريهة ، يسيل من شجر العرفط ، يؤكل ، أو يوضع فى ثوب ، ثم ينضح بالماء ، فيشرب. انظر اللسان (غفرة ٥/ ٣٢٧٥).

عليه تنكير شفاء ، أو لكلها بضميمة إلى غيره – أقول : وبدونها ، بنية – وقد أمر به صلى اللّه عليه وسلم من استطلق بطنه ، رواه الشيخان. هـ. قال ابن جزى : لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل كالمعاجن ، والأشربة النافعة من الأمراض.

وكان ابن عمر يتداوى به من كل شىء ، فكأنه أخذه من العموم. وعلى ذلك يدل الحديث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أن رجلا جاء إليه فقال : أخى يشتكى بطنه ، فقال : اسقه عسلا ، فذهب ثم رجع ، فقال : قد سقيته فما نفع ، قال : فاذهب فاسقه عسلا ، فقد صدق اللّه وكذب بطن أخيك ، فسقاه ، فشفاه اللّه عز وجل» «١».

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر ، علم ، قطعا ، أنه لا بد له من قادر مدبر حكيم ، يلهمها ذلك ويحملها عليه ، وهو الحق تعالى.

الإشارة : إنما كان العسل فيه شفاء للناس لأن النحل ترعى من جميع العشب ، فتأخذ خواص منافعها. وكذلك العارف الكامل يأخذ النصيب من كل شىء ، ويعرف اللّه فى كل شىء ، فإذا كان بهذه المنزلة ، كان فيه شفاء للقلوب ، كل من صحبه ، بصدق ومحبة ، شفاه اللّه ، وكل من رآه ، بتعظيم وصدق ،

أحياه اللّه. وقد قالوا فى صفة العارف : هو الذي يأخذ النصيب من كل شيء ، ولا يأخذ النصيب منه شيئا ، يصفو به كدر كل شيء ، ولا يكدر صفوه شيء ، قد شغله واحد عن كل شيء ، ولم يشغله عن الواحد شيء .. إلى غير ذلك من نعوته. وقال الورتجبي :

قال أبو بكر الوراق : النحلة لمّا تبعت الأمر ، وسلكت سبيلها على ما أمرت به ، جعل لعابها شفاء للناس ، كذلك المؤمن ، إذا اتبع الأمر ، وحفظ السر ، وأقبل على مولاه ، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاء للخلق ، ومن نظر إليه اعتبر ، ومن سمع كلامه اتعظ ، ومن جالسه سعد. هـ.

ثم ذكر دلالة أخرى على قدرته ، وهى الإحياء والإماتة ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٧٠]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ : أظهركم إلى عالم الشهادة ، ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ : يردكم إلى عالم الغيب عند انتهاء آجالكم ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي : أخسه ، يعنى : الهرم والخرف ، الذي يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل. وقيل : هو خمس وتسعون سنة ، وقيل : خمس وسبعون سنة ، والتحقيق : أن ذلك لا ينضبط بسن. لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية ، فى نقصان العقل والنسيان وسوء الفهم. وليس المراد نفى العلم بالكلية ، بل عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان. وقيل : المعنى : لئلا يعلم زيادة على علمه شيئا. قال عكرمة : (من قرأ القرآن لم يصر بهذه المنزلة).

---

(١) أخرجه البخاري فى (الطب ، باب الدواء بالعسل) ، ومسلم فى (السلام ، باب التداوى بسقى العسل) عن أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤٦

قلت : جاء فى بعض الأحاديث ما يقتضى تخصيص القارئ للقرآن بالمتبع له ، وأنه الذي يمتعه الله بعقله حتى يموت ، وهو الذي يشهد له الحس ، أي : الوجود فى الخارج ، بالصدق ، لوجود الخرف فى كثير ممن يحفظه.

قاله فى الحاشية.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ أي : عليم بمقادير الأشياء وأوقاتها ، قدير على إيجاد الأشياء وإعدامها ، عند انتهاء

آجالها ، فيميت الشاب النشط عند تمام أجله ، ويبقى الهرم الفاني إلى انقضاء أجله. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن تفاوت أعمار الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم ، ركب أبنيتهم ، وعدل أمزجتهم ، على قدر معلوم ، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لم يقع التفاوت إلى هذا المبلغ. هـ.

الإشارة : الخلق والتوفى هو من جملة الظهور والبطون ، عند أهل التوحيد الخاص ، والرد إلى أرذل العمر لا يلحق العارفين باللّه. وقد قيل ، فى استثناء قوله : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ «١» من الرد إلى أسفل سافلين : إن الصالح لا يدركه الخرف وإن أدركه الهرم. وذلك دليل على سعادته ، وعدم تشويه صورته فى الآخرة ، واللّه تعالى قادر على وقاية أوليائه مما يشين به أعداءه عاجلا. وفى الحديث : «إذا قرأ الرجل القرآن ، واحتشى من أحاديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم – أي : امتلأ – وكانت هناك غزيرة – يعنى : فقه نفس ومعرفة – ، كان خليفة من خلفاء الأنبياء» «٢».

ثم سفه رأى من أشرك بعد هذه الدلائل ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٧١]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فمنكم غنى ومنكم فقير ، ومنكم ملوك مستغنون عن غيرهم ، ومنكم مماليك محتاجون إلى غيرهم ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا وهم الموالي ، أي :

السادات ، بِرَادِّي رِزْقِهِمْ : بمعطى رزقهم عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ : على مماليكهم ، أي : ليس الموالي بجاعلى ما رزقناهم من الأموال وغيرها ، شركة بينهم وبين مماليكهم ، فَهُمْ أي : المماليك فِيهِ سَواءٌ مع

---

(١) من الآية ٦ من سورة البلد.

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (٧٩٤) للرافعى فى تاريخه ، عن أبى أمامة ، وضعّفه. وانظر : فيض القدير ، للمناوى (١/ ٤١٦).

ساداتهم. وهو احتجاج على وحدانيته تعالى ، وإنكار ورد على المشركين ، فكأنه يقول : أنتم لا تسوّون بين أنفسكم وبين مماليككم فى الرزق ، ولا تجعلونهم شركاء لكم ، بل تأنفون من ذلك ، فكيف تجعلون عبيدى شركاء لى فى ألوهيتى؟! وهذا كقوله : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما

مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ «١». ويحتمل أن يكون ذما وعتابا لمن لا يحسن إلى مملوكه ، حتى يرد ما رزقه اللّه عليه ، كما فى الحديث : «أطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون» «٢».

أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ، حيث يجعلون له شركاء ، فإنه يقتضى أن يضاف إليهم بعض ما أنعم اللّه عليهم ، ويجحدوا أنه من عند اللّه ، أو حيث أنكروا هذه الحجج ، بعد ما أنعم اللّه عليهم بإيضاحها ، أو حيث بخسوا مماليكهم مما يجب لهم من الإنفاق. على التفسير الثاني.

الإشارة : واللّه فضّل بعضكم على بعض فى أرزاق العلوم ، والأسرار والمواهب ، فمنكم غنى باللّه ، ومنكم فقير منه فى قلبه ، ومنكم عالم به ومنكم جاهل ، ومنكم قوى اليقين ومنكم ضعيف ، فما الذين فضّلوا بالعلوم اللدنية والأسرار الربانية برادّى تلك العلوم على الجهلة وضعفاء اليقين ، بأن يطلعوهم على أسرار الربوبية قبل استحقاقها – فإن ذلك بخس بحقها – حتى يرونهم أهلا لها بأن يبذلوا لهم أنفسهم وأموالهم ، ويملكون لهم رقابهم يتصرفون فيها تصرف المالك فى مملوكه ، فحينئذ يشاركونهم فيما منحهم اللّه من أرزاق العلوم وأسرار الفهوم ، وقد قيل : لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ولا أنثر الدرّ النّفيس على البهم

فإن قدّر اللّه الكريم بلطفه ولا قيت أهلا للعلوم وللحكم

بذلت علومى واستفدت علومهم وإلّا فمخزون لدىّ ومكتتم

فمن منح الجهّال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ثم ذكّرهم بالنعم التي لا قدرة لأحد عليها ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٧٢]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الروم.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد ، باب حديث جابر الطويل) ، من حديث أبى اليسر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤٨

قلت : الحفدة : جمع حافد ، وهو الخديم المسرع فى الخدمة ، والحفد فى اللغة : الخدمة ، ومنه فى القنوت : «وإليك نسعى ونحفد» ، أي : نسرع فى خدمتك. وسموا أولاد الأولاد حفدة لأنهم يسرعون فى خدمة جدهم ، حين كبر ولزم الدار ، وقيل : هم البنات لأنهن يخدمن الدار.

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً حيث خلق حواء من ضلع آدم ، وسائر النساء من نطفة الرجال ، والنساء خلقهن لكم ، لتتأنسوا بهن ، ولتتمتعوا بهن فى الحلال ، وليكون أولادكم مثلكم.

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ من صلبكم وَحَفَدَةً أولاد أولادكم أو بناتكم فإن البنات يخدمن فى البيوت أشد الخدمة ، أو الأصهار من قبل النساء ، أو الخدم ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من اللذائذ والمشتهيات كأنواع الثمار والحبوب والفواكه ، والحيوان أكلا وركوبا وزينة ، أو الحلالات ، و«مِنْ» : للتبعيض فإن طيبات الدنيا أنموذج من نعيم الآخرة. أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وهو أن الأصنام تنفعهم لأن الأصنام باطلة لا حقيقة لوجودها ، وإضافة النفع لها : كفر بنعمة الله ، ولذلك قال : وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ حيث أضافوها إلى أصنامهم ، أو حيث حرّموا منها ما أحله الله لهم كالبحائر والسوائب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : والله جعل لكم من أنفسكم المطهرة أصنافا من العلوم اللدنية. قال أبو سليمان الداراني : (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ، ثم عادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدى إليها عالم علما). وجعل لكم من تلك العلوم بنين روحانيين ، وهو التلامذة ، يحملون تلك العلوم ، وحفدة : من ينقل ذلك عنهم إلى يوم القيامة ، ورزقكم من الطيبات ، وهى حلاوة المعرفة عند العارفين ، وحلاوة الطاعات عند المجتهدين.

أفبالباطل – وهو ما سوى اللّه – يؤمنون ، فيقفون مع الوسائط والأسباب ، ويغيبون عن مسبب الأسباب ، وبنعمة اللّه – التي هى شهود الحق بلا وسائط – هم يكفرون.

ثم عاب على من وقف مع غير الله ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)

قلت : رِزْقاً : مفعول بيملك ، فيحتمل أن يكون مصدرا ، أو اسما لما يرزق ، فإن كان مصدرا ، فشيئا مفعول به لأن المصدر ينصب المفعول ، وإن كان اسما ، فشيئا بدل منه. وجمع الضمير فى يَسْتَطِيعُونَ ، وأفرده فى يَمْلِكُ لأن (ما) مفردة لفظا ، واقعة على الآلهة ، فراعى أولا اللفظ ، وفى الثاني المعنى.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٤٩

يقول الحق جل جلاله : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : غيره ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ بالمطر وَالْأَرْضِ بالنبات ، فلا يرزقونهم من ذلك شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ : لا يقدرون على شيء من ذلك لعجزهم ، وهم الأصنام ، فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ لا تجعلوا له أشباها تشركونهم به ، أو تقيسونهم عليه ، فإنّ ضرب المثل تشبيه حال بحال ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ألّا مثل له ، أو فساد ما يقولون عليه من القياس ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ذلك ، ولو علمتموه لما تجرأتم عليه ، فهو تعليل للنهى ، أي : إنه يعلم كنه الأشياء ، وأنتم لا تعلمون ، فدعوا رأيكم ، وقفوا عند ما ما حد لكم.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء دون الحق تعالى ، أو اعتمد عليه فى إيصال المنافع أو دفع المضار ، تصدق عليه الآية ، وتجر ذيلها عليه ، فلا تجعلوا لله أمثالا تعتمدون عليهم وتركنون إليهم ، فالله يعلم من هو أولى بالاعتماد عليه والركون إليه ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، أو تعلمون ولا تعملون ، ولقد قال من علم ذلك وتحقق به :

حرام على من وحّد اللّه ربّه وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا

فيا صاحبى ، قف بي على الحقّ وقفة أموت بها وجدا ، وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

قال سهل رضي اللّه عنه : «ما من قلب ولا نفس إلا واللّه مطلع عليه فى ساعات الليل والنهار ، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى غيره ، سلط عليه إبليس». وقال الأستاذ أبو على الدقاق رضي اللّه عنه : من علامة المعرفة : ألا تسأل حوائجك ، قلّت أو كثرت ، إلا من اللّه سبحانه ، مثل موسى عليه السّلام اشتاق إلى الرؤية ، فقال : رب أرنى أنظر إليك ، واحتاج مرة إلى رغيف ، فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير. هـ. وقال فى التنوير : اعلم ، رحمك الله ، أن رفع الهمة عن المخلوقين ، وعدم التعرض لهم ، أزين لهم من الحلي للعروس ، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس ... إلخ كلامه رضي اللّه عنه.

ثم ضرب مثلا لنفسه ، ولمن يعبد معه ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

قلت : «عَبْداً» : بدل من «مَثَلًا» ، و«مَنْ» : نكرة موصوفة ، أي : عبدا مملوكا ، وحرا رزقناه منا رزقا حسنا ، وقيل :

موصولة. و«سِرًّا وَجَهْراً» : على إسقاط الخافض ، وجمع الضمير فى «يَسْتَوُونَ» لأنه للجنسين ، و«رَجُلَيْنِ» : بدل من :

«مَثَلًا».

يقول الحق جل جلاله : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لضعف العبودية ، وعظمة الربوبية ، ثم بيّنه فقال : عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ ، وهذا مثال للعب ... بد ، وَمَنْ رَزَقْناهُ أي : وحرا رزقناه مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ، فَهُوَ يتصرف فيه كيف يشاء ، يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً ، وهذا : مثال للرب تبارك وتعالى ، مثّل ما يشرك به من الأصنام بالمملوك العاجز عن التصرف رأسا ، ومثّل لنفسه بالحر المالك الذي له مال كثير ، فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف شاء.

وقيل : هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق. وتقييد العبد بالمملوك للتمييز من الحر فإنه أيضا عبد للّه. وبسلب القدرة عن المكاتب والمأذون فى التصرف ، فإن الأصنام إنما تشبه العبد القنّ «١» الذي لا شوب حرية فيه ، بل هى أعجز منه بكثير ، فكيف تضاهى الواحد القهار ، الذي لا يعجزه مقدور؟ ولذلك قال : هَلْ يَسْتَوُونَ؟ أي : العبيد العجزة ، والمتصرف بالإطلاق. الْحَمْدُ لِلَّهِ على بيان الحق ووضوحه لأنها نعمة جليلة يجب الشكر عليها ، أو الحمد كله لله لا يستحقه غيره ، فضلا عن العبادة لأنه مولى النعم كلها. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي : لا علم لهم :

فيضيفون النعم إلى غيره ويعبدونه لأجلها ، أو لا يعلمون ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون به.

ثم ضرب الله مثلا آخر فقال : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، ثم بيّنه بقوله : رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ ولد أخرس ، لا يفهم ولا يفهم ، لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله ، وَهُوَ كَلٌّ أي : ثقيل عيال عَلى مَوْلاهُ الذي يلى أمره ، أَيْنَما يُوَجِّهْهُ : يرسله فى حاجة أو أمر لا يَأْتِ بِخَيْرٍ بنجح وكفاية مهم. وهذا مثال للأصنام. هَلْ يَسْتَوِي هُوَ أي : الأبكم المذكور ، وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ومن هو منطيق متكلم بحوائجه ، ذو كفاية ورشد ، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ، وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : وهو فى نفسه على طريق مستقيم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويحصله بأقرب سعى؟

وهذا مثال للحق تعالى ، فضرب هذا المثل لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام ، وقيل : للكافر والمؤمن.

والأصوب : كون المثلين معا فى الله مع الأصنام لتكون الآية من معنى ما قبلها وما بعدها فى تبيين أمر الله ، والرد على أمر الأصنام. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) العبد القنّ : الذي ملك هو وأبواه ، ويقابله : عبد المملكة ، الذي ملك هو دون أبويه. انظر : النهاية (قنن).

(١٥٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥١

الإشارة : الحق تعالى موصوف بكمالات الربوبية ، منعوت بعظمة الألوهية ، وعبيده موسومون بنقائص العبودية ، وقهرية الملكية. فمن أراد أن يمده الله فى باطنه بكمالات الربوبية من قوة وعلم ، وغنى وعز ، ونصر وملك ، فليتحقق فى ظاهره بنقائص العبودية من ذل ، وفقر ، وضعف ، وعجز ، وجهل. فبقدر ما تجعل فى ظاهرك من نقائص العبودية يمدك فى باطنك بكمالات الربوبية «تحقق بوصفك يمدك بوصفه» ، والتحقق بالوصف إنما يكون ظاهرا بين خلقه ، لا منفردا وحده إذ ليس فيه كبير مجاهدة إذ كل الناس يقدرون عليه ، وإنما التحقق بالوصف – الذي هو ضامن للمدد الإلهى – هو الذي يظهر بين الأقران. وباللّه التوفيق.

ثم بيّن كمال علمه وقدرته ، بعد أن ذكر كمالات ذاته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٧ الى ٧٨]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

قلت : أمهات : جمع أم ، زيدت فيه الهاء فرقا بين من يعقل ومن لا يعقل ، قاله ابن جزى. والذي لغيره حتى ابن عطية : إنما زيدت للمبالغة والتأكيد. وقرئ بضم الهمزة ، وبكسرها اتباعا للكسرة قبلها. يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يعلم ما غاب فيهما ، كان محسوسا أو غير محسوس قد اختص به علمه ، لا يعلمه غيره. ثم برهن على كمال قدرته فقال : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ أي : قيام القيامة ، فى سرعته وسهولته ، إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ كرد البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ : أو أمرها أقرب منه بأن يكون فى زمان نصف تلك الحركة ، بل أقل لأن الحق تعالى يحيى الخلائق دفعة واحدة ، فى أقل من رمشة عين ، و«أَوْ» للتخيير ، أو بمعنى بل. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على أن يحيى الخلائق دفعة ، كما قدر أن يوجدهم بالتدريج.

ثم دلّ على قدرته فقال : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً جهالا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ أي : الأسماع وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ أي : القلوب ، فتكتسبون ، بما تدركون من المحسوسات ، العلوم البديهية ، ثم تتمكنون من العلوم النظرية بالتفكر والاعتبار ، ثم تدركون معرفة الخالق لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، أظهركم أولا من العدم ، ثم أمدكم ثانيا بضروب النعم ، طورا بعد طور ، حتى قدمتم عليه.

(١٥١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٢

وقدّم فى جميع القرآن نعمة السمع على البصر لأنه أنفع للقلب من البصر ، وأشد تأثيرا فيه ، وأعم نفعا منه فى الدين إذ لو كانت الناس كلهم صما ، ثم بعثت الرسل ، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر فى كثير من الأحكام. وإنما أفرده ، وجمع الأبصار والأفئدة لأن متعلق السمع جنس واحد ، وهى الأصوات ، بخلاف متعلق البصر ، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان ، والأنوار والظلمات ، وسائر المحسوسات ، وكذلك متعلق القلوب معانى ومحسوسات ، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع.

والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما غاب فى سماوات الأرواح من علوم أسرار الربوبية ، وفى أرض النفوس من علوم أحكام العبودية ، هو فى خزائن الله ، يفتح منهما ما شاء على من يشاء إذ أمره تعالى بين الكاف والنون. وما أمر الساعة ، التي يفتح الله فيها الفتح على عبده ، بأن يميته عن نفسه ، ثم يحييه بشهود طلعة ذاته ، إلا كلمح البصر أو هو أقرب. لكن حكمته اقتضت الترتيب والتدريج ، فيخرجه إلى هذا العالم جاهلا ، ثم يفتح سمعه للتعلم والوعظ ، وبصره للنظر والاعتبار ، وقلبه للشهود والاستبصار ، حتى يصير عالما عارفا بربه ، من الشاكرين الذين يعبدون الله ، شكرا وقياما برسم العبودية. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على التفكير ، الذي هو سبب المعرفة وشبكة العلوم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٧٩ الى ٨٣]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (٨٣)

قلت : مُسَخَّراتٍ : حال من الطَّيْرِ ، وسَكَناً : مصدر وصف به ، أي : شيئا سكنا ، أو : فعل بمعنى

مفعول.

وأَثاثاً : مفعول بمحذوف ، أي : وجعل من أوبارها أثاثا.

(١٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٣

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ يَرَوْا ، وفى قراءة : ا لم تروا «١» بتوجيه الخطاب لعامة الناس ، إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ : مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية ، فِي جَوِّ السَّماءِ فى الهواء المتباعد من الأرض. ما يُمْسِكُهُنَّ فيه إِلَّا اللَّهُ فإن ثقل جسدها يقتضى سقوطها ، ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها ، إِنَّ فِي تسخيره ذلِكَ لها لَآياتٍ لعبرا ودلالة على قدرته تعالى إذ لا فاعل سواه فإنّ إمساك الطيران فى الهواء هو على خلاف طباعها ، لو لا أن القدرة تحملها ، ففيه آيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لأنهم هم المنتفعون بها.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً : موضعا تسكنون فيه وقت إقامتكم ، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر. و«مِنْ» للبيان ، أي : جعل لكم سكنا ، أي : موضعا تسكنونه ، وهو بيوتكم ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً ، هى القباب المتخذة من الأدم ، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر ، فإنها ، من حيث إنها نابتة على جلودها ، كأنها من جلودها ، تَسْتَخِفُّونَها أي : تجدونها خفيفة ، يخف عليكم حملها وثقلها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أي : سفركم ، وفيه لغتان : الفتح والسكون «٢» ، وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ : حضوركم ، أو نزولكم ، وَجعل مِنْ أَصْوافِها أي : الغنم ، وَأَوْبارِها أي : الإبل ، وَأَشْعارِها أي : المعز ، أَثاثاً :

متاعا لبيوتكم كالبسط والأكسية ، وَمَتاعاً تمتعون به إِلى حِينٍ إلى مدة من الزمان ، فإنها ، لصلابتها ، تبقى مدة مديدة ، أو : إلى مماتكم ، أو : إلى أن تقضوا منها أوطاركم ، أو : إلى أن تبلى.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ من الشجر والجبال والأبنية ، وغيرها ، ظِلالًا تتقون بها حر الشمس ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً جمع : كن ، ما تكنون ، أي : تسترون به من الحر والبرد ، كالكهوف والغيران والبيوت المجوفة فيها ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ جمع : سربال ثيابا من الصوف والكتان والقطن وغيرها ، تَقِيكُمُ الْحَرَّ والبرد ، وخص الحر بالذكر ، اكتفاء بأحد الضدين ، أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ : حربكم ، كالطعن والضرب. وهى : الدروع ، وتسمى : الجواشن ، جمع جوشن ، وهو الدرع ، كَذلِكَ كإتمام هذه النعم بخلق هذه الأشياء المتقدمة ، يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ فى الدنيا بخلق ما تحتاجون إليه ، لَعَلَّكُمْ يا أهل مكة تُسْلِمُونَ أي : تنظرون فى نعمه ، فتؤمنون به ، أو تنقادون لحكمه.

وفى قراءة : بفتح التاء ، أي : تسلمون من العذاب بالإيمان ، أو تنظرون فيها ، فتوحدون ، وتسلمون من الشرك ، أو من الجراح بلبس الدروع.

---

(١) وهى قراءة ابن عامر وحمزة ويعقوب. وقرأ الباقون : (يَرَوْا) بالغيب لقوله «يَعْبُدُونَ». انظر الإتحاف (٢/ ١٨٧).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بإسكان العين ، والباقون بفتحها.

فَإِنْ تَوَلَّوْا : أعرضوا ، ولم يقبلوا منك ، أو لم يسلموا. فَإِنَّما عَلَيْكَ يا محمد الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي : الإبلاغ البين ، فلا يضرك إعراضهم حيث بلّغتهم.

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ أي : يقرون بأنها من عنده ، ثُمَّ يُنْكِرُونَها بإشراكهم وعبادتهم غير المنعم بها ، وبقولهم : إنها بشفاعة آلهتنا ، أو بسبب كذا ، أو بإعراضهم عن حقوقها. وقيل : نعمة اللّه : نبوة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، عرفوها بالمعجزات ، ثم أنكروها عنادا. وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ الجاحدون عنادا. وذكر الأكثر إمّا لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان عقله ، أو لتفريطه فى النظر ، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف ، أو كان فيهم من داخله الإسلام ، ومن أسلم بعد ذلك. وإما لأنه أقام الأكثر مقام الكل ، كقوله : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ «١». قال بعضه البيضاوي.

الإشارة : قال الورتجبي : بيّن الحقّ تعالى قدرته فى إمساكه أطيار الأرواح فى هواء الملكوت وسماء الجبروت ، حتى ترفرفت بأجنحة العرفان والإيقان ، على سرادق مجده وبساط كبريائه ، مسخرات بأنوار جذبه ، ما يمسكهن إلا الله ، بكشف جماله لها ، أمسكها به عن قهر سلطانه وسبحات جلاله ، حتى لا تفنى – أي : تتلاشى – فى بهائه. هـ.

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا – وهى العبودية – ، تسكنون فيها وتأوون إليها ، بعد طيران الفكرة فى جو أنوار الملكوت ، وميادين أسرار الجبروت. أو الحضرة تسكن فيها قلوبكم ، فتصير معشّش أرواحكم ، إليها تأوون ، وفيها تسكنون. وجعل لكم منازل تنزلون فيها عند السير إلى حضرة ربكم ، وهى المقامات التي يقطعها المريد ، ينزل فيها ويرتحل عنها. وجعل لكم من أردية الأكوان وألوانها واختلاف أصنافها ، تمتعا بشهود أنوار مكونها فيها ، إلى انطوائها وظهور أضدادها بقيام الساعة ، فتظهر القدرة وتبطن الحكمة ، ويظهر المعنى ويبطن الحس.

واللّه جعل لكم مما خلق من الأكوان ظلالا ، والظلال لا وجود لها من ذاتها ، فكذلك الأكوان لا

وجود لها مع الحق ، وإنما هى ظلال. والظلال ليست بموجودة ولا مفقودة. وجعل لكم من جبال العقل أكنانا ، تستترون بنوره من جذب الاصطلام بمواجهة أنوار الحضرة. وجعل لكم سرابيل الشرائع تقيكم حرّ الحقيقة ، وسرابيل الحقائق تقيكم بأس سهام الأقدار ، فإنّ من عرف اللّه حقيقة هان عليه ما يواجه به من المكاره. وفى هذا المعنى أنشد بعضهم :

نلبس عمام من الماء ونشدّها شدّ مائل

ونلبس من الثّلج برنس إذا حمت القوائل

ونشعل من الرّيح قنديل ومن الضّباب فتائل «٢»

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة النحل. [.....]

(٢) هذا شعر عامى ، أو زجل ، وهو جيد المعنى ، ويعبر عن همة عالية عند قائله. وقوله : إذا حمت القوائل ، يعنى : إذا اشتد الحر فى أوقات الظهيرة. وبقية الزجل واضح المعنى.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٥

والمراد بعمامة الماء : كناية عن الحقيقة لأنها كالماء لحياة النفوس. وميل شدها : كناية عن قوتها ، وتكبيرها على الشريعة. والمراد ببرنس الثلج : برد التشريع ، فإذا قويت الحقيقة ، وخاف من الاحتراق ، نزل إلى برد التشريع. والمراد بالريح : هبوب نسيم الواردات الإلهية ، يشعل منها قنديل الفكرة – التي هى سراج القلب – ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ، وهذه حالة السائر ، وأما الواصل فقد سكن النور فى قلبه ، فلا يحتاج إلى سراج غيره تعالى. وفى ذلك يقول الشاعر :

كلّ بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى سرج

وجهك المحمود حجّتنا يوم يأتى الناس بالحجج

والمراد بالضباب : وجود السّوى ، فإنه يحترق عند اشتعال الفكرة. واللّه تعالى أعلم. وباقى الآية ظاهر إشارته.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه النعم ، التي هى دلائل قدرته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٨٤ الى ٨٩]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ

وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

قلت : «تِبْياناً» : حال من الكتاب ، وهو مصدر ، قال فى القاموس : والتبيان : مصدر شاذ. وفى ابن عطية :

والتبيان : اسم ، لا مصدر. والمصادر فى مثله مفتوحه ، كالترداد والتكرار. هـ. وقال فى الصحاح : لم يجئ على الكسر إلا هذا ، والتّلقاء. هـ.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ من الأمم شَهِيداً أي : رسولا يشهد لها أو عليها ، بالإيمان أو بالكفر ، وهو يوم القيامة ، ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فى الاعتذار إذ لا عذر لهم. «١»

---

(١) فى باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا ، حكى القشيري فى الرسالة ، عن أبى محمد الهروي «أنه قال : ومكثت عند الشبلي ، الليلة التي مات فيها ، فكان يقول – طول ليله – : هذين البيتين :

كل بيت أنت ساكنة غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

(١٥٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٦

أو : فى الرجوع إلى الدنيا. وعبّر بثم لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع من الاعتذار ، مع ما فيه من الإقناط الكلي. وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ : لا يطلب منهم العتبى ، أي : الرجوع إلى ما يرضى الله. والمعنى : أنهم لا يؤذن لهم فى الاعتذار عما فرطوا فيه مما يرضى اللّه ، ولا يطلب منهم الرجوع إلى تحصيله.

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا :

كفروا الْعَذابَ : جهنم فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ العذاب وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ يمهلون عنه إذا رأوه.

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ : أوثانهم التي دعوها شركاء للّه ، أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه ، قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ أي : نعبدهم ونطيعهم من دونك. وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين فى ذلك. فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ قالوا لهم : إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ أي : أجابوا بالتكذيب فى أنهم شركاء اللّه ، أو أنهم عبدوهم حقيقة ، وإنما عبدوا أهواءهم كقوله : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ «١» ، وقوله : ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ «٢» ، أو لأنهم ، لما كانوا غير راضين

بعبادتهم ، فكأن عبادتهم لم تكن لهم. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ أي : الاستسلام ، أي : استسلموا لحكمه (يَوْمَئِذٍ) ، بعد أن تكبروا عنه فى الدنيا ، ولا ينفع يومئذ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ أي : غاب وضاع وبطل ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أن آلهتهم تنصرهم وتشفع لهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بالمنع من الإسلام ، والحمل على الكفر ، زِدْناهُمْ عَذاباً بصدهم ، فَوْقَ الْعَذابِ المستحق بكفرهم. قال ابن مسعود : «عقارب ، أنيابها كالنخل الطوال ، تلسعهم». وعن عبيد بن عمير : عقارب كالبغال الدّلم – أي : السود جدا ، والأدلم : الشديد السواد. وذلك العذاب بِما كانُوا يُفْسِدُونَ أي : بكونهم مفسدين بصدهم عما فيه صلاح العالم.

وَاذكر أيضا : يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يعنى : نبيهم فإنّ نبى كل أمة بعث منها. وَجِئْنا بِكَ يا محمد شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ على أمتك ، أو على هؤلاء الشهداء ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ : القرآن تِبْياناً بيانا بليغا لِكُلِّ شَيْءٍ من أمور الدين على التفصيل ، أو الإجمال بالإحالة على السنة أو القياس. وَهُدىً من الضلالة ، وَرَحْمَةً بنور الهداية لجميع الخلق. وإنما حرم المحروم لتفريطه ، وَبُشْرى بالجنة ، وغيرها ، لِلْمُسْلِمِينَ الموحدين خاصة. وباللّه التوفيق.

الإشارة : قد بعث اللّه فى كل دهر وعصر شهيدا يشهد على أهله ، ويكون حجة عليهم يوم القيامة ، وهم صنفان : صنف يشهد على من فرط فى أحكام الشريعة ، وهم : العلماء الأتقياء ، وصنف يشهد على من فرط فى

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

(٢) من الآية ٣ من سورة القصص.

أسرار الحقيقة ، وهم : الأولياء الكبراء ، أعنى : العارفين باللّه ، فمن فرط فى شىء منهما قامت عليه الحجة فإذا اعتذر لا ينفعه ، وإذا طلب الرجوع لا يجده ، وإذا أحاط به عذاب الحجاب لا ينفك عنه. وكل من أحب شيئا من دون اللّه ، تبرأ منه يوم القيامة ، وكل من أنكر الخصوصية على أولياء زمانه ، وصد الناس عنه تضاعف عذابه ، وكشف حجابه يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر أن القرآن فيه تبيان كل شىء ، ذكر آية تضمنت أصول الأحكام ، فيها تبيان كل شىء إجمالا ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ٩٠]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ أي : التوحيد ، أو الإنصاف ، أو فعل الفرائض ، وَالْإِحْسانِ ، وهو : فعل المندوبات. وذلك فى حقوق الله تعالى ، وفى حق عباده ، أو العدل فى الأحكام ، كل واحد فيما ولى فيه «كلكم راع». والإحسان إلى عباد الله برهم وفاجرهم. قال ابن عطية : العدل : هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع ، وسير مع الناس فى أداء الأمانات ، وترك الظلم ، والإنصاف ، وإعطاء الحق. والإحسان هو : فعل كل مندوب إليه.

وقال البيضاوي : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ : بالتوسط فى الأمور اعتقادا ، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، والقول بالكسب ، المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملا ، كالتعبد بأداء الواجبات ، المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقا ، كالجود المتوسط بين البخل والتبذير ، والإحسان : إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكمية ، كالتطوع بالنوافل ، أو بحسب الكيفية ، كما قال – عليه الصلاة والسلام : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى : وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه ، وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة.

وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ : عن الإفراط فى متابعة القوة الشهوية ، كالزنى فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها ، وَالْمُنْكَرِ : ما ينكر على متعاطيه فى إيثاره القوة الغضبية ، وَالْبَغْيِ : الاستعلاء والاستيلاء على الناس ، والتجبر عليهم ، فإنها الشيطنة التي هى مقتضى القوة الوهمية ، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام ، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث ، ولذلك قال ابن مسعود رضي اللّه عنه : «هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر». وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون ، فلو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء ، وهدى ورحمة للعالمين ، ولعل إيرادها عقب قوله : وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ للتنبيه عليه. هـ.

وفى القوت : هى قطب القرآن. هـ. وعن عثمان بن مظعون : أنه قال : لمّا نزلت هذه الآية قرأتها على أبى طالب ، فعجب ، وقال : آل غالب ، اتبعوه تفلحوا ، فو اللّه إن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق. هـ. قال ابن عطية :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٥٨

وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى : لفظ يقتضى صلة الرحم ، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة ، وتركه مبهما أبلغ لأن كل من وصل فى ذلك إلى غاية – وإن علت – يرى أنه مقصر ، وهذا المعنى المأمور به فى جانب

ذى القربى داخل تحت العدل والإحسان ، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به وحضا عليه. هـ.
يَعِظُكُمْ بما ذكر من التمييز بين الأمر والنهى ، والخير والشر ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ : تتعظون فتنهضون إلى ما أمرتكم به وندبتكم إليه ، وتنكفوا عما نهيتكم عنه وحذرتكم منه.
الإشارة : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) بالتوسط فى الأمور كلها ، كالتوسط فى السير والمجاهدة فإن الإسراف يوقع فى الملل ، قال – عليه الصلاة والسلام – : «لا يكن أحدكم كالمنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى». وقال صلى اللّه عليه وسلم أيضا : «إنّ اللّه لا يمل حتى تملوا». واللّه ما رأيت أحدا أسرف فى الأحوال فوصل إلى ما قصد ، إلا النادر ، وخير الأمور أوسطها. ويأمر بالإحسان ، وهو : مقام الشهود والعيان. (وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى) قرابة الدين ، وهم : الإخوان فى الله ، ما يستحقونه من النصح والإرشاد ، (وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ) : الركون لغير الله ، (وَ الْمُنْكَرِ) : التكبر على عباد الله ، (وَ الْبَغْيِ) : ظلم أحد من خلق الله ، من الفيل إلى الذرة.
وقال فى الإحياء : بين التبذير والإقتار المذمومين وسط ، وهو المحمود المأمور به ، والواجب منه شيئان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحدا منهما فهو بخيل ، كالذى يمنع أداء الزكاة ، ويمنع أهله وعياله النفقة ، أو يؤديها لا بطيب نفسه ، بل بتكلف ومشقة. وكالذى يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يعطى من أطيبه وأوسطه ، فهذا كله بخل. وأما واجب المروءة فهو : ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات ، وذلك يختلف فيستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير ، ويستقبح من الرجل مع أقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب ، وكذلك الجار والمماليك والضيف. هـ.
وقال الورتجبي : إن الله تعالى دعا عباده إلى الاتصاف بصفته ، منها : العدل والإحسان والشفقة والرحمة ، والقدس ، والطهارة عما لا يليق به. فهو العادل والمحسن ، والرحمن الرحيم ، غير ظالم جائر ، وهو منزه عن جميع العلل ، فمن كسى أنوار هذه الصفات ، بنعت الذوق والمباشرة ، واستحلى تربيتها يخرج عادلا محسنا ، رؤوفا رحيما ، طاهرا مطهرا ، صادقا مصدقا ، وليا ، حبيبا محبوبا ، مريدا مرادا ، مراعى محفوظا ، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشك والشرك ، ورؤية الغير وطلب العوض فى العبودية ، ويأخذ منها الإنصاف بينها وبين عباد الله ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه ، ويراعى ذوى القرابة ، فى المعرفة والمحبة من المريدين والصادقين ، ويرحم الجهال من المسلمين ، وينهى نفسه عن مباشرة فواحش الأنانية ، ومباشرة الهوى والشهوة ،

ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية ، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله لتكون مطمئنة فى عبودية الحق ، ذاكرة لسلطان ربوبيته ، وقهر جبروته وملكوته وإحاطته بكل ذرة ، وفناء الخليقة فى حقيقته. هـ.

ومن مكارم الأخلاق الداخلة تحت العدل : الوفاء بالعهد ، كما قال تعالى :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٩١ الى ٩٦]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

قلت : وَقَدْ جَعَلْتُمُ : حال ، وأَنْكاثاً : حال من الغزل ، وهو : جمع نكث – بالكسر – بمعنى منكوث ، أي :

منقوض. وأَنْ تَكُونَ : مفعول من أجله ، وتَتَّخِذُونَ : جملة حالية من ضمير «تَكُونُوا».

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ كالبيعة للرسول – عليه الصلاة والسلام – وللأمراء ، والأيمان ، والنذور ، وغيرها ، إِذا عاهَدْتُمْ الله على شىء من ذلك ، وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ أيمان البيعة ، أو مطلق الأيمان ، بَعْدَ تَوْكِيدِها بعد توثيقها بذكر الله ، أو صفته ، أو أسمائه ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا شاهدا ورقيبا ، بتلك البيعة فإن الكفيل مراع لحال المكفول رقيب عليه ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ فى نقض الأيمان والعهود. وهو تهديد لمن ينقض العهد ، وهذا فى الأيمان التي فى الوفاء بها خير ، وأما ما كان تركه أولى فيكفّر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير ، كما فى الحديث.

وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها : أفسدته مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أي : إبرام وإحكام أَنْكاثاً أي :

طاقات ، أي : صيرته طاقات كما كان قبل الغزل ، بحيث حلت إحكامه وإبرامه ، حتى صار كما كان ، والمراد :

تشبيه الناقض بمن هذا شأنه ، وقيل : هى «ريطة بنت سعد القرشية» فإنها كانت خرقاء – أي : حمقاء – تغزل طول يومها ثم تنقضه ، فكانت العرب تضرب بها المثل لمن قال ولم يوف ، أو حلف ولم يبر فى يمينه. تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أي : لا تكونوا متشبهين بامرأة خرقاء ، متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم. وأصل الدخل : ما يدخل الشيء ، ولم يكن منه ، يقال : فيه الدخل والدغل ، وهو قصد الخديعة.

تفعلون ذلك النقض لأجل أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ : بأن تكون جماعة أزيد عددا وأوفر مالا ، من جماعة أخرى ، فتنقضون عهد الأولى لأجل الثانية لكثرتها. نزلت فى العرب ، كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى ، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها ، غدرت الأولى ، وحالفت الثانية. وقيل : الإشارة بالأربى هنا إلى كفار قريش إذ كانوا حينئذ أكثر من المسلمين ، فحذر من بايع على الإسلام أن ينقضه لما يرى من قوة كفار قريش.

إِنَّما يَبْلُوكُمُ : يختبركم اللَّهُ بِهِ بما أمر من الوفاء بالعهد لينظر المطيع منكم والعاصي. أو : بكون أمة هى أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تغترّون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فى الدنيا حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً أهل دين واحد متفقين على الإسلام ، وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بعدله ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ بفضله ، وَلَتُسْئَلُنَّ يوم القيامة سؤال تبكيت ومجازاة ، عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا لتجازوا عليه.

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، كرره تأكيدا مبالغة فى قبح المنهي عنه من نقض العهود ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ عن محجة الإسلام بَعْدَ ثُبُوتِها : استقامتها عليه ، والمراد : أقدامهم ، وإنما وحد ونكّر للدلالة على أن زلل قدم واحد عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة؟ وَتَذُوقُوا السُّوءَ : العذاب فى الدنيا بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : بصدكم عن الوفاء بعهد الله ، أو بصدكم غيركم عنه فإن من نقض البيعة ، وارتد ، جعل ذلك سنّة لغيره ، وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة.

وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ أي : لا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله صلى اللّه عليه وسلم بأخذكم ثَمَناً قَلِيلًا : عرضا يسيرا من الدنيا ، بأن تنقضوا العهد لأجله. قيل : هو ما كانت قريش يعدونه لضعفاء المسلمين ، ويشترطون لهم على الارتداد ، إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ من النصر والعز ، وأخذ الغنائم فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مما يعدونكم ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلك فلا تنقضوا ، أو إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

ما عِنْدَكُمْ من أعراض الدنيا يَنْفَدُ ينقضى ويفنى ، وَما عِنْدَ اللَّهِ من خزائن رحمته ، وجزيل نعمته باقٍ لا يفنى ، وهو تعليل للنهى عن نقض العهد طمعا فى العرض الفاني ، وَلَنَجْزِيَنَّ «١» الَّذِينَ صَبَرُوا على الوفاء بالعهود ، أو على الفاقات وأذى الكفار ، أو مشاق التكاليف ، أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ بما يرجح فعله من أعمالهم ، كالواجبات والمندوبات ، أو بجزاء أحسن من أعمالهم. وبالله التوفيق.

الإشارة : الوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، من شأن الصالحين الأبرار ، كالعباد والزهاد ، والعلماء الأخيار.

وأما أهل الفناء والبقاء من العارفين : فلا يقفون مع شىء ، ولا يعقدون على شىء ، هم مع ما يبرز من عند مولاهم فى كل وقت وحين ، ليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير الله قرار. يتلونون مع المقادير كيفما تلونت ، وذلك من شدة قربهم وفنائهم فى ذات مولاهم. قال تعالى : كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ «٢» ، فهم يتلونون مع الشئون البارزة من السر المكنون فمن عقد معهم عقدا ، أو أخذ منهم عهدا ، فلا يعول على شىء من ذلك إذ ليست أنفسهم بيدهم ، بل هى بيد مولاهم. وليس ذلك نقصا فى حقهم ، بل هو كمال «٣» لأنه يدل على تغلغلهم فى التوحيد حتى هدم عزائمهم ، ونقض تدبيرهم واختيارهم. ولا يذوق هذا إلا من دخل معهم ، وإلّا فحسبه التسليم ، وطرح الميزان عنهم ، إن أراد الانتفاع بهم. والله تعالى أعلم.

وهذه الحالة التي أقامهم الحق تعالى فيها هى الحياة الطيبة ، التي أشار إليها الحق تعالى بقوله :

[سورة النحل (١٦) : آية ٩٧]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ عَمِلَ صالِحاً بأن صحبه الإخلاص ، وتوفرت فيه شروط القبول ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب ، وإنما المتوقع عليها تحقيق العقاب ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً فى الدنيا ، بالقناعة والكفاية مع التوفيق والهداية. قال البيضاوي : يعيش عيشا طيبا ، فإنه ، إن كان موسرا ، فظاهر ، وإن كان معسرا يطيب عيشه بالقناعة ، والرضا بالقسمة ، وتوقع الأجر العظيم ، بخلاف الكافر ، فإنه ، إن كان معسرا ، فظاهر ، وإن كان موسرا لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يهنأ بعيشه ، وقيل : فى الآخرة ، أي : فى الجنة. هـ. وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الطاعة ، فيجازيهم على الحسن بجزاء الأحسن. وبالله التوفيق.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر : (و لنجزين) بالنون ، وقرأ الباقون بالياء على الغيب.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

(٣) العارف الحق هو الذي يلتزم أمر الله ويجتنب مناهيه ، وهو شاهد بقلبه مولاه ، فان عما سواه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٢

الإشارة : الحياة الطيبة إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد حيث انقطعت عنهم الشواغل فى الظاهر ، والعلائق فى الباطن ، فاطمأنت قلوبهم بالله ، وسكنت أرواحهم فى حضرة الله ، وتحققت أسرارهم بشهود الله ، فدام سرورهم ، واتصل حبورهم بحلاوة معرفة محبوبهم ، وهذه نتيجة شرب الخمرة الأزلية ، كما قال ابن الفارض فى مدحها :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت به الأفراح ، وارتحل الهمّ

هذا فى الخطور ، فما بالك بالسكون ودوام الحضور؟ وقال أيضا فى شأنها :

فما سكنت والهمّ ، يوما ، بموضع كذلك لا يسكن مع النّغم الغم

وإنما تحقق لهم هذا الأمر العظيم لرسوخ قدمهم فى مقام الإحسان ، وسكونهم فى جنة العرفان ، فهبّ عليهم نسيم الرضا والرضوان ، وترقت أرواحهم إلى مقام الروح والريحان ، فقلوبهم بحار زاخرة لا تكدرها الدلاء ، وأرواحهم أنوار ساطعة لا يؤثر فيها ليل القبض والابتلاء ، وأسرارهم بأنوار المواجهة مشرقة ، فدام سرورها بكل ما يبرز من عنصر القضاء. والحاصل : أن أهل هذا المقام عندهم من الإكسير والقوة ما يقلبون به الأعيان ، فيقلبون الشرّيات خيريات ، والمعاصي طاعات ، والإساءة إحسانا ، والجلال جمالا .. وهكذا ، فأنّى تغير قلوب هؤلاء الأكدار؟

وأنى تنزل بساحتهم الأغيار ، وهم فى حضرة الكريم الغفار؟ نفعنا اللّه بذكرهم ، وخرطنا فى سلكهم ، آمين.

ومن جملة الحياة الطيبة : التنعم بحلاوة القرآن ، ولا يتحقق ذلك إلا بالبعد والحفظ من خوض الشيطان ، ولذلك أمر بالتعوذ منه عند قراءته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٩٨ الى ١٠٠]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أردت قراءته ، كقوله : إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ «١» ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ أي : فسل اللّه أن يعيذك من وسواسه لئلا يوسوسك فى القراءة ، فيحرمك حلاوة التلاوة فإنه عدو لا يحب لابن آدم الربح أبدا ، والجمهور على أنه مستحب عند التلاوة ، وعن عطاء : أنه واجب. ومذهب مالك : أنه لا يتعوذ فى الصلاة. وعند الشافعي وأبى حنيفة : يتعوذ فى كل ركعة تمسكا بظاهر

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة.

(١٦٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٣

الآية لأن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرره ، وأخذ مالك بعمل أهل المدينة فى ترك التعوذ فى الصلاة.

وهو تابع للقراءة فى السر والجهر ، وعن ابن مسعود : قرأت على النبي صلى اللّه عليه وسلم فقلت : أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال : «قل : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم» «١».

ثم قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ أي : تسلط وولاية عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أي : لا تسلط له على أولياء اللّه المؤمنين به ، والمتوكلين عليه ، فإنهم لا يطيعون أوامره ، ولا يصغون إلى وساوسه ، إلا فيما يحتقر ، على ندور وغفلة. إِنَّما سُلْطانُهُ أي : تسلّطه عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ : يحبونه ويطيعونه ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ أي : باللّه ، أو : بسبب الشيطان ، مُشْرِكُونَ حيث حملهم على الشرك فأطاعوه.

الإشارة : الاستعاذة الحقيقية من الشيطان هى : الغيبة عنه فى ذكر اللّه أو شهوده ، فلا ينجح فى دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن. قال تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ «٢». فإن الشيطان كالكلب ، كلما اشتغلت بدفعه قوى نبحه عليك ، فإما أن يخرق الثياب ، أو يقطع الإهاب ، فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك. وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه : عداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو ، فاتتك محبة الحبيب ، ونال مراده منك. هـ.

فالعاقل هو الذي يشتغل بذكر اللّه باللسان ، ثم بالقلب ، ثم بالروح ، ثم بالسر ، فحينئذ يذوب الشيطان ولا يبقى له أثر قط ، أو يذعن له ويسلم شيطانه ، فإنما حركه عليك ليوحشك إليه. وفى الحكم : «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». فإذا تعلقت بالقوى المتين ، هرب عنك الشيطان اللعين. وسيأتى مزيد كلام إن شاء اللّه عند قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ .. «٣» الآية. وباللّه التوفيق.

ومن أقبح وسوسة الشيطان : الطعن فى القرآن ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٧٥٨) للثعلبى.

(٢) من الآية ٥٠ من سورة الذاريات.

(٣) من الآية ٦ من سورة فاطر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٤

قلت : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ : معترض بين الشرط ، وهو : إذا وجوابه ، وهو : قالُوا لتوبيخ الكفار ، والتنبيه على فساد سندهم. وهُدىً وَبُشْرى : عطف على : «لِيُثَبِّتَ».

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ بأن نسخنا الأولى لفظا أو حكما ، وجعلنا الثانية مكانها ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ من المصالح ، فلعل ما يكون فى وقت ، يصير مفسدة بعده ، فينسخه ، وما لا يكون مصلحة حينئذ ، يكون مصلحة الآن ، فيثبته مكانه. فإذا نسخ ، لهذا المصلحة ، قالُوا أي : الكفرة :

إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ : كذاب متقوّل على اللّه ، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه ، قال تعالى : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ حكمة النسخ ولا حقيقة القرآن ، ولا يميزون الخطأ من الصواب.

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ يعنى : جبريل. والقدس : الطهر والتنزيه لأنه روح منزه عن لوث البشرية. نزله مِنْ رَبِّكَ ملتبسا بِالْحَقِّ : بالحكمة الباهرة ، أو مع الحق فى أمره ونهيه وإخباره ، أو أنزله حقا ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا على الإيمان لأنه كلام اللّه ، ولأنهم إذا سمعوا الناسخ والمنسوخ ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح ، رسخت عقائدهم ، واطمأنت قلوبهم. وَأنزله هُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ المنقادين لأحكامه ، أي : نزله تثبيتا وهداية وبشارة للمسلمين.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ يعنون : غلاما نصرانيا اسمه : جبر ، وقيل : يعيش. قيل : كانا غلامين ، اسم أحدهما : جبر ، والآخر يسار ، وكانا يصنعان السيوف ، ويقرآن التوراة والإنجيل ، فكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يجلس إليهما ، ويدعوهما إلى الإسلام ، فقالت قريش : هذان هما اللذان يعلمان محمدا ما يقول. قال تعالى فى الرد عليهم : لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ أي : لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه ، وينسبون إليه تعليم القرآن ، أعجمى ، وَهذا القرآن لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ذو بيان وفصاحة. قال البيضاوي :

والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم ، وتقريره يحتمل وجهين أحدهما : أن ما سمعه منه كلام أعجمى لا

يفهمه هو ولا أنتم ، والقرآن عربى تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون ، – أي : القرآن – ما تلقفه منه؟ وثانيهما : هب أنه تلقف منه المعنى باستماع كلامه ، لكن لم يتلقف منه اللفظ لأن ذلك أعجمى وهذا عربى ، والقرآن ، كما هو معجز باعتبار المعنى ، معجز باعتبار اللفظ ، مع أن العلوم الكثيرة التي فى القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق فى تلك العلوم مدة متطاولة ، فكيف يعلم جميع ذلك من غلام سوقى ، سمع منه ، بعض أوقات ، كليمات عجمية ، لعله لم يعرف معناها؟! فطعنهم فى القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم. هـ.

الإشارة : كما وقع النسخ فى وحي أحكام ، يقع فى وحي إلهام فقد يتجلى فى قلب الولي شيء من الأخبار الغيبية ، أو يأمر بشيء يليق ، فى الوقت ، بالتربية ، ثم يخبر أو يأمر بخلافه لوقوع النسخ أو المحو ، فيظن من لا معرفة له بطريق الولاية أنه كذب ، فيطعن أو يشك ، فيكون ذلك قدحا فى بصيرته ، وإخمادا لنور سريرته ، إن كان داخلا تحت تربيته. واللّه تعالى أعلم.

(١٦٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٥

ثم ذكر وبال من طعن فى كلام اللّه ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٩]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (١٠٨)

لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٠٩)

قلت : «مَنْ كَفَرَ» : شرطية مبتدأ ، وكذلك مَنْ شَرَحَ. وفَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ : جواب عن الأولى والثانية لأنهما بمعنى واحد ، ويكون جوابا للثانية ، وجواب الأولى : محذوف يدل عليه جواب الثانية. وقيل : مَنْ كَفَرَ : بدل من الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ، أو من المبتدأ فى قوله : أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ ، أو من الخبر. وإِلَّا مَنْ أُكْرِهَ : استئناف من قوله : مَنْ كَفَرَ.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ لا يصدّقون بِآياتِ اللَّهِ ، ويقولون : هى من عند غيره ، لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إلى سبيل النجاة ، أو إلى اتباع الحق ، أو إلى الجنة. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة. وهذا فى قوم علم أنهم لا يؤمنون ، كقوله : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ «١».

وقال ابن عطية : فى الآية تقديم وتأخير ، والمعنى : إن الذين لا يهديهم اللّه لا يؤمنون باللّه. ولكنه قدّم وأخر تهمما بتقبيح أفعالهم. هـ.

قال البيضاوي : هددهم على كفرهم ، بعد ما أماط شبهتهم ، ورد طعنهم فيه ، ثم قلب الأمر عليهم ، فقال :

إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لأنهم لا يخافون عذابا يردعهم عنه ، وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ على الحقيقة ، أو الكاملون فى الكذب لأن تكذيب آيات اللّه ، والطعن فيها ، بهذه الخرافات أعظم الكذب. وأولئك الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة. أو الكاذبون فى قولهم : إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ ، إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ. هـ. والكلام كله مع كفار قريش.

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة يونس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٦

ثم ذكر حكم من ارتد عن الإيمان طوعا أو كرها ، فقال : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ فعليهم غضب من اللّه ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ على التلفظ بالكفر ، أو على الافتراء على اللّه ، وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ لم تتغير عقيدته ، وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أي : فتحه ووسعه ، فاعتقده ، وطابت به نفسه ، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ إذ لا أعظم من جرمه.

روى أن قريشا أكرهوا عمّارا وأبويه – وهما ياسر وسمية – على الارتداد ، فربطوا سمية بين بعيرين ، وطعنوها بحربة فى قلبها ، وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال ، فماتت – رحمة اللّه عليها – وقتلوا ياسرا زوجها ، وهما أول قتيلين فى الإسلام. وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها ، فقيل : يا رسول اللّه إن عمارا كفر ، فقال : «كلا ، إن عمّارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه». فأتى عمّار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمسح عينيه ، ويقول : «ما لك ، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» «١».

وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه. وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه ، إعزازا للدين ، كما فعل أبواه.

لما روى أنّ مسيلمة أخذ رجلين ، فقال لأحدهما : ما تقول فى محمد؟ فقال : رسول اللّه. وقال : ما تقول فىّ؟ فقال :

أنت أيضا ، فخلى سبيله ، وقال للآخر : ما تقول فى محمد؟ فقال : رسول اللّه ، فقال : ما تقول فىّ؟

فقال : أنا أصم ، فأعاد عليه ثلاثا ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة اللّه ، وأما الآخر فقد صدع بالحق ، فهنيئا له «٢». هـ. قاله البيضاوي.

قال ابن جزى : وهذا الحكم فيمن أكره على النطق بالكفر ، وأما الإكراه على فعل وهو كفر ، كالسجود للصنم ، فاختلف هل يجوز الإجابة إليه أو لا؟ فأجازه الجمهور ، ومنعه قوم. وكذلك قال مالك : لا يلزم المكره يمين ، ولا طلاق ، ولا عتاق ، ولا شيء فيما بينه وبين اللّه ، ويلزمه ما كان من حقوق الناس ، ولا تجوز له الإجابة إليه كالإكراه على قتل أحد أو أخذ ماله. هـ. وذكر ابن عطية أنواعا من الأمور المكره بها ، فذكر عن مالك : أن القيد إكراه ، والسجن إكراه ، والوعيد المخوف إكراه ، وإن لم يقع ، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى ، وإنفاذه فيما يتوعد به. ثم ذكر خلافا فى الحنث فى حق من حلف للدرء عن ماله ، لظالم ، بخلاف الدرء عن النفس والبدن ، فإنه لا يحنث ، قولا واحدا ، إلا إذا تبرع باليمين ، ففى لزومه خلاف. وانظر المختصر فى الطلاق.

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٢٨) عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٥٧) من حديث محمد بن عمار بن ياسر ، وصححه ، ووافقه الذهبي. وانظر تفسير الطبري (١٤/ ١٨٠).

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٢٥٠) لابن أبى شيبة عن الحسن مرسلا. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٧

ثم علل نزول العذاب بهم ، فقال : ذلِكَ الوعيد بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ أي : بسبب أنهم آثروها عليها ، وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ، الذين سبق لهم الشقاء ، فلا يهديهم إلى ما يوجب ثبات الإيمان فى قلوبهم ، ولا يعصمهم من الزيغ. أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ فغابت عن إدراك الحق والتدبر فيه ، وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون فى الغفلة ، حتى أغفلتهم الحالة الزائفة عن التأمل فى العواقب. لا جَرَمَ : لا شك أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ حيث ضيعوا أعمارهم ، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد. قاله البيضاوي.

الإشارة : من سبق له البعاد لا ينفعه الكد والاجتهاد ، ومن سبقت له العناية لا تضره الجناية. ففى التحقيق :

ماثمّ إلا سابقة التوفيق. فمن كان فى عداد المريدين السالكين ، ثم أكره على الرجوع إلى طريق الغافلين ، مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ ، أي : بالتصديق بطريق الخصوص ، وهو مصمم على الرجوع إليها

فلا بأس عليه أن ينطق بلسانه ، ما يرى أنه رجع إليهم. فإذا وجد فسحة فرّ بدينه. وكذلك إذا أخذه ضعف أو فشل وقت القهرية ، ثم أنهضته العناية ، ففرّ إلى اللّه ، التحق بأولياء اللّه ، وأما من شرح صدره بالرجوع عن طريق القوم ، وطال مقامه مع العوام ، فلا يفلح أبدا فى طريق الخصوص ، والتحق بأقبح العوام ، إلا إن بقي فى قلبه شيء من محبة الشيوخ والفقراء ، فلعله يحشر معهم ، ودرجته مع العوام.

قال القشيري : إذا علم اللّه صدق عبده بقلبه ، وإخلاصه فى عقده ، ثم لحقته ضرورة فى حاله ، خفّف عنه حكمه ، ورفع عنه عناءه ، فإذا تلفظ بكلمة الكفر مكرها ، وهو بالتوحيد محقق ، عذر فيما بينه وبين ربه. وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ، وتجردوا لسلوك طريق اللّه ، ثم اعترضت لهم أسباب ، فاتفقت لهم أعذار ، فنفذ ما يوجبه الحال ، وكان لهم ببعض الأسباب اشتغال ، أو إلى شيء من العلوم رجوع ، لم يقدح ذلك فى حجة إرادتهم ، ولا يعدّ ذلك منهم شكا وفسخا لعهودهم ، ولا تنتفى عنهم سمة الفيئة إلى اللّه. هـ. قلت : هذا إن بقوا فى صحبة الشيوخ ، ملازمين لهم ، أو واصلين إليهم ، وأما إن تركوا الصحبة ، أو الوصول ، فلا شك فى رجوعهم إلى العمومية.

ثم قال فى قوله : وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً : من رجع باختياره ، ووضع قدما فى غير طريق اللّه ، بحكم هواه ، فقد نقض عهد إرادته للّه ، وفسخ عقد قصده إلى اللّه ، وهو مستوجب الحجبة ، إلى أن تتداركه الرحمة. هـ. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى ، ما نصه : وفى مكاتبة لشيخنا العارف أبى المحاسن يوسف بن محمد : فإن اختلفت الأشكال ، وتراكمت الفتن والأهوال ، وتصدعت الأحوال ، ربما ظهر على العارف وصف لم يكن معهودا ، وأمر لم يكن بالذات مقصودا ، فيكون معه قصور فى جانب الحق ، لا فى جانب الحقيقة ، فلا يضر ، إن رجع فى ذلك لمولاه فرارا ، وإلى ربه اضطرارا. فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ. هـ.

(١٦٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٦٨

ثم رغب فى التوبة ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٠]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

قلت : إِنَّ الثانية : تأكيد ، والخبر للأول.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا من دار الكفر إلى المدينة مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا أي : عذبوا على الإسلام كعمار بن ياسر ، وأشباهه من المعذبين على الإسلام. هذا على قراءة الضم. وقرأ

ابن عامر : «فُتِنُوا» بفتح التاء ، أي : فتنوا المسلمين وعذبوهم ، فتكون فيمن عذب المسلمين ، ثم أسلم وهاجر وجاهد ، كعامر ابن الحضرمي ، أكره مولاه جبرا حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ثم جاهدا ، وصبرا على الجهاد وما أصابهم من المشاق ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها من بعد الهجرة والجهاد والصبر ، لَغَفُورٌ رَحِيمٌ أي : لغفور لما مضى قبل ، رحيم يجازيهم على ما صنعوا بعد.

الإشارة : من نزلت به قهرية ، أو حصلت له فترة ، حتى رجع عن طريق القوم ، ثم تاب وهاجر من موطن حظوظه وهواه ، وجاهد نفسه فى ترك شواغل دنياه ، واستعمل السير إلى من كان يدله على الله إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر له ما مضى من فترته ، ويلحقه بأصحابه وأبناء جنسه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يوم الجزاء لمن صبر وهاجر ، أو الخسران لمن جحد وكفر ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١١١]

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)

قلت : يَوْمَ : منصوب باذكر ، أو بغفور رحيم.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها عن ذاتها ، وتسعى فى خلاصها ، لا يهمها شأن غيرها يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ «١» ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ جزاء ما عَمِلَتْ على التمام ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ : لا ينقصون من أجورهم مثقال ذرة.

الإشارة : النفس التي تجادل عن نفسها ، وتوفى ما عملت من خير أو شر ، إنما هى النفس الأمارة أو اللوامة.

وأما النفس المطمئنة باللّه ، الفانية فى شهود ذات اللّه ، لا ترى وجودا مع اللّه فلا يتوجه عليها عتاب ، ولا يترتب عليها حساب إذ لم يبق لها فعل تحاسب عليه. وعلى تقدير وجوده فقد حاسبت قبل أن تحاسب ، بل هى فى عداد_____

(١) الآيات : ٣٤ – ٣٦ من سورة عبس.

السبعين ألفا ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم المتوكلون. أو تقول : هى فى عداد من يلقى اللّه باللّه ، فليس لها شيء سوى اللّه ، فحجته ، ايوم تجادل النفوس ، هو اللّه. كما قال الشاعر :

وجهك المحمود حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

وباللّه التوفيق.

ثم ضرب مثلا لمن كفر النعم ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١١٣)

قلت : قَرْيَةً : بدل من : مَثَلًا.

يقول الحق جل جلاله : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، ثم فسره بقوله : قَرْيَةً : مكة ، وقيل : غيرها.

كانَتْ آمِنَةً من الغارات ، لا تهاج ، مُطْمَئِنَّةً لا تحتاج إلى الانتقال عند الضيق أو الخوف ، يَأْتِيها رِزْقُها : أقواتها رَغَداً : واسعا مِنْ كُلِّ مَكانٍ من نواحيها ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ بطرت بها ، أو بنبي اللّه ، سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ، استعار الذوق لإدراك أثر الضرر ، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف ، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها فى البلايا حتى صارت كالحقيقة ، وأما اللباس فقد يستعيرونه لما يشتمل على الشيء ويستره يقول الشاعر :

غمر الرّداء إذا تبسّم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

فقد استعار الرداء للمعروف ، فإنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، والمعنى : أنهم لما كفروا النعم أنزل اللّه بهم النقم ، فأحاط بهم الخوف والجوع إحاطة الثوب بمن يستتر به ، فإن كانت مكة ، فالخوف من سرايا النبي صلى اللّه عليه وسلم وغاراته عليهم ، وإن كان غيرها ، فمن كل عدو ، وذلك بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر والتكذيب.

وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ، يعنى : محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، والضمير لأهل مكة. عاد إلى ذكرهم بعد ذكر مثلهم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ : الجوع والقحط ، ووقعه بدر ، وَهُمْ ظالِمُونَ ملتبسون بالظلم ، غير تائبين منه. واللّه تعالى أعلم.

(١٦٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٠

الإشارة : ضرب اللّه مثلا قلبا كان آمنا مطمئنا باللّه ، تأتيه أرزاق العلوم والمواهب من كل مكان ، فكفر نعمة الشيخ ، وخرج من يده قبل كماله ، فأذاقه اللّه لباس الفقر بعد الغنى باللّه ، والخوف من الخلق ، وفوات الرزق ، بعد اليقين بسبب ما صنع من سوء الأدب وإنكار الواسطة ، ولو خرج إلى من هو أعلى منه لأن من بان فضله عليك وجبت خدمته عليك ، ومن رزق من باب لزمه. وهذا أمر مجرب عند أهل الذوق بالعيان ، وليس الخبر كالعيان ، هذا إن كان أهلا للتربية ، مأذونا له فيها ، جامعا بين الحقيقة

والشريعة ، وإلا انتقل عنه إلى من هو أهل لها. وباللّه التوفيق.
ثم أمر بالشكر ، الذي هو قيد النعم ، فقال :
[سورة النحل (١٦) : الآيات ١١٤ الى ١١٨]
فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)
قلت : الْكَذِبَ : مفعول بتقولوا ، وهذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ : بدل منه ، أي : لا تقولوا الكذب ، وهو قولكم : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ ، ولِما فى قوله : لِما تَصِفُ موصولة ، ويجوز أن ينتصب الكذب ب تَصِفُ ، ويكون «ما» مصدرية. ويكون قوله : هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ معمولا لتقولوا ، أي : لا تقولوا : هذا كذا وهذا كذا لأجل وصف ألسنتكم الكذب.
يقول الحق جل جلاله : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً ، أمرهم بأكل ما أحل لهم ، وشكر ما أنعم عليهم ، بعد ما زجرهم عن الكفر ، وهددهم عليه ، بما ذكر من التمثيل والعذاب الذي حل بهم صدا لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. قاله البيضاوي. وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لتدوم لكم إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فلا تنسبوا نعمه إلى غيره ، كشفاعة الأصنام وغيرها. إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، تقدم تفسيرها فى البقرة

والمائدة «١». قال البيضاوي : أمرهم بتناول ما أحل لهم ، وعدد عليهم محرماته ، ليعلم أن ما عداها حل لهم. ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم بقوله : وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لما لم يحله اللّه ولم يحرمه ، كما قالوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا ... «٢» الآية. هـ.
تقولون ذلك لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بنسبة ذلك إليه. إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ أبدا لأنهم تعجلوا فلاح الدنيا بتحصيل أهوائهم ، فحرموا فلاح الآخرة ، ولذلك قال : مَتاعٌ قَلِيلٌ أي : لهم تمتع فى الدنيا قليل ، يفنى ويزول. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة.

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ فى سورة الأنعام بقوله : وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ .. «٣» الآية ، وَما ظَلَمْناهُمْ بالتحريم ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. ذكر الحق تعالى ما حرم على المسلمين ، وما حرم على اليهود ليعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على اللّه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقول الحق – جل جلاله – ، لمن بقي على العهد من شكر النعم بالإقرار بفضل الواسطة : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من قوت اليقين وفواكه العلوم ، وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إن كنتم تخصونه بالعبادة وإفراد الوجهة. إنما حرّم عليكم ما يشغلكم عنه ، كجيفة الدنيا والتهارج عليها ، ونجاسة الغفلة ، وما يورث القساوة والبلادة ، وقلة الغيرة على الحق ، وما قبض من غير يد اللّه ، أو ما قصد به غير وجه اللّه ، إلا وقت الضرورة فإنها تبيح المحذور. واللّه تعالى أعلم.

ثم حضّ على التوبة لمن وقع فى شىء من هذا ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٩]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ كالشرك ، والافتراء على اللّه ، وغير ذلك ، بِجَهالَةٍ أي : ملتبسين فى حال العمل بجهالة ، كالجهل باللّه وبعقابه ، وعدم التدبر فى عواقبه لغلبة الشهوة عليه ، ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا عملهم ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها أي : التوبة ، أو الجهالة ، لَغَفُورٌ لذلك السوء ، رَحِيمٌ بهم يثيبهم على الإنابة.

---

(١) راجع تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، والآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٢

الإشارة : كل من أساء الأدب ، ثم تاب وأناب ، التحق بالأحباب. قال بعضهم : «كل سوء أدب يثمر أدبا فهو أدب». والتوبة تتبع المقامات فتوبة العوام : من الهفوات ، وتوبة الخواص : من الغفلات ، وتوبه خواص الخواص :

من الفترات عن شهود الحضرات. وباللّه التوفيق.

ولمّا رغّب فى الشكر ذكر أنه من ملة خليله إبراهيم عليه السّلام ، ودين حبيبه – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم – تحريضا عليه ، فقال تعالى :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً أي : إماما قدوة قال تعالى : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «١» ، قال ابن مسعود : «الأمة : معلّم الناس الخير» ، أو أمة وحده ، اجتمع فيه ما افترق فى غيره ، فكان وحده أمة من الأمم لكماله واستجماعه لخصال الكمال التي لا تكاد تجتمع إلا فى أشخاص كثيرة ، كقول الشاعر :

وليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد «٢»

وهو رئيس الموحدين ، وقدوة المحققين ، جادل فرق المشركين ، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة.

ولذلك عقّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين. أو : لأنه كان وحده مؤمنا وسائر الناس كفارا. قاله البيضاوي. وكان قانِتاً لِلَّهِ مطيعا قائما بأوامره ، حَنِيفاً مائلا عن الباطل ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وأنتم يا معشر قريش تزعمون أنكم على دينه ، وأنتم مشركون.

وكان شاكِراً لِأَنْعُمِهِ ، لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير. ولذلك ذكرها بلفظ جمع القلة ، اجْتَباهُ : اختاره للنبوة والرسالة والخلة. وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ التي توصل إلى حضرة النعيم ، ودعا إليها ، وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً بأن حببناه إلى كافة الخلق ، ورزقناه الثناء الحسن فى الملل كلها ، حتى إنّ أرباب

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٢) البيت للحسن بن هانئ ، هو لمعروف بأبى نواس.

الملك والجبابرة يتولونه ويثنون عليه. ورزقناه أولادا طيبة ، وعمرا طويلا فى الطاعة والمعرفة ، ومالا حلالا.

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ لحضرتنا ، المقربين عندنا ، اللذين لهم الدرجات العلا كما سأله ذلك بقوله :

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «١».

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ يا محمد أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ دينه ومنهاجه فى التوحيد ، والدعوة إليه بالرفق ، والمجادلة بالتي هى أحسن ، كل واحد بحسب فهمه. وكان حَنِيفاً مائلا عما سوى اللّه ، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، بل كان قدوة الموحدين. كرره ردا على اليهود والنصارى والمشركين فى زعمهم أنهم على دينه مع إشراكهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من تمسك بطاعة اللّه ظاهرا ، أو مال عما سوى اللّه باطنا ، وشكر الله دائما ، ودعا الناس إلى هذا الأمر العظيم : كان وليا إبراهيميا ، محمديا ، خليلا حبيبا ، مقربا ، قد اجتباه الحق تعالى إلى حضرته ، وهداه إلى صراط مستقيم ، وعاش فى الدنيا سعيدا ، ومات شهيدا ، وألحق بالصالحين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما ادّعت اليهود أنها على ملة إبراهيم دون غيرها ، رد الله عليهم بأن السبت ليس من ملته ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١٢٤]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ أي : فرض تعظيمه وإفراده للعبادة ، عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ على نبيهم ، وهم : اليهود أمرهم موسى عليه السّلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة ، فأبوا وقالوا : نريد يوم السبت لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض ، فألزمهم الله السبت ، وشدّد عليهم فيه. وقيل : لما أمرهم بيوم الجمعة ، قبل بعضهم ، وأبى أكثرهم ، فاختلفوا فيه. وقيل : اختلافهم : هو أن منهم من حرّم الصيد فيه ، ومنهم من أحله ، فعاقبهم الله بالمسخ. والتقدير على هذا : إنما جعل وبال السبت – وهو المسخ ، (عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا) فأحلوا فيه الصيد تارة ، وحرموه أخرى ، أو أحله بعضهم ، وحرمه بعضهم ، وذكرهم هنا تهديدا للمشركين ، كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازى كل فريق بما يستحقه ، فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصي.

الإشارة : الاختلاف على الأكابر كالشيوخ والعلماء ، والتقدم بين أيديهم بالرأى والكلام ، من أقبح المساويء ، وسو الأدب يوجب لصاحبه العطب كالقطع عن اللّه ، والبعد من ساحة حضرته. قال بعضهم : إذا جالست الكبراء فدع ما تعلم لما لا تعلم لتفوز بالسر المكنون. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٤

ثم أمر نبيه بالدعوة إلى اللّه ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : آية ١٢٥]

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)

يقول الحق جل جلاله : ادْعُ يا محمد الناس إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ إلى طريقه الموصل إليه ، وهو : الإسلام والإيمان ، والإحسان لمن قدر عليه ، بِالْحِكْمَةِ بسياسة النبوة ، أو بالمقالة المحكمة ، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ مواعظ القرآن ورقائقه ، أو الخطابات المقنعة والعبر النافعة ، وَجادِلْهُمْ أي : جادل معاندتهم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالطرق التي هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين ، وإيثار الوجه الأيسر ، والمقدمات التي هى أشهر فإن ذلك أنفع فى تليين لهبهم ، وتبيين شغبهم ، فالأولى :

لدعوة خواص الأمة الطالبين للحق. والثانية : لدعوة عوامهم ، والثالثة : لدعوة معاندهم.

قال ابن جزى : الحكمة هى : الكلام الذي يظهر جوابه ، والموعظة : هى : الترغيب والترهيب. والجدال هو : الرد على الخصم. وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل ، وهذه الآية تقتضى مهادنة نسخت بالسيف. وقيل : إن الدعاء بهذه الطريقة ، من التلطف والرفق ، غير منسوخ ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الموعظة من الكفار ، وأما العصاة فهى فى حقهم محكمة إلى يوم القيامة باتفاق. هـ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أي : إنما عليك البلاغ والدعوة. وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس من شأنك ، بل اللّه أعلم بالضالين والمهتدين ، وهو المجازى للجميع.

الإشارة : الدعاء بالحكمة هو الدعاء بالهمة والحال ، يكون من أهل الحق والتحقيق لأهل الصدق والتصديق.

والدعاء بالموعظة الحسنة هو الدعاء بالمقال من طريق الترغيب والتشويق ، يكون لأهل التردد فى سلوك الطريق.

والدعاء بالمجادلة الحسنة هو الدعاء بالوعظ والتذكير. وذكر بيان الطريق ، وفضيلة علم التحقيق ، يكون لأهل الإنكار إن وصلوا إلى أهل التحقيق. والحاصل : أن الدعاء بالحكمة : لأهل المحبة والتصديق. والدعاء بالموعظة :

لأهل التردد فى الطريق. والدعاء بالمجادلة : لأهل الإنكار حتى يعرفوا الحق من الباطل. وإن شئت قلت : الدعاء بالحكمة هو للعارفين الكبار ، والدعاء بالموعظة الحسنة هو لأهل الوعظ والتذكار من الصالحين الأبرار ، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو للعلماء الأخيار. وقد تجتمع فى واحد إن جمع بين الظاهر والباطن. واللّه تعالى أعلم.

(١٧٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٥

ولما أمره بالدعوة العامة أمره بالصبر العام لأن الدعوة لا تنفك عن الأذى ، فيحتاج صاحبها إلى صبر كبير ، فقال :

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٢٦ الى ١٢٨]

وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ عاقَبْتُمْ من آذاكم فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ أي : إن صنع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله ، ولا تزيدوا عليه. والعقوبة ، فى الحقيقة ، إنما هى فى الثانية. وسميت الأولى عقوبة لمشاكلة اللفظ. وقال الجمهور : إن الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبد المطلب ، لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لئن أظفرنى اللّه بهم لأمثّلنّ بسبعين منهم». فنزلت الآية «١» ، فكفّر النبي صلى اللّه عليه وسلم عن يمينه ، وترك ما أراد من المثلة. ولا خلاف أن المثلة حرام ، وقد وردت أحاديث بذلك. ومقتضى هذا : أن الآية مدنية. ويحتمل أن تكون الآية عامة ، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال. وتكون ، على هذا ، مكية كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل فى مال ، ثم ائتمن عليه ، هل يجوز خيانته ، فى القدر الذي ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم لظاهر الآية ، ومنعه مالك لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أدّ الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك» «٢». قاله ابن جزى.

وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ، ولم تعاقبوا من أساء إليكم ، لَهُوَ أي : الصبر خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ فإن العقوبة مباحة ، والصبر أفضل من الانتقام ، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم ، أو يريد المخاطبين ، كأنه قال : فهو خير لكم.

ثم صرح بالأمر لرسوله به لأنه أولى الناس به لزيادة علمه باللّه ، فقال : وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ إلا بتوفيقه وتثبيته. روى أنه صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : «أما أنا فأصبر كما أمرت ، فماذا

تصنعون؟» قالوا : نصبر كما ندبنا. وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ على الكافرين حيث لم يؤمنوا حرصا عليهم. أو على المؤمنين لأجل ما فعل بهم. وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ أي : لا يضيق صدرك بمكرهم ، ولا تهتم بشأنهم ، فأنا ناصرك عليهم.

والضيق – بفتح الضاد مخفّفا – من ضيّق كميت وميّت. وقرئ بالكسر ، وهو مصدر. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، معا ، لضاق.

---

(١) أخرجه الواحدي فى أسباب النزول (ص ٢٩١) عن ابن عباس. وأخرجه البزار (كشف الأستار ، ٢/ ٣٢٧) فى سياق أطول ، عن أبى هريرة ، وراجع طبقات ابن سعد (٣/ ١٢ – ١٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود فى (البيوع والإجارات ، باب فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده) ، والترمذي فى (البيوع ، ح ١٢٦٤) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٦

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الكفر والمعاصي ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ فى أعمالهم ، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ. أو مع الذين اتقوا اللّه بتعظيم أمره. والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله ، والذين هم محسنون بشهود اللّه كما قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه».

فهو معهم بالمحبة والوداد «فإذا أحببته كنت له». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من شأن الصوفية : الأخذ بالعزائم ، والتمسك بالأحسن فى كل شيء ، ممتثلين لقوله تعالى : الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «١». ولذلك قالوا : الصوفي : دمه هدر ، وماله مباح لأنه لا ينتصر لنفسه ، بل يدفع بالتي هى أحسن السيئة. فالصبر دأبهم ، والرضى والتسليم خلقهم.

وحقيقة الصبر هى : حبس القلب على حكم الرب ، من غير جزع ولا شكوى. ومواطنه أربعة : الطاعة ، والمعصية ، والنعمة ، والبلية. فالصبر على الطاعة : بالمبادرة إليها ، وعن المعصية : بتركها ، وعلى النعمة : بشكرها ، وأداء حق اللّه فيها ، وعلى البلية : بالرضى وعدم الشكوى بها.

وأقسام الصبر ستة : صبر فى اللّه ، وصبر للّه ، وصبر مع اللّه ، وصبر باللّه ، وصبر على اللّه ، وصبر عن اللّه.

أما الصبر فى اللّه : فهو الصبر فى طلب الوصول إلى اللّه ، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات.

وهو صبر الطالبين والسائرين. وأما الصبر للّه : فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المنهيات ونزول البليات ، يكون ذلك ابتغاء مرضاة اللّه ، لا لطلب أجر ولا نيل حظ. وهو صبر المخلصين. وأما الصبر مع اللّه : فهو الصبر على حضور القلب مع اللّه ، على سبيل الدوام مراقبة أو مشاهدة. فالأول : صبر المحبين ، والثاني : صبر المحبوبين.

وأما الصبر باللّه : فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير ، لكنه باللّه لا بنفسه ، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين. وأما الصبر على اللّه : فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها ، أو الصبر على دوام شهود اللّه. وأما الصبر عن اللّه : فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب ، فإذا كان العبد فى مقام القرب واجدا لحلاوة الأنس ، مشاهدا لأسرار المعاني ، ثم فقد ذلك من قلبه ، وأحس بالبعد والطرد – والعياذ باللّه – فليصبر ، وليلزم الباب حتى يمن الكريم الوهاب ، ولا يتزلزل ، ولا يتضعضع ، ولا يبرح عن مكانه ، مبتهلا ، داعيا إلى اللّه ، راجيا كرم مولاه ، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر قياما بأدب العبودية. وهو أشد الصبر وأصعبه ، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون ، الذين كملت عبوديتهم ، فكانوا عبيدا للّه فى جميع الحالات ، قرّبهم أو أبعدهم.

روى أن رجلا دخل على الشبلي رضي اللّه عنه ، فقال : أي صبر أشد على الصابر؟ فقال له الشبلي : الصبر فى اللّه ، قال :

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٧

لا ، قال : الصبر للّه ، قال : لا ، قال : الصبر مع اللّه ، قال : لا ، فقال له : وأي شيء هو؟ فقال : الصبر عن اللّه. فصاح الشبلي صيحة عظيمة ، كادت تتلف فيها روحه. هـ. لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه. لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب ، كما قال الشاعر :

إن شكوت الهوى ، فما أنت منّا احمل الصّد والجفا ، يا معنا

وقال رجل لأبى محمد الحريري رضي اللّه عنه : كنت على بساط الأنس ، وفتح على طريق البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامى ، فكيف السبيل إليه؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال : يا أخى ، الكل فى قهر هذه الخطة ، لكنى أنشدك أبياتا لبعضهم ، فأنشأ يقول :

قف بالديار فهذه آثارهم تبكى الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بربعها مستخبرا عن أهله ، أو سائلا ، أو مشفقا

فأجابنى داعى الهوى فى رسمها فارقت من تهوى فعز الملتقى

ومن هذا المعنى قضية الرجل الذي بقي فى الحرم أربعين سنة يقول : لبيك. فيقول له الهاتف : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك. فقيل له فى ذلك ، فقال : هذه بابه ، وهل ثمّ باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى ، ولبى دعوته. وكذلك قضية الرجل الذي قيل له ، من قبل الوحى : إنك من أهل النار فزاد فى العبادة والاجتهاد. فهذا كله يصدق عليه الصبر عن اللّه. لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته ، وتحقق بمقام الفناء ، فحينئذ قد يسهل عليه أمره لكمال عبوديته ، كما قال القائل :

وكنت قديما أطلب الوصل منهم فلمّا أتانى العلم وارتفع الجهل

تيقنت أنّ العبد لا طلب له فإن قربوا : فضل ، وإن بعدوا : عدل

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وأما من لم تكمل معرفته ، فقد ينكره ويذمه ، كالعباد والزهاد والعشاق ، فإنهم لا يطيقونه ، فإما أن يختل عقلهم ، أو يرجعون إلى الانهماك فى البطالة. واللّه تعالى أعلم. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١٧٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٨

(١٧٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٧٩

سورة الإسراء

مكية ، إلا قوله : وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ... الآيات الثمان. وهى : مائة وعشر آيات. وكأنّ وجه المناسبة لما قبله قوله : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا «١» ، إشارة إلى أن من اتقى اللّه ، وحصّل مقام الإحسان ، أسرى بروحه إلى عالم الملكوت وأسرار الجبروت. وافتتح السورة بالتنزيه ، لئلا يتوهم الجهال أنه – عليه الصلاة والسلام – عرج به للقاء الحق تعالى فى جهة مخصوصة ، فنزه الحقّ تعالى نفسه ، فى افتتاح سورة الإسراء دفعا لهذا الإيهام ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ

آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

قلت : «سُبْحانَ» : مصدر غير متصرف ، منصوب بفعل واجب الحذف ، أي : أسبح سبحان. وهو بمعنى التسبيح ، أي : التنزيه ، وقد يستعمل علما له ، فيقطع عن الإضافة ويمنع الصرف ، كقول الشاعر :

قد أقول لمّا جاءنى فخره سبحان من علقمة الفاخر «٢»

و«لَيْلًا» : منصوب على الظرفية لأسرى. وفائدة ذكره ، مع أن السرى هو السير بالليل ، ليفيد التقليل ، ولذلك نكّره ، كأنه قال : أسرى بعبده مسيرة أربعين ليلة فى بعض الليل ، وذلك أبلغ فى المعجزة. ويقال : أسرى وسرى ، رباعيا وثلاثيا.

يقول الحق جل جلاله : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ وهو : نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، أي : تنزيها له عن الأماكن والحدود والجهات ، إذ هو أقرب من كل شيء إلى كل شيء. وإنما وقع الإسراء برسوله – عليه الصلاة والسلام – ليقتبس أهل العالم العلوي ، كما اقتبس منه أهل العالم السفلي ، فأسرى به لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ بعينه لما روى أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : «بينما أنا فى المسجد الحرام فى الحجر ، عند البيت ، بين النّائم واليقظان ، إذ أتانى جبريل بالبراق» «٣».

---

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النحل.

(٢) البيت للأعشى. انظر ديوانه ، ص ٩٣ ، ولسان العرب (سبح).

(٣) أخرجه بطوله البخاري فى مواضع ، منها : (مناقب الأنصار ، باب المعراج) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب الإسراء) ، من حديث أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة.

أو : من الحرم لما روى أنه كان نائما فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء ، فأسري به ، وسماه مسجدا لأن الحرم كله مسجد. قاله البيضاوي. قلت : والظاهر أنه وقع مرتين : مرة بجسده من البيت ، ومرة بروحه من بيت أم هانئ. واللّه تعالى أعلم بما كان.

قال فى المستخرج من تفسير الغزنونى وغيره : قيل : كان رؤيا صادقة ، وقيل : أسرى بروحه ، وهو خلاف القرآن ، وإن أسند إلى عائشة – رضى اللّه عنها – ، والجمهور على ما رواه عامة الصحابة ، دخل كلام بعضهم فى بعض ، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «أتانى جبريل عليه السّلام ، وإذا دابة فوق الحمار ودون البغل ، خطوها مد بصرها ، فمرّ بي بين السماء والأرض إلى بيت

المقدس ، فنشر لى رهط من الأنبياء ، فصليت بهم. وإذا أنا بالمعراج ، وهو أحسن ما رأيت ، فعرج بي ، فرأيت فى سماء الدنيا رجلا أعظم الناس وجها وهيكلا ، فقيل : هذا أبوك آدم ، وفى السماء الثانية شابين ، فقيل : هما يحيى وعيسى ، وفى الثالثة رجلا أفضل الناس حسنا ، فقيل : أخوك يوسف ، وفى الرابعة إدريس ، وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم – صلوات اللّه على جميعهم.

فانتهيت إلى سدرة المنتهى ، فغشيتها ملائكة ، كأنهم جراد من ذهب ، فرأيت جبريل عليه السّلام يتضاءل كأنه صعوة – أي : عصفور – فتخلف ، وقال : وما منا إلا له مقام معلوم ، فجاوزت سبعين حجابا ، ثم احتملنى الرفرف إلى العرش ، فنوديت : حيّ ربك. فقلت : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» «١». فلما أخبر بما رأى كذّبه أهل مكة ، ولو كان فى النوم ما أنكره المشركون.

وقيل : كانا معراجين ، بمكة والمدينة ، فى النوم واليقظة. هـ.

قلت : وقوع المعراج بالمدينة غريب. قال المهدوى : مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية خاصة بنبينا ، لم يكن لغيره من الأنبياء. وعدّه السيوطي من الخصائص. قال ابن جزى : وحجة الجمهور : أنه لو كان مناما ، لم تنكره قريش ، ولم يكن فى ذلك ما يكذّب ، ألا ترى أن أم هانئ قالت له – عليه الصلاة والسلام :

(لا تخبر بذلك أحدا). وحجة من قال إنه كان مناما : قوله تعالى : وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ «٢» ، وإنما يقال : الرؤيا ، فى المنام ، ويقال ، فيما يرى بالعين : رؤية ، وقوله ، فى آخر حديث الإسراء : «فاستيقظت وأنا فى المسجد الحرام» ، ثم قال : وقد يجمع بينهما بأنه وقع مرتين «٣». هـ.

وقوله تعالى : إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى هو : بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الأنبياء ، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار.

أسرينا

---

(١) أخرج حديث الإسراء والمعراج ، برواياته المتعددة ، وطرقه البخاري فى (الصلاة ، باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء) ، و(بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة) ، و(مناقب الأنصار ، باب المعراج). ومسلم فى (الإيمان ، باب الإسراء). [.....]

(٢) من الآية ٦٠ من سورة الإسراء.

(٣) وهذا هو الصواب.

به لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا الدالة على عجائب قدرتنا ، ونكشف له عن أسرار ذاتنا ، فأطلعه اللّه على عجائب الملكوت ، وأراه سنا الجبروت. روى عكرمة عن ابن عباس : أنه قال : قد رأى محمد ربه ، قلت : أليس اللّه يقول : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ «١» ، قال : ويحك ، ذلك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره ، وقد رأى ربه مرتين. هـ.

قلت : معنى كلامه : أنه إذا تجلى بنوره الأصلى ، من غير واسطة ، لا يمكن إدراكه ، وأما إذا تجلى بواسطة المظهر فإنه يمكن إدراكه ، والحاصل : أن الحق تعالى إنما يتجلى على قدر الرائي ، لا على قدره إذ لا يطيقه أحد. وسيأتى ، فى الإشارة ، بقية الكلام عليه ، إن شاء اللّه. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أي : السميع لأقوال حبيبه فى حال مناجاته ، البصير بأحواله ، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

الإشارة : قال بعض الصوفية : إنما قال تعالى : بِعَبْدِهِ ، ولم يقل : بنبيه : ولا برسوله ليدل على أن كل من كملت عبوديته كان له نصيب من الإسراء. غير أن الإسراء بالجسد مخصوص به – عليه الصلاة والسلام – ، وأما الإسراء بالروح فيقع للأولياء على قدر تصفية الروح ، وغيبتها عن هذا العالم الحسى ، فتعرج أفكارهم وأرواحهم إلى ما وراء العرش ، وتخوض فى بحار الجبروت ، وأنوار الملكوت ، كلّ على قدر تخليته وتحليته. وإنما خص الإسراء بالليل لكونه محل فراغ المناجاة والمواصلات ، ولذلك رتب بعثه مقاما محمودا على التهجد بالليل فى هذه السورة. قاله المحشى.

وقوله تعالى : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى ، قال الورتجبي : أي : تنزه عن إشارة الجهات والأماكن فى الفوقية ، وما يتوهم الخلق من أنه إذ أوصل عبده إلى وراء الوراء ، أنه كان فى مكان ، أي : لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السموات ، أنه رفع إلى مكان ، أو هو فى مكان ، فإن الأكوان والمكان أقل من خردلة فى وادي قدرته ، أي :

فى بحر عظمته ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «الكون فى يمين الرحمن أقل من خردلة».

والعندية والفوقية منه ، ونزّه نفسه عن أوهام المشبّهات ، حيث توهموا أنه أسرى به إلى المكان ، أي : سبحان من تنزه عن هذه التهمة. هـ. وقال القشيري : أرسله الحق تعالى ليتعلم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رقّاه إلى السماء ليتعلّم منه الملائكة – عليهم السلام – آداب العبادة ، قال تعالى : ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى «٢» ، وما التفت يمينا ولا شمالا ، ما طمع فى مقام ، ولا فى إكرام ، تحرر عن كلّ طلب وأرب ، تلك الليلة. هـ.

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ١٧ منسورة النجم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٢

قلت : ولذلك أكرمه اللّه تعالى بالرؤية ، التي منع منها نبيه موسى عليه السّلام ، حيث وقع منه الطلب «ربما دلهم الأدب على ترك الطلب» ، وقال الورتجبي : أسرى به عن رؤية فعله وآياته ، إلى رؤية صفاته ، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته ، وأشهده مشاهد جماله ، فرأى الحق بالحق ، وصار هنالك موصوفا بوصف الحق ، فكان صورته روحه ، وروحه عقله ، وعقله قلبه ، وقلبه سره ، فرأى الحق بجميع وجوده لأن وجوده فان بجميعه ، فصار عينا من عيون الحق ، فرأى الحق بجميع العيون ، وسمع خطابه بجميع الأسماع ، وعرف الحق بجميع القلوب. هـ.

وقال ، فى قوله تعالى : إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى : سبب بداية المعراج بالذهاب إلى المسجد الأقصى ، لأن هناك الآية الكبرى من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباحهم ، وهناك بقربه طور سيناء ، وطور زيتا ، والمصيصة ، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى ، وفى تلك الجبال مواضع كشوف الحق ، ولذلك قال : (بارَكْنا حَوْلَهُ) ، انظر تمامه.

ولمّا كان لسيدنا موسى عليه السّلام مزيد كلام ومراجعة مع نبينا – عليه الصلاة والسلام – فى قضية الإسراء ، ذكره بإثره ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢ الى ٣]

وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (٣)

قلت : (ذُرِّيَّةَ) : منادى ، أي : يا ذرية من حملنا مع نوح ، والمراد : بنى إسرائيل. وفى ندائهم بذلك : تلطف وتذكير بالنعم ، وقيل : مفعول أول بتتخذوا ، أي : لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ، فتكون كقوله :

وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً «١».

يقول الحق جل جلاله : وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة وَجَعَلْناهُ أي : التوراة هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ ، وقلنا : أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا تفوضون إليه أموركم ، وتطيعونه فيما يأمركم. بل فوضوا أموركم إلى اللّه ، واقصدوا بطاعتكم وجه اللّه ، يا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ، فاذكروا نعمة الإنجاء من الغرق ، وحمل أسلافكم فى سفينة نوح ، إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً يحمد اللّه ويشكره فى جميع حالاته. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره ، وحث للذرية على الاقتداء به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو ، إفراد الوجهة إلى الحق ، ورفع الهمة عن الخلق ، حتى لا يبقى الركون إلا إليه ، ولا الاعتماد إلا عليه ، وهو مقتضى التوحيد. قال تعالى : لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا «٢». وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٩ من سورة المزمل.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٣
ثم ذكر ما أحدث بنو إسرائيل ، وما جرى عليهم فى القضاء السابق ، فقال : –
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤ الى ٨]
وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (٤) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (٨)
يقول الحق جل جلاله : وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أي : أخبرناهم وأوحينا إليهم فِي الْكِتابِ التوراة ، وقلنا : واللّه لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ إلخ. أو : قضينا عليهم فِي الْكِتابِ اللوح المحفوظ ، لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ أي : إفسادتين ، أولاهما : مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعياء ، وقيل : أرمياء. وثانيتهما : قتل زكريا ويحيى ، وقصد قتل عيسى عليه السّلام ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ولتستكبرن عن طاعة اللّه ، أو لتظلمن الناس وتستعلون عليهم علوا كبيرا.
فَإِذا جاءَ وَعْدُ عقاب أُولاهُما أي : أول مرتى الإفساد بأن أفسدوا فى الأرض المرة الأولى بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا بختنصر وجنوده أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ذوى قوة وبطش فى الحرب شديد ، فَجاسُوا فترددوا لطلبكم خِلالَ الدِّيارِ وسطه ، للقتل أو الغارة ، فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم ، وحرقوا التوراة ، وخربوا المسجد. وفى التذكرة للقرطبى : أنه سلّط عليهم فى المرة الأولى بختنصر ، فسباهم ، ونقل ذخائر بيت المقدس على سبعين ألف عجلة ، وبقوا فى يده مائة سنة. ثم رحمهم اللّه تعالى وأنقذهم من يده ، على يد ملك من ملوك فارس ، ثم عصوا ، فسلط عليهم ملك الروم قيصر. هـ. قال تعالى : وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا أي : وكان وعد عقابهم وعدا مقضيا لا بد أن يفعل.
ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ أي : الدولة والغلبة عَلَيْهِمْ أي : على الذين بعثوا عليكم ، فرجع الملك إلى بنى إسرائيل ، واستنقذوا أسراهم ، فقيل : على يد «بهمن بن إسفنديار» ملك فارس ، فاستنقذهم ، ورد أسراهم إلى الشام ، وملّك دانيال عليهم ، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر ، وقيل : على يد داود عليه السّلام حين قتل جالوت.

قال تعالى : وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً أي : عددا مما كنتم. والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه ، وقيل : جمع نفر ، وهم : المجتمعون للذهاب إلى الغزو.

(١٨٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٤

ثم قال تعالى لهم : إِنْ أَحْسَنْتُمْ بفعل الطاعة والعمل الصالح ، أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ لأن ثوابه لها ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فإنّ وبالها عليها. وذكر باللام للازدواج. فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أي : وعد عقوبة المرة الأخيرة ، بأن أفسدوا فى المرة الآخرة ، بعثنا عليكم عبادا لنا آخرين ، أولى بأس شديد لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ ، يجعلوها تظهر فيها آثار السوء والشر ، كالكآبة والحزن ، كقوله : سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا «١» وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ بيت المقدس كما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا وليهلكوا ما عَلَوْا عليه تَتْبِيراً إهلاكا ، أو مدة علوهم. قال البيضاوي : وذلك بأن اللّه سلّط عليهم الفرس مرة أخرى ، فغزاهم ملك بابل ، اسمه «حردون» ، وقيل : «حردوس» ، قيل : دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم ، فوجد دما يغلى ، فسأل عنه ، فقالوا : دم قربان لم يقبل منا. فقال : ما صدقتمونى ، فقتل عليه ألوفا منهم ، فلم يهدأ الدم. ثم قال : إن لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا ، فقالوا : دم يحيى ، فقال : لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ، ثم قال : يا يحيى ، قد علم ربى وربك ما أصاب قومك ، فاهدا بإذن اللّه ، قبل ألّا أبقى منهم أحدا ، فهدأ. هـ.

وقال السهيلي فى كتاب «التعريف والإعلام» : المبعوث فى المرة الأولى هم أهل بابل ، وكان إذ ذاك عليهم «بختنصر» ، حين كذّبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه. وأما فى المرة الأخيرة : فقد اختلف فيمن كان المبعوث عليهم ، وأن ذلك كان بسبب قتل يحيى بن زكريا. فقيل : بختنصر ، وهذا لا يصح لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى ، وبختنصر كان قبل عيسى بزمان طويل. هـ. وقول الجلال السيوطي : وقد أفسدوا فى الأولى بقتل زكريا ، فبعث عليهم جالوت وجنوده ، ولا يصح لأنه يقتضى أن داود تأخر عن زكريا ، وهو باطل.

ثم قال تعالى لبنى إسرائيل : عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ بعد المرة الأخرى ويجبر كسركم ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا إلى عقوبتكم ، وقد عادوا بتكذيب نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وقصد قتله ، فعاد إليهم بتسليطه عليهم ، فقتل من بنى قريظة سبعمائة فى يوم واحد ، وسبى ذراريهم ، وباعهم فى الأسواق ، وأجلى بنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين. هذا فى الدنيا ، وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ منهم ومن غيرهم حَصِيراً محبسا ، لا يقدرون على الخروج منها ، أبد الآباد. وقيل : بساطا كبسط الحصير ، كقوله : لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد قضى الحقّ جل جلاله ما كان وما يكون فى سابق علمه ، فما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه. فالواجب على العبد أن يكون ابن وقته ، إذا أصبح نظر ما يفعل اللّه به. فأسرار القدر قد استأثر الله بعلمها ،

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

(٢) من الآية ٤١١ من سورة الأعراف.

وأبهم على عباده أمرها ، فلو ظهرت لبطل سر التكليف. ولذلك لما سئل عنه سيدنا على – كرم اللّه وجهه – قال للسائل :

(بحر عميق لا تطيقه) ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : (طريق مظلم لا تسلكه) لأنه لا يفهم سر القضاء والقدر ، إلا من دخل مقام الفناء والبقاء ، وفرّق بين القدرة والحكمة ، وبين العبودية والربوبية ، فإذا تحقق العارف بالوحدة ، علم أنّ الحق تعالى أظهر من خلقه مظاهر أعدهم للإكرام ، وأظهر خلقا أعدهم للانتقام ، وأبهم الأمر عليهم ، ثم خلق فيهم كسبا واختيارا فيما يظهر لهم ، وكلفهم لتقوم الحجة عليهم ، وتظهر صورة العدل فيهم. وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً. فالقدرة تبرز ما سبق فى الأزل ، والحكمة تستر أسرار القدر. لكن جعل للسعادة علامات كالتوفيق والهداية للإيمان ، وللشقاوة علامات كالخذلان والكفران. نعوذ باللّه من سوء القضاء وحرمان الرضا. آمين.

ومن علامة السعادة : التمسك بما جاء به القرآن العظيم ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩ الى ١٠]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٠)

قلت : «وَأَنَّ الَّذِينَ» : إما عطف على «إِنَّ» الأولى ، أو على «وَيُبَشِّرُ» بإضمار يخبر.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي للطريق التي هِيَ أَقْوَمُ الطرق وأعدلها ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الأعمال الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً وهو : الخلود فى النعيم المقيم ، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم. وَيخبر أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا أي : أعددنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ، أو : ويبشر المؤمنين ببشارتين : ثوابهم ، وعقاب أعدائهم.

الإشارة : لا شك أن القرآن يهدى إلى طريق الحق إما إلى طريق توصل إلى نعم جنانه ، أو إلى طريق

توصل إلى شهوده ودوام رضوانه ، فالأولى طريق الشرائع والأحكام ، والثانية طريق الحقائق والإلهام ، لكن لا يدرك هذا من القرآن إلا من صفت مرآة قلبه بالمجاهدة والذكر الدائم ، ولذلك أمر شيوخ التربية المريد بالاشتغال بالذكر المجرد ، حتى يشرق قلبه بأنوار المعارف ، ويرجع من الفناء إلى البقاء ، ثم بعد ذلك يمر بالتلاوة ، ليذوق حلاوة القرآن ، ويتمتع بأنواره وأسراره ، وقد أنكر بعض من لا معرفة له بطريق التربية على الفقراء هذا الأمر – أعنى : ترك التلاوة فى بدايتهم – محتجا بهذه الآية ، ولا دليل فيها عليم لأن كون القرآن يهدى للتى هى أقوم يعنى : التمسك والتدبر فى معانيه ، ولا يصح ذلك على الكمال إلا بعد تصفية القلوب ، كما هو مجرب ، ولا ينكر هذا إلا من لا ذوق له فى علوم القوم ، وربما يذكر وجود التربية من أصلها ، ويسد الباب فى وجوه الناس ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

(١٨٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٦

فإذا اتصل العبد بأهل هذا الطريق ، ثم تأخر الفتح عنه ، فلا يقنط ولا يستعجل ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١١ الى ١٤]

وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤)

قلت : (دُعاءَهُ) : مفعول مطلق. والإضافة فى قوله : (آيَةَ اللَّيْلِ) و(آيَةَ النَّهارِ) : بيانية ، أي : فمحونا الآية التي هى الليل ، وجعلنا الآية التي هى النهار مبصرة. وإذا أريد بالآيتين الشمس والقمر تكون للتخصيص ، أي : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، أو : وجعلنا الليل والنهار ذوى آيتين .. إلخ ، و(كُلَّ شَيْ ءٍ) : منصوب بفعل مضمر ، يفسره ما بعده ، وكذا : (وَ كُلَّ إِنسانٍ) و(يَلْقاهُ مَنْشُوراً) : صفتان لكتاب.

يقول الحق جل جلاله : وَيَدْعُ الْإِنْسانُ على نفسه وولده وماله بِالشَّرِّ عند الغضب والقنط.

دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ مثل دعائه بالخير. وهو ذم له يدل على عدم صبره ، وربما وافق وقت الإجابة فيهلك ، وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا يسارع إلى كل ما يخطر بباله ، لا ينظر عاقبته. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر ، وبالدعاء استعجاله بالعذاب استهزاء ، كقول النضر بن الحارث : اللهم انصر خير الحزبين اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ .. الآية «١». وقيل : المراد بالإنسان : آدم

عليه السّلام ، فإنه لما انتهى الروح إلى سرّته ذهب ليقوم ، فسقط ، وهو بعيد. فإذا نزلت بالإنسان قهرية فلا يقنط ولا يستعجل ، فإنّ وقت الفرج محدود ، فالليل والنهار مطيتان ، يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود.

ولذا قال تعالى إثره : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ دالتين على كمال قدرتنا ، وباهر حكمتنا ، يتعاقبان على الإنسان ، يقربان له كل بعيد ، ويأتيان له بكل موعود. فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ أي : فمحونا الآية التي هى الليل بأن جعلناها مظلمة ، لتسكنوا فيه ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً أي : مضيئة مشرقة لتبتغوا من فضله ، أو : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، وهما : الشمس والقمر ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وهو القمر بأن جعلناه أطلس ، لا نور فيه من ذاته ، بل نوره مستمد من نور الشمس ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ ، وهى الشمس مُبْصِرَةً للناس ، أو مبصرا فيها بالضوء الذاتي ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ لتطلبوا فى بياض النهار أسباب معاشكم ، وَلِتَعْلَمُوا

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

باختلافهما وبحركتهما ، عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وحساب الأوقات من الأشهر والأيام ، فى معاملتكم وتصرفاتكم ، وَكُلَّ شَيْءٍ تفتقرون إليه فى أمر الدين والدنيا فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا بيّناه تبيينا لا لبس فيه ، أو : وكل شيء يظهر فى الوجود ، فصّلناه وقدّرناه فى اللوح المحفوظ تفصيلا ، فلا يظهر فى عالم الشهادة إلا ما فصل فى عالم الغيب.

وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ أي : حظه وما قدر له من خير وشر ، فهو لازم فِي عُنُقِهِ لا ينفك عنه.

ويقال لكل ما لزم الإنسان : قد لزم عنقه. وإنما قيل للحظ المقدر فى الأزل من الخير والشر : طائر لقول العرب :

جرى لفلان الطائر بكذا من الخير والشر ، على طريق الفأل والطيرة ، فخاطبهم اللّه بما يستعملون ، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر هو ملزم لأعناقهم ، لا محيد لهم عنه ، كالسلسلة اللازمة للعنق ، يجر بها إلى ما يراد منه. ومثله : أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ «١» ، وقال مجاهد : «ما من مولود يولد إلا فى عنقه ورقة ، مكتوب فيها شقى أو سعيد». أو : وكل إنسان ألزمناه عمله يحمله فى عنقه ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً مكتوب فيه عمله ، وهو صحيفته. يَلْقاهُ مَنْشُوراً ، ويقال له : اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً محاسبا ، لا تحاسبك إلا نفسك ، أو : رقيبا وشهيدا على عملك ، أو

: لا يعد عليك أعمالك إلا نفسك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للإنسان أن يكون داعيا بلسانه ، مفوضا للّه فى قلبه ، لا يعقد على شيء من الحظوظ والمآرب ، فقد يدعو بالخير فى زعمه ، وهو شر فى نفس الأمر فى حقه ، وقد يدعو بالشر وهو خير. وقد تأتيه المضار من حيث يرتقب المسار ، وقد تأتيه المسار من حيث يخاف الضرر وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. فالتأنى والسكون من علامة العقل ، والشّره والعجلة من علامة الحمق. فما كان من قسمتك لا بد يأتيك فى وقته المقدر له ، وما ليس من قسمتك لا يأتيك ، ولو حرصت كل الحرص. فكل شيء سبق تفصيله وتقديره ، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلوم إلا نفسه ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٥ الى ١٧]

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٨٨

يقول الحق جل جلاله : مَنِ اهْتَدى وآمن باللّه وبما جاءت به الرسل فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن ثواب اهتدائه له ، لا ينجى اهتداؤه غيره ، وَمَنْ ضَلَّ عن طريق اللّه فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن إثم إضلاله على نفسه ، لا يضر به غيره فى الآخرة ، وَلا تَزِرُ أي : لا تحمل نفس وازِرَةٌ آثمة وِزْرَ نفس أُخْرى أي : ذنوب نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها ، إلا من كان إماما فى الضلالة ، فيحمل وزره ووزر من تبعه ، على ما يأتى فى آية أخرى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «١».

ومن كمال عدله تعالى : أنه لا يعذّب حتى ينذر ويعذر على ألسنة الرسل ، كما قال تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ أحدا فى الدنيا ولا فى الآخرة حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا يبين الحجج ، ويمهد الشرائع ، ويلزمهم الحجة.

وفيه دليل على أن لا حكم قبل الشرع ، بل الأمر موقوف إلى وروده ، فمن بلغته دعوته ، وخالف أمره ، واستكبر عن اتباعه ، عذبناه بما يستحقه. وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السّلام ومن بعده من الأنبياء الكرام – عليهم السّلام – فى جميع الأمم ، قال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا «٢» ،

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ «٣» ، فإن دعوتهم إلى اللّه قد انتشرت ، وعمت الأقطار ، واشتهرت ، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبى بعد إسماعيل عليه السّلام : ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ «٤» فإنه يفهم منه أنهم سمعوه فى الملة الأولى ، فمن بلغته دعوة أحد منهم ، بوجه من الوجوه ، فقصّر ، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة ، مع إخبار النبي صلى اللّه عليه وسلم أن آباءهم ، الذين مضوا فى الجاهلية ، فى النار ، وأن ما يدحرج من الجعل «٥» خير منهم ، إلى غير ذلك من الأخبار. قاله البقاعي.

وقال الإمام أبو عبد اللّه الحليمي – أحد أجلاء الشافعية ، وعظماء أئمة الإسلام – فى أول منهاجه ، فى باب : «من لم تبلغه الدعوة» : وإنما قلنا : إن من كان منهم عاقلا مميزا إذا رأى ونظر ، إلا أنه لا يعتقد دينا فهو كافر لأنه ، وإن لم يكن سمع دعوة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء قبله ، على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور مدد الذين آمنوا واتبعوهم ، والذين كفروا بهم وخالفوهم ، فإنّ الخبر قد يبلغ على لسان المخالف ، كما

---

(١) من الآية ١٢ من سورة العنكبوت.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة النحل.

(٣) من الآية ٢٤ من سورة فاطر.

(٤) من الآية ٧ من سورة ص. [.....]

(٥) الجعل : حيوان معروف كالخنفساء ... انظر : النهاية فى غريب الحديث (جعل).

يبلغ على لسان الموافق ، وإذا سمع أيّة دعوة كانت إلى اللّه تعالى ، فترك أن يستدل بعقله ، كان معرضا عن الدعوة فكفر ، واللّه أعلم. وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين ، ولا بدعوة نبى ، ولا عرف أن فى العالم من يثبت إلها ، وما نرى أن ذلك يكون ، فأمره على الاختلاف ، يعنى : عند من يوجب الإيمان بمجرد العقل ، ومن لا يوجبه إلا بانضمام النقل. هـ.

وقال الزركشي ، فى آخر باب النيات ، من شرحه على المنهاج : وقد أشار الشافعي إلى عسر تصور عدم بلوغ الدعوة ، حيث قال : وما أظن أحدا إلا بلغته الدعوة ، إلا أن يكون قوم من وراء النهر. وقال الدميري : وقال الشافعي :

ولم يبق أحد لم تبلغه الدعوة. انتهى على نقل شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى رضي اللّه عنه.

ثم قال تعالى : وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً

أي : تعلقت إرادتنا بإهلاكها لإنفاذ قضائنا السابق ، ودنا وقت إهلاكها ، أَمَرْنا مُتْرَفِيها

منعميها ، بمعنى رؤسائها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم ، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده ، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ، لقوله : فَفَسَقُوا فِيها

خرجوا عن أمرنا. وقيل : أمرناهم :

ألهمناهم الفسق وحملناهم عليه ، أو : جعلنا لهم أسباب حملهم على الفسق بأن صببنا عليهم من النعم ما أبطرهم ، وأفضى بهم إلى الفسوق ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

وجب عليها كلمة العذاب السابق بحلوله ، أو بظهور معاصيهم.

فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً

أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها. وَكَمْ أَهْلَكْنا أي : كثيرا أهلكنا مِنَ الْقُرُونِ أي : الأمم مِنْ بَعْدِ نُوحٍ كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً عالما ببواطنها وظواهرها ، فيعاقب عليها أو يعفو. وباللّه التوفيق.

الإشارة : من اهتدى إلى حضرة قدسنا فإنما يهتدى لينعم نفسه بأسرار قدسنا ، ومن ضل عنها فإنما يضل عليها حيث حرمها لذيذ المعرفة. فإن كان فى رفقة السائرين ، ثم غلبه القضاء ، فلا يتعدى وبال رجوعه إلى غيره ، بل ما كان يصل إليه من المدد يرجع إلى أصحابه ، وما كنا معذبين أحدا بإسدال الحجاب بيننا وبينه ، حتى نبعث من يعرّف بنا ، ويكشف الحجاب بيننا وبين من يريد حضرتنا. والمراد بالحجاب : حجاب الوهم بإثبات حس الكائنات ، فلو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ، ولو أشرق نور الإيقان لغطى وجود الأكوان.

وإذا أردنا أن نتلف قلوبا أمرنا أربابها بالتنعم بالحظوظ والشهوات ، فخرجوا عن طريق المجاهدة والرياضة ، فحق عليها القول بغم الحجاب ، فدمرناها تدميرا ، أي : تركناها تجول فى أودية الخواطر والشكوك ، فتلفت وهلكت ، نعوذ باللّه من شر الفتن ودرك المحن.

(١٨٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٠

وسبب الهلاك هو حب الدنيا ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ

مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢)

قلت : (لِمَنْ نُرِيدُ) : بدل من ضمير (لَهُ) بدل بعض من كل. و(كُلًّا) : مفعول (نُمِدُّ) ، و(هؤُلاءِ) : بدل منه.

و(كَيْفَ) : حال ، و(دَرَجاتٍ) و(تَفْضِيلًا) : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ بعمله الدنيا الْعاجِلَةَ ، مقصورا عليها همه ، عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ التعجيل له. قيّد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه ، ولا كل واحد جميع ما يهواه. قاله البيضاوي. ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ فى الآخرة جَهَنَّمَ يَصْلاها يدخلها ويحترق بها ، حال كونه مَذْمُوماً مَدْحُوراً مطرودا من رحمة اللّه. والآية فى الكفار ، وقيل : فى المنافقين ، الذين يغزون مع المسلمين لقصد الغنائم. والأصح : أنها تعم كل من اتصف بهذا الوصف.

وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها عمل لها عملها اللائق بها ، وهو : الإتيان بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام فى قوله : «لَها» : اعتبار النية والإخلاص. والحال أن العامل مُؤْمِنٌ إيمانا صحيحا لا شرك معه ولا تكذيب ، فإنه العمدة ، فَأُولئِكَ الجامعون للشروط الثلاثة كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً عند اللّه ، مقبولا مثابا عليه فإن شكر اللّه هو الثواب على الطاعة.

كُلًّا نُمِدُّ أي : كل واحد من الفريقين نمد بالعطاء مرة بعد أخرى ، هؤُلاءِ المريدين للدنيا ، وَهَؤُلاءِ المريدين للآخرة ، نمد كلا مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ فى الدنيا ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ فيها مَحْظُوراً ممنوعا من أحد ، لا يمنعه فى الدنيا مؤمن ولا كافر ، تفضلا منه تعالى. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ فى الرزق والجاه ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا من الدنيا ، فينبغى الاعتناء بها دونها ، والتفاوت فى الآخرة حاصل للفريقين ، فكما تفاوتت الدرجات فى الجنة تفاوتت الدركات فى النار.

وسبب التفاوت : زيادة اليقين ، والترقي فى أسرار التوحيد لأهل الإيمان ، أو الانهماك فى الكفر والشرك لأهل الكفران. ولذلك قال تعالى : لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ تعبده. والخطاب لكل سامع ، أو للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، والمراد أمته ، فَتَقْعُدَ فتصير حينئذ مَذْمُوماً مَخْذُولًا جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين ، والخذلان من اللّه. ومفهومه : أن الموحد يكون ممدوحا منصورا فى الدارين.

الإشارة : قال صلى اللّه عليه وسلم : «من كانت الدّنيا همّه ، فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين

عينيه ، ولم يأته من الدّنيا إلّا ما قسم له. ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدّنيا وهى صاغرة» «١» ، واعلم أن الناس على قسمين قوم أقامهم الحق لخدمته ، وهم : العباد والزهاد ، وقوم اختصهم بمحبته ، وهم : العارفون باللّه أهل الفناء والبقاء ، قال تعالى : كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ فى الكرامات والأنوار ، وفى المعارف والأسرار. وفضل العارفين على غيرهم كفضل الشمس على سائر الكواكب ، هذا فى الدنيا ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ، يقع ذلك بالترقي فى معارج أسرار التوحيد ، وبتفاوت اليقين فى معرفة رب العالمين. وقال القشيري فى تفسير الآية : منهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة ، ثم يجتمعون فى الرؤية ، ويتفاوتون فى النصيب لكلّ. وليس كلّ أحد يراه بالعين الذي يراه به صاحبه. وأنشدوا :

لو يسمعون – كما سمعت – حديثها خرّوا لعزّة ركّعا وسجودا «٢»

وقال الورتجبي : فضّل العابدين بعضهم على بعض فى الدنيا بالطاعات ، وفضّل العارفين بعضهم على بعض بالمعارف والمشاهدات ، فالعباد فى الآخرة فى درجات الجنان متفاوتون ، والعارفون فى درجات وصال الرحمن متفاوتون. وقال القشيري أيضا : من كانت مشاهدته اليوم على الدوام ، كانت رؤيته غدا على الدوام ، ومن لا فلا. هـ.

وقد تقدم تفاوت الناس فى الرؤية بأبسط من هذا ، عند قوله تعالى : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ «٣». واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن السعى للآخرة ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/ ١٨٣) ، وابن ماجة فى (كتاب الزهد ، باب الهم فى الدنيا) من حديث زيد بن ثابت ، وأخرجه الترمذي فى (القيامة ، باب ٣٠) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٢) البيت لكثير عزة. انظر ديوانه (٤٤٢) ، وتزيين الأسواق (١/ ٤١).

(٣) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٢

قلت : (قَضى) ، هنا ، بمعنى حكم وأوجب وأمر ، لا بمعنى القضاء إذ لو كان كذلك لما عبد غير اللّه. وفى مصحف ابن مسعود : «ووصى ربك ألا تعبدوا». و(أن) : مفسرة ، أو مصدرية ، أي : بأن لا تعبدوا ، و(إِمَّا) : إن الشرطية دخلت عليها «ما» المؤكدة. و(فَلا تَقُلْ) : جوابها. وتوحيد ضمير الخطاب فى (عِنْدَكَ) ، وفيما سبق – مع أن ما سبق ضمير الجمع – للاحتراز عن التباس المراد ، فإنّ المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما.

ولو قوبل الجمع بالجمع ، أو بالتثنية ، لم يحصل هذا المرام.

و«أُفٍّ» : اسم فعل ، معناها : قول مكروه ، يقال عند الضجر ونحوه. قال الهروي : أي : لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم ، ويقال لكل ما يضجر منه ويستثقل : أفّ له. وقال فى القاموس : أفّ ، يؤفّ ، ويئفّ : تأفف من كرب أو ضجر.

وأفّ : كلمة تكره ، وأفف تأفيفا ، وتأفّف ، قالها «١» ، ولغتها أربعون ، ثم ذكرها. وحركتها للبناء ، وتنوينها للتنكير.

يقول الحق جل جلاله : وَقَضى رَبُّكَ أمر أمرا مقطوعا به ، ب أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ لأن غاية التعظيم لا يكون إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام ، وهو اللّه وحده ، وَأحسنوا بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً لأنهما السبب الظاهر فى وجود العبد ، وبهما قامت نعمة الإمداد من التربية والحفظ فى مظاهر الحكمة ، وإلّا فما ثمّ إلا تربية الحق تعالى ، ظهرت فى مظاهر الوالدين ، لكن أمر بشكر الواسطة «من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه».

ثم أمر ببرهما ، فقال : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما أي : مهما بلغ زمن الكبر ، وهما عندك فى كفالتك ، هما أو أحدهما ، فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ أي : فلا تضجر فيما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنتهما ، ولا تنطق بأدنى كلمة توجعهما ، فأحرى ألا يقول لهما ما فوق ذلك. فالنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسا بطريق الأحرى. وقال فى الإحياء : الأفّ : وسخ الظفر ، والتف : وسخ الأذن ، أي : لا تصفهما بما تحت الظفر من الوسخ ، فأحرى غيره ، وقيل : لا تتأذّ بهما كما يتأذى بما تحت الظفر. هـ.

وَلا تَنْهَرْهُما ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ ، فإن كان لإرشاد دينى فبرفق ولين. وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً جميلا لينا لا غلظ فيه ، وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ ألن لهما جانبك الذليل ، وتذلل لهما وتواضع. استعار للذل جناحا ، وأضافه إليه مبالغة فإنّ الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض ، كذلك الولد ، ينبغى أن يخضع لأبويه ، ويلين جانبه ، ويتذلل لهما غاية جهده. وذلك مِنَ الرَّحْمَةِ أي : من إفراط الرحمة

(١) أي : قال كلمة «أف».

(١٩٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٣

لهما والرقة والشفقة عليهما. وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما أي : وادع اللّه أن يرحمهما برحمته الباقية ، ولا تكتف برحمتك الفانية ، وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما للإسلام ، فقل : اللهم ارحمهما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً أي : رحمة مثل رحمتهما علىّ وتربيتهما وإرشادهما لى فى صغرى ، وفاء بعهدك للراحمين. فالكاف فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : رحمة مثل تربيتهما ، أو مثل رحمتهما لى ، على أن التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا ، وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر ، كما يلوح له التعرض لعنوان الربوبية ، كأنه قيل : رب ارحمهما ، وربّهما كما ربيانى صغيرا. ويجوز أن يكون الكاف للتعليل ، كقوله : وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ «١».

ولقد بالغ الحق تعالى فى التوصية بالوالدين حيث شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه ، ونظمهما فى سلك القضاء بعبادته ، ثم ضيق فى برهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تتفلت من المتضجر ، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كلّ شيء مشبهة بتربيتهما. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «رضا اللّه فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما» «٢». وروى : أن رجلا قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن أبوىّ بلغا من الكبر إلى أنّى ألى منهما ما وليا منّى فى الصغر ، فهل قضيتهما حقهما؟ قال : «لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما». وروى أن شيخا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : إن ابني هذا له مال كثير ، ولا ينفق علىّ من ماله شيئا ، فنزل جبريل وقال : إن هذا الشيخ أنشأ فى ابنه أبياتا ، ما قرع سمع بمثلها ، فاستنشدها ، فأنشدها الشيخ ، فقال :

غذوتك مولودا ، ومنتك يافعا ، تعلّ بما أجرى عليك ، وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسّقم لم أبت لسقمك ، إلا باكيا أتململ

كأنّ ى أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دونى ، وعينى تهمل

فلمّا بلغت السّنّ والغاية الّتى إليها مدى ما كنت فيك أؤمّل

جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنّك أنت المنعم المتفضّل

فليتك ، إذ لم ترع حقّ أبوّتى ، فعلت كما الجار المجاور يفعل «٣»

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الترمذي فى (البر ، باب الفضل فى رضا الوالدين) ، وابن حبان (الإحسان – البر والصلة ح ٤٣٠) ، وصححه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٣) أخرجه بنحوه البيهقي فى الدلائل (٦/ ٣٠٤) ، والطبراني فى الأوسط عن جابر بن عبد الله. وفى آخره : فأخذ النبي صلى اللّه عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : «أنت ومالك لأبيك».

(١٩٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٤
ومن تمام برهما : زيارتهما بعد موتهما ، والدعاء لهما ، والتصدق عليهما ، ففى الحديث : «إنما الميت فى قبره كالغريق ، ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها». وروى مالك فى الموطأ عن سعيد بن المسيب أنه قال : (كان يقال : إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده ، وأشار بيده نحو السماء) ، وهو مرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم : من طريق أبى هريرة قال : «إن اللّه ليرفع العبد الدرجة ، فيقول : يا رب ، أنّى لى بها؟! فيقول : باستغفار ابنك لك» «١» ، وسأل رجل النبي صلى اللّه عليه وسلم : هل بقي من بر أبوىّ شيء أبرهما به ، بعد موتهما؟ فقال : «نعم .. الصلاة عليهما – أي : الترحم والاستغفار لهما – ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما» «٢».
قال تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ من قصد البر إليهما ، واعتقاد ما يجب لهما من التوقير. وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالا ، إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قاصدين للصلاح ، أو طائعين للّه ، فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ : التوابين ، أو الرجّاعين إلى طاعته ، غَفُوراً لما فرط منهم عند حرج الصدر من إذاية ظاهرة أو باطنة ، أو تقصير فى حقهما. ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ، ويندرج فيه الجاني على أبويه اندراجا أوليا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : كل ما أوحى اللّه تعالى به فى حق والدي البشرية ، يجرى مثله فى والد الروحانية ، وهو الشيخ ، ويزيد لأنه أوكد منه لأنّ أب البشرية كان السبب فى خروجه إلى دار الدنيا ، معرضا للعطب أو السلامة ، وأب الروحانية كان سببا فى خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة ، وهما السبب فى التخليد فى النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد. وقد تقدم فى سورة النساء تمام هذه الإشارة «٣». واللّه تعالى أعلم.
ثم أمر بالإحسان إلى القرابة لقربهما من الوالدين ، تعظيما لهما ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠)

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٥٠٩) ، وابن ماجة فى (الأدب ، باب بر الوالدين) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى بر الوالدين) وابن ماجة فى (الأدب ، باب صل من كان أبوك يصل) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٠٦٦) ، وصححه ووافقه الذهبي من حديث مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري.

(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٥

يقول الحق جل جلاله : وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ أي : أعط ذا القربة حقه من البر ، وصلة الرحم ، وحسن المعاشرة. وقال أبو حنيفة : إذا كانوا محاويج فقراء : أن ينفق عليهم. وقيل : الخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم أن يؤتى قرابته من بيت المال ، وَآت الْمِسْكِينَ حقه وَابْنَ السَّبِيلِ الغريب ، من برهما والإحسان إليهما ، وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً بصرف المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه السرف. قال ابن عزيز : التبذير فى النفقة : الإسراف فيها ، وتفريقها فى غير ما أحل اللّه. هـ. وأصل التبذير : التفريق. روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لسعد ، وهو يتوضأ :

«ما هذا السّرف؟ فقال : أو فى الوضوء سرف؟ فقال : نعم ، وإن كنت على نهر جار» «١».

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ أي : أمثالهم فى الشر فإن التضييع والإتلاف شر. أو : على طريقتهم ، أو : أصدقاؤهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم فى الإسراف ، روى أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها – أي : يتقامرون – من الميسر ، وهو القمار – ويبذرون أموالهم فى السمعة ، فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك ، وأمرهم بالإنفاق فى القرابات. وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً مبالغا فى الكفر ، فينبغى ألا يطاع.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ أي : وإن أعرضت عما ذكر من ذوى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ، حيث لم تجد ما تعطيهم ، ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها أي : لطلب رزق تنتظره يأتيك لتعطيهم منه ،

فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً فقل لهم قولا لينا سهلا ، بأن تعدهم بالعطاء عند مجئ الرزق ، وكان صلى اللّه عليه وسلم إذا سأله أحد ، ولم يجد ما يعطيه ، أعرض عنه ، حياء منه. فأمر بحسن القول مع ذلك ، مثل : رزقنا اللّه وإياكم ، واللّه يغنيكم من فضله ، وشبه ذلك.

ثم أمره بالتوسط فى العطاء ، فقال : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ أي : لا تمسكها عن الإنفاق كل الإمساك ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ ، وهو استعارة لغاية الجود ، فنهى الحقّ تعالى عن الطرفين ، وأمر بالتوسط فيهما ، كقوله : إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ... «٢» الآية. فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً أي : فتصير ، إذا أسرفت ، ملوما عند اللّه وعند الناس بالإسراف وسوء التبذير ، محسورا : منقطعا بك ، لا شيء عندك. وهو من قولهم : حسر السفر بالبعير : إذا أتعبه ، ولم يبق له قوة. وعن جابر رضي اللّه عنه : بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس ، أتاه صبى ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٢١) ، وابن ماجة فى (الطهارة ، باب ما جاء فى القصد فى الوضوء) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

فقال له : إن أمّى تستكسيك الدّرع الذي عليك ، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه ، وقعد عريانا ، وأذّن بلال ، وانتظره للصلاة ، فلم يخرج ، فأنزل اللّه : وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ ... الآية «١».

ثم سلّاه بقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ يوسعه لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ يضيقه على من يشاء. فكل ما يصيبك من الضيق فإنما هو لمصلحة باطنية ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً يعلم سرهم وعلانيتهم ، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم فيرزقهم على حسب مصالحهم ، ويضيق عليهم على قدر صبرهم. والحاصل : أنه يعطى كل واحد ما يصلح به ، واللّه أعلم.

الإشارة : أمر الحق – جل جلاله – رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وخلفاءه ممن كان على قدمه ، أن يعطوا حق الواردين عليهم من قرابة الدين والنسب ، والمساكين والغرباء ، من البر والإحسان حسا ومعنى كتعظيم ملاقاته ، م وإرشادهم إلى ما ينفع بواطنهم ، والإنفاق عليهم ، من أحسن ما يجد ، حسا ومعنى ، وخصوصا الإخوان فى اللّه. فكل ما ينفق عليهم فهو قليل فى حقهم ، ولا يعد سرفا ، ولو أنفق ملء الأرض ذهبا. قال فى القوت : دعا إبراهيم بن أدهم الثورىّ وأصحابه إلى طعام ، فأكثر منه ، فقال له سفيان : يا أبا إسحاق أما تخاف أن يكون هذا سرفا؟ فقال إبراهيم : ليس فى الطعام سرف. هـ.

قلت : هذا إن قدّمه إلى الإخوان الذاكرين اللّه قاصدا وجه اللّه ، وأما إن قدمه مفاخرة ومباهاة دخله السرف. قاله فى الحاشية الفاسية ، ومثله فى تفسير القشيري ، وأنه لا سرف فيما كان للّه ، ولو أنفق ما أنفق. بخلاف ما كان لدواعى النفس ولو فلسا. هـ. وأما الخروج عن المال كله فمذموم ، إلا من قوى يقينه ، كالصدّيق ، ومن كان على قدمه. وكذلك الاستقراض على اللّه ، واشتراؤه بالدّين من غير مادة معلومة ، إن كان قوى اليقين ، وجرّب معاملته مع الحق ، فلا بأس بفعل ذلك وإلّا فليكف لئلا يتعرض لإتلاف أموال الناس فيتلفه اللّه. وباللّه التوفيق.

ولما أمر بما يقربنا إليه نهى عما يبعدنا عنه ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٣١ الى ٣٥]

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٩٠) ، والواحدي فى أسباب النزول ص ٩٤). وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : لم أجده. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٧

قلت : (خَشْيَةَ) : مفعول من أجله لأن الخشية قلبية ، بخلاف الإملاق ، فإنه حسى فجرّ بمن فى سورة الأنعام. «١» وهذه الآية فى أغنياء العرب ، الذين كانوا يخشون وقوع الفقر ، وما فى «الأنعام» نزلت فى فقرائهم ، الذين كان الفقر واقعا بهم ، ولذلك قدّم هناك كاف الخطاب ، وأخّره هنا ، فتأمله.

و«خِطْأً» يقال : خطئ خطأ ، كأثم إثما. وقرأ ابن عامر : «خِطْأً» ، بفتحتين ، فهو إما اسم مصدر أخطأ ، أو لغة فى خطئ ، كمثل ومثل ، وحذر وحذر. وقرأ ابن كثير :

«خطاء» بالمد ، إما لغة ، أو مصدر خاطأ. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مخافة الفاقة المستقبلة ، وقد كانوا يقتلون البنات – وهو الوأد – مخافة الفقر ، فنهاهم عن ذلك ، وضمن لهم أرزاقهم ، فقال : نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً إثما كَبِيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع وإيلام الروح. وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى ، نهى عن

مقاربته بالمقدمات. كالعزم ، والنظر وشبهه ، فأحرى مباشرته ، إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً أي : فعلة ظاهرا فحشها وقبحها ، وَساءَ سَبِيلًا قبح طريقا طريقه ، وهو غصب الأبضاع لما فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس ، وتهييج الفتن.

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمدا ، كما فى الحديث «٢». ويلحق بها أشياء فى معناها : كالحرابة ، وترك الصلاة ، ومنع الزكاة.

وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً أي : غير مستوجب للقتل فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ أي : الذي يلى أمره بعد وفاته ، وهو الوارث ، سُلْطاناً تسلطا بالمؤاخذة بمقتضى القتل بأخذ الدية ، أو القصاص ، وقوله : مَظْلُوماً : يدل على أن القتل عمد لأن الخطأ لا يسمى ظلما. أو : جعلنا له حجة غالبة ، فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ بأن يقتل من لا يحق قتله ، أو بالمثلة ، أو قتل غير القاتل ، إِنَّهُ أي : الولي كانَ مَنْصُوراً حيث وجب القصاص له ، وأمر الولاة بمعونته. أو : إنه ، أي : المقتول ، كان منصورا فى الدنيا بثبوت القصاص ممن قتله ، وفى الآخرة بالثواب.

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ فضلا عن أن تتصرفوا فيه إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا بالطريقة التي هى أحسن ، كالحفظ والتنمية ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ حتى يتم رشده ، ثم يدفع له ، فإن دفعه لمن يتصرف فيه بالمصلحة فلا بأس ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إذا عاهدتم اللّه أو الناس ، إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا أي : مطلوبا الوفاء

---

(١) فى قوله تعالى : قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآية ١٥١.

(٢) أخرجه البخاري فى (الديات ، باب قول اللّه تعالى : «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» ... إلخ) ، ومسلم فى (القسامة ، باب ما يباح به دم المسلم) عن عبد اللّه بن مسعود ، قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول اللّه ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

به ، فيطلب من المعاهد ألا يضيعه ، أو : مسئولا عنه ، فيسأل عنه الناكث ويعاتب عليه ، أو : يسأل العهد نفسه لم نكثت ، تبكيتا للناكث ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ ولا تبخسوا فيه ، وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ بالميزان السوي. والقسطاس : لغة رومية ، ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لأن غير العربي ، إذا استعملته العرب ، فأجرته مجرى كلامهم فى الإعراب والتعريف والتنكير ، صار عربيا. قاله

البيضاوي. ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أي :
أحسن عاقبة ومآلا. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ولا تقتلوا ما أنتجته الأفكار الصافية من العلوم بإهمال القلوب فى طلب رزق الأشباح ، خشية لحوق الفقر ، فإنّ اللّه ضامن لرزق الأشباح والأرواح. ولا تميلوا إلى الحظوظ ، التي تخرجكم عن حضرة الحق فإن ذلك من أقبح الفواحش. ولا تقتلوا النفس بتوالي الغفلة والجهل ، التي حرّم اللّه قتلها وإهمالها ، وأمر بإحيائها بالذكر والعلم ، ومن قتل بذلك مظلوما بحيث غلبته نفسه ، ولم تساعده الأقدار ، فقد جعلنا لعقله سلطانا ، أي : تسلطا عليها بمجاهدتها وقتلها وردها إلى مولاها ، فلا يسرف فى قتلها ، بل بسياسة وحيلة ، كما قال القائل :
واحتل على النّفس فربّ حيله أنفع فى النّصرة من قبيله
إنه كان منصورا ، إن انتصر بمولاه ، وآوى بها إلى شيخ كامل ، قد فرغ من تأديب نفسه وهواه. وقد تقدم باقى الإشارة فى سورة الأنعام «١» وغيرها. وباللّه التوفيق.
ثم قال تعالى :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٣٦ الى ٤٠]
وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠)

---

(١) راجع إشارة الآيتين : ١٥١ - ١٥٢ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ١٩٩
قلت : قفا الشيء يقفوه : تبعه. والضمير فى «عَنْهُ» : يجوز أن يعود لمصدر «لا تَقْفُ» ، أو لصاحب السمع والبصر.
وقيل : إن «مَسْؤُلًا» مسند إلى «عَنْهُ» كقوله تعالى : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ «١» ، والمعنى : يسأل صاحبه عنه ، وهو خطأ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم. قاله البيضاوي.
قال ابن جزى : الإشارة فى «أُولئِكَ» : إلى السمع والبصر والفؤاد ، وإنما عاملها معاملة العقلاء فى الإشارة بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، والضمير فى «عَنْهُ» : يعود على «كُلُّ» ، ويتعلق «عَنْهُ»

بمسئولا. هـ. وضمير الغائب يعود على المصدر المفهوم من «مَسْؤُلًا». و(مَرَحاً) : مصدر فى موضع الحال. و(مَكْرُوهاً) : نعت لسيئة ، أو بدل منها ، أو خبر ثان لكان.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَقْفُ تتبع ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فلا تقل ما لا تحقيق لك به من ذم الناس ورميهم بالغيب. فإذا قلت : سمعت كذا ، أو رأيت كذا ، أو تحقق عندى كذا ، مما فيه نقص لأحد ، فإنك تسأل يوم القيامة عن سند ذلك وتحقيقه. وهذا معنى قوله : إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا. قال البيضاوي : ولا تتبع ما لم يتعلق علمك به تقليدا ، أو رجما بالغيب. واحتج به من منع اتباع الظن ، وجوابه : أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند ، سواء كان قطعيا أو ظنيا إذ استعماله بهذا المعنى شائع. وقيل : إنه مخصوص بالعقائد. وقيل : بالرمي وشهادة الزور ، ويؤيده قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من قفا مؤمنا بما ليس فيه ، حبسه اللّه فى ردغة الخبال «٢» ، حتّى يأتى بالمخرج» «٣». إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ أي : كل هذا الأعضاء الثلاثة كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا كل واحد منها مسئول عن نفسه ، يعنى : عما فعل به صاحبه. هـ مختصرا.

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً أي : ذا مرح ، وهو : التكبر والاختيال ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ لن تجعل فيها خرقا لشدة وطأتك وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا تتطاول عليها عزا وعلوا ، وهو تهكم بالمختال ، وتعليل للنهى ، أي : إذا كنت لا تقدر على هذا ، فلا يناسبك إلا التواضع والتذلل بين يدى خالقك ، كُلُّ ذلِكَ المذكور ، من قوله : لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إلى هنا ، وهى : خمس وعشرون خصلة ، قال ابن عباس : (إنها المكتوبة فى ألواح موسى) ، فكل ما ذكر كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ «٤» أي : خصلة قبيحة مَكْرُوهاً أي : مذموما مبغوضا.

والمراد بما ذكر : من المنهيات دون المأمورات.

---

(١) من الآية ٧ من سورة الفاتحة.

(٢) قال ابن الأثير : وردغة الخبال ، جاء فى الحديث أنها عصارة أهل النار ... انظر النهاية (خبل – ردغ).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود فى (الأقضية ، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها) ، من حديث ابن عمر ، بلفظ : «من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال ، حتى يخرج مما قال».

(٤) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «سيئه» بضم الهمز والهاء مضافا لهاء المذكر الغائب. اسم كان ، وقرأ الباقون «سيئة» بفتح الهمزة ونصب تاء التأنيث مع التنوين على التوحيد خبر كان ... انظر الإتحاف (٢/ ١٩٧) والبحر المحيط (٦/ ٣٥).

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ التي هى علم الشرائع ، أو معرفة الحق لذاته ، والعلم للعمل به. وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، كرره ، للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه ، وأنه رأس الحكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه علومه وحكمه ، ولو جمع أساطير الحكماء ، ولو بلغت عنان السماء. والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، والمراد : غيره ممن يتصور منه ذلك. ورتب عليه ، أولا : ما هو عاقبة الشرك فى الدنيا ، وهو : الذم والخذلان ، وثانيا :

ما هو نتيجته فى العقبى. فقال : فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً تلوم نفسك ، وتلومك الملائكة والناس ، مَدْحُوراً مطرودا من رحمة اللّه.

ثم قبّح رأيهم فى الشرك ، فقال : أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ، وهو خطاب لمن قال : الملائكة بنات اللّه. والهمزة للإنكار ، أي : أفخصّكم ربكم بأفضل الأولاد ، وهم البنون ، وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً بنات لنفسه ، إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً أي : عظيم النكر والشناعة ، لا يقدر قدره فى إيجاب العقوبة لخرمه لقضايا العقول ، بحيث لا يجترئ عليه أحد حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال ، ثم تضيفون إليه ما تكرهونه ، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ، ثم جعلتم الملائكة ، الذين هم أشرف الخلق ، أدونهم ، تعالى اللّه عن قولكم علوا كبيرا.

الإشارة : ينبغى للإنسان الكامل أن يكون فى أموره كلها على بينة من ربه ، فيحكّم على ظاهره الشريعة المحمدية ، وعلى باطنه الحقيقة القدسية ، فإذا تجلى فى باطنه شىء من الواردات أو الخواطر فليعرضه على الكتاب والسنّة ، فإن قبلاه أظهره وفعله ، وإلّا رده وكتمه ، كان ذلك الأمر قوليا أو فعليا ، أو تركا أو عقدا فقد انعقد الإجماع على أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم اللّه فيه ، وإليه الإشارة بقوله : وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فإن لم يجد نصا فى الكتاب أو السنة فليستفت قلبه ، إن صفا من خوض الحس ، وإن لم يصف فليرجع إلى أهل الصفاء ، وهم أهل الذكر. قال تعالى : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ «١» ، ولا يستفت أهل الظنون ، وهم أهل الظاهر ، قال تعالى : إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً «٢».

وقال القشيري فى تفسير الآية هنا : وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أي : جانب محاذاة الظنون ، وما لم يطلعك اللّه عليه ، فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان. فإذا أشكل عليك شىء فى حكم الوقت ، فارجع إلى اللّه ،

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل ، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ٣٦ من سورة يونس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠١

فإن لاح لقلبك وجه من التحقيق فكن مع ما أريد ، وإن بقي الحال على حدّ الالتباس فكل علمه إلى اللّه ، وقف حيثما وقفت. ويقال : الفرق بين من قام بالعلم ، ومن قام بالحق : أنّ العلماء يعرفون الشيء أولا ، ثم يعملون بعلمهم ، وأصحاب الحقائق يجرى ، بحكم التصريف عليهم ، شيء ، ولا علم لهم به على التفصيل ، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه ، فربما يجرى على لسانهم شيء لا يدرون وجهه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم إذ يتحقق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت. انتهى. قلت : وإلى هذا المعنى أشار فى الحكم العطائية بقوله : الحقائق ترد فى حال التجلي مجملة ، وبعد الوعى يكون البيان ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

.

قوله تعالى : وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، ورد فى بعض الأخبار ، فى صفة مشى الصوفية : أنهم يدبون على أقدامهم دبيب النمل ، متواضعين خاشعين ، ليس فيه إسراع مخل بالمروءة ، ولا اختيال مخل بالتواضع. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالرجوع إلى كتابه ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٤١]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَرَّفْنا بيّنا فِي هذَا الْقُرْآنِ من الأمثال والعبر ، والوعد والوعيد لِيَذَّكَّرُوا ليتعظوا به ، وَما يَزِيدُهُمْ ذلك إِلَّا نُفُوراً عن الحق وعنادا له.

الإشارة : من شأن القلوب الصافية : إذا سمعت كلام الحبيب فرحت واهتزت ، أو خشعت واقشعرت من هيبة المتكلم ، كلّ على ما يليق بمقامه ، ومن شأن القلوب الخبيثة المكدرة : نفورها من كلام الحق إذ الباطل لا يقاوم الحق ، ولا يطيق مواجهته. واللّه تعالى أعلم.

ثم أبطل مذاهب أهل الشرك ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : لَوْ كانَ مَعَهُ فى الوجود آلِهَةٌ تستحق أن تعبد ، كَما يَقُولُونَ «١» أيها المشركون ، أو كما يقول المشركون أيها الرسول ، إِذاً لَابْتَغَوْا لطلبوا

(١) قرأ حفص وابن كثير : (يقولون) بالياء ، وقرأ الآخرون بالتاء ، ، انظر الإتحاف (٢/ ١٩٩).

(٢٠١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٢

إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا طريقا يقاتلونه. وهذا جواب عن مقالتهم الشنعاء. والمعنى : لطلبوا إلى من هو ملك الملك طريقا بالمعاداة ، كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض. وهذا كقوله : إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ «١». وقيل : لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته ، وتحققهم بعجزهم ، كقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ «٢». ثم نزه نفسه عن ذلك فقال : سُبْحانَهُ تنزيها له وَتَعالى ترافع عَمَّا يَقُولُونَ من الشركاء ، عُلُوًّا تعاليا كَبِيراً لا غاية وراءه. كيف لا وهو تعالى فى أقصى غاية الوجود! وهو الوجوب الذاتي ، وما يقولونه من أنّ له تعالى شركاء وأولادا ، فى أبعد مراتب العدم ، أعنى : الامتناع لأنه من خواص المحدثات الفانية.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ «٣» أي : تنزهه ، وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ كلها تدل على تنزيهه عن الشريك والولد ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان ، وتوابع الحدوث ، بلسان الحال ، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم ، الواجب لذاته. قاله البيضاوي. وظاهره : أن تسبيح الأشياء حاليّ لا مقالى ، والراجح أنه مقالى. ثم مع كونه مقاليا لا يختص بقول مخصوص ، كما قال الجلال السيوطي ، أي :

تقول : سبحان اللّه وبحمده. بل كل أحد يسبح بما يناسب حاله. وإلى هذا يرشد كلام أهل الكشف ، حتى ذكر الحاتمي : أن من لم يسمعها مختلفة التسبيح لم يسمعها ، وإنما سمع الحالة الغالبة عليه.

وورد فى الحديث :

«ما اصطيد حوت فى البحر ، ولا طائر يطير ، إلّا بما ضيع من تسبيح اللّه تعالى» «٤». وفى الحديث أيضا : «ما تطلع الشمس فيبقى خلق من خلق اللّه ، إلا يسبح اللّه بحمده ، إلا ما كان من الشيطان وأعتى بنى آدم». «٥»

ومذهب أهل السنة : عدم اشتراط البنية للعلم والحياة ، فيصح الخشوع من الجماد ، والخشية للّه والتسبيح منه له.

وقد قال ابن حجر على حديث حنين الجذع : فيه دلالة على أن الجمادات قد يخلق اللّه لها إدراكا كالحيوان ، بل كأشرف الحيوان ، وفيه تأييد لمن يحمل قوله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ على ظاهره. هـ.

وقال ابن عطية : اختلف أهل العلم فى هذا التسبيح فقالت فرقة : هو تجوز ، ومعناه : أن كل شىء تبدو فيه صفة الصانع الدالة عليه ، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر. وقالت فرقة : قوله : مِنْ شَيْءٍ : لفظه عموم ،

---

(١) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ٥٧ من سورة الإسراء.

(٣) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب : (تسبح) بالتاء ، وقرأ الآخرون بالياء ، انظر : الاتحاف ٢/ ١٩٩.

(٤) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٣٣٣) لأبى الشيخ عن مرثد بن أبى مرثد. [.....]

(٥) ذكره السيوطي بنحوه فى الدر (٤/ ٣٣٢) وعزاه لابن مردويه ، عن عمرو بن عبسة ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٣

ومعناه الخصوص فى كل حى ونام ، وليس ذلك فى الجمادات الميتة. فمن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح ، والاسطوانة لا تسبح. قال يزيد الرقاشي للحسن – وهما فى طعام ، وقد قدّم الخوان – : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟

فقال : قد كان يسبح مدة. يريد أن الشجرة ، فى زمان نموها واغتذائها ، تسبح. وقد صارت خوانا أو نحوه ، أي : صارت جمادا. وقالت فرقة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شىء ، على العموم ، يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأنه لا يفقه ، وينفصل عنه بأن يريد بقوله : لا تَفْقَهُونَ : الكفار والغفلة ، أي : أنهم يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة اللّه فى الأشياء. هـ.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف : وربما يدل للعموم تسبيح الحصى فى يده – عليه الصلاة والسلام – ، وكذا حنين الجذع ومحبة أحد ، وكذا تسبيح الطعام. وأما التخصيص بالناميات من نبات غير يابس ، وحجر متصل بموضعه ، فهو خصوص تسبيح بالاستمداد إلى الحياة ، ولا ينتفى مطلق الاستمداد لأن الجماد يستمد الوجود وبقاءه من الله ، فهو عام ، وقد قال تعالى : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ «١» ، وتدبر حنين الجذع. هـ. وسيأتى فى الإشارة بقية كلام عليه ، وقال البيضاوي أيضا فى قوله : وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم التسبيح. ويجوز

أن يحمل التسبيح على المشترك من اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ ، وإلى ما لا يتصور منه ، وعليهما ، أي : ويحمل – عند من جوز إطلاق اللفظ على معنييه. هـ.

إِنَّهُ كانَ حَلِيماً حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، مع ما أنتم عليه من موجباتها من الإعراض عن النظر فى الدلائل الواضحة ، الدالة على التوحيد ، والانهماك فى الكفر والإشراك ، غَفُوراً لمن تاب منكم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش ، أو ما قدر وجوده من غيرهما كله قائم بين حس ومعنى ، بين عبودية وربوبية ، بين قدرة وحكمة. فالحس محل العبودية ، فيه تظهر قهرية الربوبية ، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء ، فالأشياء كلها تنادى بلسان معناها ، وتقول : سبحانه ما أعظم شأنه ، ولكن لا يفقه هذا التسبيح إلا من خاض بحار التوحيد ، وغاص فى أسرار التفريد.

فالأشياء ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، قائمة من حيث حسها ، ممحوة من حيث معناها ، ولا وجود للحس من ذاته ، وإنما هو رداء لكبرياء ذاته. وفى الحديث ، فى وصف أهل الجنة : «وليس بينهم وبين أن ينظروا إلى الرحمن إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». فمن خرق حجاب الوهم ، وفنى عن دائرة الحس فى دار

---

(١) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

الدنيا ، لم يحتجب الحق تعالى عنه فى الدارين طرفة عين. فتحصل أن الأشياء كلها تسبح من جهة معناها بلسان المقال ، ومن جهة حسها بلسان الحال ، وتسبيحها كما ذكرنا. ولا يذوق هذا إلا من صحب العارفين الكبار ، حتى يخرجوه عن دائرة حس الأكوان إلى شهود المكون. وحسب من لم يصحبهم التسليم ، كما قال القائل :

إذا لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

والله تعالى أعلم.

وسبب عدم فقه تسبيح الأشياء : غفلة القلوب ، وطبع الأكنّة عليها ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ

أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩)

قلت : (أَنْ يَفْقَهُوهُ) : مفعول من أجله ، أي : كراهة أن يفقهوه ، و(نُفُوراً) : مصدر فى موضع الحال. والضمير فى (بِهِ) : يعود على «ما» ، أي : نحن أعلم بالأمر الذي يستمعون به من الاستهزاء والسخرية.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ الناطق بالتنزيه والتسبيح ، ودعوتهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ، ورفض الشرك ، وغير ذلك من الشرائع ، جَعَلْنا بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، خصّ الآخرة بالذكر من بين سائر ما كفروا به دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به ، وتمهيدا لما سينقل عنهم من إنكار البعث ، أي : جعلنا بينك وبينهم حِجاباً يمنعهم عن فهمه والتدبر فيه ، مَسْتُوراً عن الحس ، خفيا ، معنويا ، وهو الران الذي يسبح على قلوبهم من الكفر ، والانهماك فى الغفلة. أو : ذا ستر ، كقوله : وَعْدُهُ مَأْتِيًّا «١» ، أي : آتيا ، فهو ساتر لقلوبهم عن الفهم والتدبر.

---

(١) من الآية ٦١ من سورة مريم.

نفى عنهم فقه الآيات ، بعد ما نفى عنهم فقه الدلالات المنصوبة فى الأشياء بيانا لكونهم مطبوعين على الضلالة ، كما صرح به فى قوله : وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أغطية تكنها ، وتحول بينها وبين إدراك الحق وقبوله. فعلنا ذلك بهم كراهة أَنْ يَفْقَهُوهُ ، وَجعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً ثقلا وصمما يمنعهم من استماعه. ولمّا كان القرآن معجزا من حيث اللفظ والمعنى ، أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. قاله البيضاوي.

وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ أي : واحدا غير مشفوع به آلهتهم ، وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً هربا من استماع التوحيد ، والمعنى : وإذا ذكرت فى القرآن وحدانية اللّه تعالى ، فرّ المشركون عن ذلك لما فى ذلك من رفض آلهتهم وذمها. قال تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ أي : بالأمر الذي يستمعون به من الاستهزاء ، وكانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء ، وَإِذْ هُمْ نَجْوى أي : ونحن أعلم بغرضهم ، حين همّ جماعة ذات نجوى ، يتناجون بينهم ويخفون ذلك. ثم فسر نجواهم بقوله : إِذْ يَقُولُ

الظَّالِمُونَ ، وضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا محض ظلم ، أي : إذ يقولون : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً مجنونا قد سحر حتى زال عقله.

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ ، مثلوك بالساحر ، والشاعر ، والكاهن ، والمجنون ، فَضَلُّوا عن الحق فى جميع ذلك ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إلى الهدى ، أو إلى الطعن فيما جئت به بوجه فهم يتهافتون ، ويخبطون ، كالمتحير فى أمره لا يدرى ما يفعل. ونزلت فى الوليد بن المغيرة وأصحابه من الكفار.

وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ، أنكروا البعث ، واستبعدوا أن يجعلهم خلقا جديدا ، بعد فنائهم وجعلهم ترابا. والرفات : الذي بلي ، حتى صار غبارا وفتاتا. و«أَإِذا» : ظرف ، والعامل فيه : ما دل عليه قوله :

(لَمَبْعُوثُونَ) ، لا نفسه لأن ما بعد «إن» والهمزة ، لا يعمل فيما قبله ، أي : أنبعث إذا كنا عظاما .. إلخ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تقدم فى سورة «الأنعام» «١» تفسير الأكنة التي تمنع من فهم القرآن والتدبر فيه ، والتي تمنع من الشهود والعيان ، فراجعه ، إن شئت. وفى الآية تسلية لمن أوذى من الصوفية فرمى بالسحر أو غيره. وباللّه التوفيق.

ثم أمر نبيه بالجواب عما أنكروه من البعث ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢)

---

(١) راجع إشارة الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

قلت : (قَرِيباً) : خبر كان ، أو ظرف له على أن «كان» تامة ، أي : عسى أن يقع فى زمن قريب. و(أَنْ يَكُونَ) :

إما : اسم «عَسى » وهى تامة ، أو خبرها ، والاسم مضمر ، أي : عسى أن يكون البعث قريبا ، أو : عسى أن يقع فى زمن قريب. (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) : منصوب بمحذوف اذكروا يوم يدعوكم. أو : بدل من «قريب» على أنه ظرف. انظر أبا السعود. و(بِحَمْدِهِ) : حال من ضمير (فَتَسْتَجِيبُونَ) ، أي : منقادين له

، حامدين له لما فعل بكم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لمن أنكر البعث : كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً ، أَوْ خَلْقاً آخر مِمَّا يَكْبُرُ أي : يعظم فِي صُدُورِكُمْ عن قبول الحياة ، فإنكم مبعوثون ومعادون لا محالة ، أي : لو كنتم حجارة أو حديدا ، أو شيئا أكبر عندكم من ذلك ، وأبعد من الحياة ، لقدرنا على بعثكم إذ القدرة صالحة لكل ممكن.

ومعنى الأمر هنا : التقدير ، وليس للتعجيز ، كما قال بعضهم. انظر ابن جزى ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا إلى الحياة مرة أخرى ، مع ما بيننا وبين الإعادة ، من مثل هذه المباعدة؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ولم تكونوا شيئا لأن القادر على البدء قادر على الإعادة ، بل هى أهون ، فَسَيُنْغِضُونَ يحركون إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ تعجبا واستهزاء ، وَيَقُولُونَ استهزاء : مَتى هُوَ أي : البعث ، قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ، فإنّ كل ما هو آت قريب.

واذكروا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل ، فَتَسْتَجِيبُونَ أي : فتبعثون من القبور بِحَمْدِهِ بأمره ، أو ملتبسين بحمده ، حامدين له على كمال قدرته ، عند مشاهدة آثارها ، ومعاينة أحكامها ، كما قيل : إنهم يقومون ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ ما لبثتم فى الدنيا إِلَّا قَلِيلًا لما ترون من الهول ، أو تستقصرون مدة لبثكم فى القبور ، كالذى مرّ على قرية.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من كان قلبه أقسى من الحجارة والحديد ، واستغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود جهالته وغفلته ، فقل لهم : كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا أكبر من ذلك ، فإن اللّه قادر على أن يحيى قلوبكم بمعرفته ، ويلينها بعد القساوة ، بسبب شرب خمرته. فسيقولون : من يعيدنا إلى هذه الحالة؟ قل : الذي فطركم على توحيده أول مرة ، حين أقررتم بربوبيته ، يوم أخذ الميثاق.

فسينغضون إليك رؤوسهم تعجبا واستغرابا ، ويقولون :

متى هو هذا الفتح؟! قل : عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم إلى حضرته بشوق مقلق ، أو خوف مزعج ، بواسطة شيخ عارف ، أو بغير واسطة ، فتستجيبون بحمده ومنته ، وتظنون إن لبثتم فى أيام الغفلة إلا قليلا فتلين قلوبكم ، وتطمئن نفوسكم ، وتنشرح صدوركم ، وتحسن أخلاقكم ، فلا تخاطبون العباد إلا بالتي هى أحسن ، كما قال تعالى :

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٧

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْ لِعِبادِي المؤمنين : يَقُولُوا للمشركين الكلمة الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ولا تخاشنوهم ، إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ يهيج بينهم الجدال والشر ، فلعل المخاشنة لهم تفضى إلى العناد وازدياد الفساد. وكان هذا بمكة ، قبل الأمر بالقتال ، ثم نسخ «١». وقيل : فى الخطاب من المؤمنين بعضهم لبعض ، أمرهم أن يقولوا ، فيما بينهم ، كلاما لينا حسنا. إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ العداوة والبغضاء إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً ظاهر العداوة.

يقولون لهم فى المخاطبة الحسنة : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ بالتوبة والإيمان ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ بالموت على الكفر. وهذا تفسير للكلمة التي هى أحسن ، وما بينهما اعتراض ، أي : قولوا هذه الكلمة ونحوها ، ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه يثير الشر ، مع أن ختام أمرهم غيب. وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا موكولا إليك أمرهم ، فتجبرهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك مبشرا ونذيرا ، فدارهم ، ومر أصحابك باحتمال الأذى منهم. روى أن المشركين أفرطوا فى إيذائهم فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنزلت ، وقيل : شتم رجل عمر رضي اللّه عنه ، فهمّ به ، فأمره اللّه بالعفو.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وبأحوالهم ، فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء. وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبى طالب نبيا ، وأن يكون العراة الجياع أصحابه. وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ بالفضائل النفسانية ، والتفرغ من العلائق الجسمانية ، لا بكثرة الأموال والأتباع ، حتى يستبعدوا نبوة سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم لقلة ماله ، وضعف أصحابه فإن سيدنا داود عليه السّلام كان مثله فى قلة ماله وأتباعه ، ثم قواه بالملك والنبوة. ولذا قال : وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً وقيل : هو إشارة إلى تفضيل نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم فإنه مذكور فى الزبور ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأمته خير الأمم ، وأنهم يرثون الأرض بالفتح عليهم قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ «٢». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) دعوى النسخ هنا ، لا برهان عليها ، ولا مجال لها فالأخلاق لا تنسخ.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٠٨

الإشارة : من أوصاف الصوفية – رضى اللّه عنهم – أنهم هينون لينون كلفّة حرير ، لا ينطقون إلا بالكلام الحسن ، ولا يفعلون إلا ما هو حسن ، ويفرحون ولا يحزنون ، وينبسطون ولا ينقبضون. من رأوه مقبوضا بسطوه ، ومن رأوه حزينا فرّحوه ، ومن رأوه جاهلا أرشدوه بالتي هى أحسن. وهم متفاوتون فى هذا الأمر ، مفضل بعضهم على بعض فى الأخلاق والولاية ، فكل من زاد فى الأخلاق الحسنة زاد تفضيله عند اللّه. وفى الحديث : «إنّ الرّجل ليدرك بحسن الخلق ، درجة الصائم النهار ، القائم اللّيل» «١». وباللّه التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام مع المشركين والرد عليهم ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (٥٧)

قلت : (أُولئِكَ) : مبتدأ ، و(الَّذِينَ يَدْعُونَ) : صفته ، و(يَبْتَغُونَ) : خبره. وضمير «تَحْوِيلًا» : للكفار ، وفى «يَدْعُونَ» :

للآلهة المعبودين. وقيل : الضمير فى «يَدْعُونَ» و«يَبْتَغُونَ» : للأنبياء المذكورين قبل فى قوله : فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ ، والوسيلة : ما يتوسل به ويتقرب إلى اللّه ، و(أَيُّهُمْ) : بدل من فاعل (يَبْتَغُونَ ، و«أيّ» : موصولة ، أي :

يبتغى من هو أقرب إليه تعالى – الوسيلة ، فكيف بمن دونه؟ أو ضمّن معنى يبتغون : يحرصون ، أي : يحرصون أيهم يكون إليه تعالى أقرب؟

يقول الحق جل جلاله : قُلِ لهم : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنهم آلهة تعبدونهم مِنْ دُونِهِ كالملائكة والمسيح وعزير ، أو كالأصنام والأوثان ، فَلا يَمْلِكُونَ لا يستطيعون كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ، كالمرض والفقر والقحط ، وَلا تَحْوِيلًا لذلك عنكم إلى غيركم ، قال تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أنهم آلهة ، هم فى غاية الافتقار إلى اللّه والتوسل إليه ، كلهم يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أي : التقرب بالطاعة ، ويحرصون أَيُّهُمْ أَقْرَبُ إلى اللّه من غيره ، فكيف يكونون آلهة؟ أو : أولئك الذين يدعونهم آلهة ، يطلبون إلى ربهم الوسيلة

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، أحمد فى المسند (٦/ ١٣٣) وأبو داود فى (الأدب ، باب فى حسن الخلق) عن عائشة رضي اللّه عنه ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (١/ ٦٠) عن أبى هريرة ، وصححه ، ووافقه الذهبي.

بالطاعة ، يطلبها أيهم أقرب ، أي : الذي هو أقرب ، فكيف بغير الأقرب؟ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ كسائر العباد ، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً مخوفا ، أي : حقيقا بأن يحذره كل أحد ، حتى الرسل والملائكة. أعاذنا اللّه من جميعه. آمين.

الإشارة : كل ما دخل عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية ، فهو عاجز عن إصلاح نفسه ، فكيف يصلح غيره؟

ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، فكيف يدفع عن غيره؟ فارفع همتك ، أيها العبد ، إلى مولاك ، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه ، فكل ما سواه مفتقر إليه ، والفقير المضطر لا ينفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ واللّه يتولى هداك.

ثم بيّن قهريته تعالى ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٥٨]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٥٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ أي : أهلها ، إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ بالموت والاستئصال ، أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً بالقتل وغيره ، كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ فى اللوح المحفوظ مَسْطُوراً مكتوبا. وقال فى المستخرج : وإن من قرية إلا نحن مهلكوها الصالحة بالإفناء ، والطالحة بالبلاء ، أو معذبوها بالسيف إذا ظهر فيهم الزنى والربا. هـ. قال ابن جزى : روى أن هلاك مكة بالحبشة ، والمدينة بالجوع ، والكوفة بالترك ، والأندلس بالخيل. ثم قال : وأما هلاك قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها ، فبأخذ الروم لها.

هـ. قلت : قد استولى العدو على الأندلس كلها فهو خرابها. أعاد اللّه عمارتها بالإسلام. آمين.

وقال فى حسن المحاضرة : وأخرج الحاكم فى المستدرك عن كعب قال : الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية – والجزيرة أرض بالبصرة ، وموضع باليمامة ، لا جزيرة الأندلس – ثم قال : ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة : والكوفة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر ، ولا تكون الملحمة حتى تخرب الكوفة ، ولا تفتح مدينة الكفر حتى تكون الملحمة ، ولا يخرج الدجال حتى تفتح مدينة الكفر. قال : وأخرج الديلمي فى مسند الفردوس ، وأورده القرطبي فى التذكرة من حديث حذيفة مرفوعا : يبدو الخراب فى أطراف الأرض ، حتى تخرب مصر ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة ، وخراب البصرة من العراق ، وخراب مصر من جفاف النيل ، وخراب مكة من الحبشة ، وخراب المدينة من الجوع ، وخراب اليمن من الجراد ، وخراب الأبلة من الحصار ، وخراب فارس من الصعاليك ، وخراب الترك من الديلم ، وخراب الديلم من الأرمن ، وخراب الأرمن من الخرز ، وخراب

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٠

الخرز من الترك ، وخراب الترك من الصواعق ، وخراب السند من الهند ، وخراب الهند من الصين ، وخراب الصين من الرمل ، وخراب الحبشة من الرجفة ، وخراب العراق من القحط. هـ.

قلت : وسكت عن المغرب ، ولعله المعنىّ بقوله عليه الصلاة والسلام : «لا تزال طائفة من أمّتى ظاهرين على الحقّ حتّى يأتى أمر اللّه» «١». زاد فى رواية : وهم أهل المغرب ، ورجحه صاحب المدخل «٢» ، قال : لأنهم متمسكون بالسنة أكثر من المشرق «٣». واللّه تعالى أعلم بغيبه.

الإشارة : القرية محل تقرر السر ، وهو القلب ، فإما أن يهلكه اللّه بالتلف والضلال ، وإما أن يعذبه عذابا شديدا بالمجاهدات والمكابدات ، ثم ينعمه نعيما كبيرا بالمشاهدات والمناجاة. كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أجاب عن تأخر الآيات بعد اقتراحها ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٥٩]

وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (٥٩)

قلت : (أَنْ نُرْسِلَ) : مفعول «منعنا» ، و(إِلَّا أَنْ كَذَّبَ) : فاعل.

يقول الحق جل جلاله : وما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحتها قريش بقولهم : اجعل لنا الصّفا ذهبا ، إلا تكذيب الأولين بها ، فهلكوا ، وهم أمثالهم فى الطبع ، كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوها ، فيهلكوا أمثالهم ، كما مضت به سنتنا ، وقد قضينا فى أزلنا ألا نستأصلهم لأن فيهم من يؤمن ، أو يلد من يؤمن.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال : وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ بسبب سؤالهم ، مُبْصِرَةً بينة ذات إبصار ، أو بصائر واضحة الدلالة ، يدركها كلّ من يبصرها. فَظَلَمُوا بِها فكفروا بها ، أو : فظلموا أنفسهم بسبب عقرها ، فهلكوا ، وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ المقترحة إِلَّا تَخْوِيفاً من نزول العذاب المستأصل ، فإن لم يخافوا نزل بهم ، أو : وما نرسل بالآيات غير المقترحة ، كالمعجزات وآيات القرآن ، إلا تخويفا بعذاب الآخرة فإن أمر من بعث إليهم مؤخر إلى يوم القيامة. قاله البيضاوي.

---

(١) أخرجه البخاري فى (المناقب. باب ٢٨) ومسلم فى (الإمارة ، باب قوله صلى اللّه عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق» من حديث معاوية رضي اللّه عنه.

(٢) هو ابن الحاج العبدري صاحب «المدخل إلى الشرع الشريف».

(٣) فى تعيين هذه الطائفة يقول الإمام النووي : يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء محدثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض. هـ.

(٣/٢١٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١١

قال فى الحاشية : ومقتضى حديث الكسوف ، وقوله فيه : «ذلك يخوف بهما عباده» : أن التخويف لا يختص بالخوارق ، بل يعم غيرها ، مما هو معتاد نفيه ، ويأتى غبا. وفى الوجيز : (بِالْآياتِ) أي : العبر والدلالات. وفى الورتجبي : الآيات هى : الشباب والكهولة والشيبة ، وتقلب الأحوال بك ، لعلك تعتبر بحال ، أو تتعظ بوقت. هـ.

الإشارة : إمساك الكرامات عن المريد السائر أو الولي : رحمة واعتناء به ، فلعله حين تظهر له ، يقف معها ويستحسن حاله ، أو يزكى نفسه ويرفع عنها عصا التأديب ، فيقف عن السير ، ويحرم الوصول إلى غاية الكمال ، وفى الحكم : «ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها ، إلا نادته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك». وقال الششترى رضي اللّه عنه :

ومهما ترى كلّ المراتب تجتلى عليك ، فحل عنها ، فعن مثلها حلنا

وقل : ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ، ولا طرفة تجنى

ولما نزّه تعالى نفسه فى أول السورة عن الجهة ، التي توهمها قضية الإسراء ، صرّح هنا بأنه محيط بكل مكان وزمان ، لا يختص بمكان دون مكان ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٦٠]

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ قُلْنا لَكَ فيما أوحينا إليك إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ علما وقدرة ، وأسرار وأنوارا ، كما يليق بجلاله وتجليه ، فلا يختص بمكان ولا زمان ، بل هو مظهر الزمان والمكان ، وقد كان ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ فى قضية الإسراء ، قال ابن عباس : «هى رؤيا عين» حيث رأى أنوار جبروته فى أعلى عليين ، وشاهد أسرار ذاته أريناك ذلك فى ذلك المكان إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ اختبارا لهم ، من يصدق بذلك ولا يكيف ، ومن يجحده من الكفرة. ومن يقف مع ظاهره ، فيقع فى التجسيم والتحييز ، ومن تنهضه السابقة إلى التعشق فيجاهد

نفسه حتى تعرج روحه إلى عالم الملكوت ، فتكاشف بإحاطة أسرار الذات بكل شيء.
وإنما خص الحق تعالى إحاطته بالناس ، مع أنه محيط بكل شيء ، كما فى الآية الأخرى : أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ «١» لأنهم المقصودون بالذات من هذا العالم ، وما خلق إلا لأجلهم. فاكتفى بالإحاطة بهم عن إحاطته بكل شيء.

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة فصلت.

ثم قال تعالى : وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وهى : شجرة الزقوم ، أي : ما جعلناها إلا فتنة للناس.
وذلك أن قريشا لما سمعوا أن فى جهنم شجرة الزقوم ، سخروا من ذلك ، فافتتنوا بها ، حيث أنكروها ، وكفروا بالقرآن ، وقالوا : كيف تكون شجرة فى النار ، والنار تحرق الشجر؟! وقفوا مع الإلف والعادة ، ولم ينفذوا إلى عموم تعلق القدرة. ومن قدر على حفظ وبر السّمندل «١» منها ، وهو يمشى فيها ، قدر على أن يخلق فى النار شجرة ، ولم تحرقها. وقال أبو جهل : ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد. فإن قيل : أين لعنت شجرة الزقوم فى القرآن؟ فالجواب :
أن المراد لعنة آكلها ، وقيل : إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد ، وهى فى أصل الجحيم.
قال تعالى : وَنُخَوِّفُهُمْ بأنواع التخويف ، أو بالزقوم ، فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً عتوا مجاوزا للحد.
الإشارة : الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته. فإذا انمحت الأكوان ثبتت وحدة المكون. «كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه» ، من قامت به الأشياء ، وهو وجودها ونور ذاتها ، ومحيط بها ، كيف تحصره ، أو تحيزه ، أو تحول بينه وبين موجوداته؟ قيل لسيدنا على – كرم اللّه وجهه – : يا ابن عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :
أين كان ربنا قبل خلق الأشياء؟ فتغير وجهه ، وسكت ، ثم قال : قولكم : أين؟ يقتضى المكان ، وكان اللّه ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.
وقال الشيخ الشاذلى : (قيل لى : يا على بي قل ، وعلى دل ، وأنا الكل). وفى الحديث : «لا تسبّوا الدهر ، فإنّ اللّه هو الدّهر ، بيده الليل والنّهار» ، ولا يفهم هذا على التحقيق إلا أهل الذوق ، بصحبة أهل الذوق. وإلا فسلّم تسلم ، واعتقد التنزيه وبطلان التشبيه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ثم بيّن عداوة إبليس المتقدمة فى قوله : إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٦١ الى ٦٤]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤)

---

(١) السّمندل : طائر ، إذا انقطع نسله ، وهرم ، ألقى نفسه فى الجمر ، فيعود إلى شبابه. وقيل : هو دابة ، يدخل النار فلا تحرقه .. انظر اللسان (سمندل ٣/ ٢١٠٥).

(٢١٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٣

قلت : (طِيناً) : منصوب على إسقاط الخافض ، أو : حال من الراجع إلى الموصول ، و(أَ رَأَيْتَكَ) : الكاف للخطاب ، لا موضع لها. وتقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام «١». و(هذَا) : مفعول «أرأيت» ، و(جزاء) : مصدر ، والعامل فيه :

«جَزاؤُكُمْ» ، فإنّ المصدر ينصب بمثله أو فعله أو وصفه ، وقيل : حال موطئة لقوله : «مَوْفُوراً».

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ امتنع ، وقالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً أي : من طين فهو أصله من الطين ، وأنا أصلى من النار ، فكيف أسجد له وأنا خير منه؟! ثم قالَ إبليس : أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أي : أخبرنى عن هذا الذي كرمته علىّ بأمرى بالسجود له ، لم كرمته علىّ؟ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ أي : واللّه لئن أخرتن إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ لأستأصلن من احتنكت السّنة أموالهم أي : استأصلتها. أي : لأهلكن ذُرِّيَّتَهُ بالإغواء والإضلال ، إِلَّا قَلِيلًا أو : لأميلنهم وأقودنّهم ، مأخوذ من تحنيك الدابة ، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد. أي : لأقودنهم إلى عصيانك ، إلا قليلا ، فلا أقدر أن أقاوم شكيمتهم لما سبق لهم من العناية.

قال ابن عطية : وحكم إبليس على ذرية آدم بهذا الحكم من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء ، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه ، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بد أن يكون فى ذريته من يصلب فى طاعة اللّه. هـ. قلت : إنما يحتاج إلى هذا : من وقف مع ظاهر الحكمة فى عالم الحس ، وأما من نفذ إلى شهود القدرة فى عالم المعاني : فلا.

قالَ تعالى : اذْهَبْ امض لما قصدته ، وهو : طرد وتخلية لما بينه وبين ما سولت له نفسه. فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ التفت إلى الخطاب ، وكان الأصل أن يقال : جزاؤهم ، بضمير الغيبة ليرجع

إلى فَمَنْ تَبِعَكَ ، لكنه غلب المخاطب ليدخل إبليس معهم ، فتجازون على ما فعلتم جَزاءً مَوْفُوراً وافرا مكملا ، لا نقص فيه. وَاسْتَفْزِزْ استخفف ، أو اخدع مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ أن تستفز بِصَوْتِكَ بدعائك إلى الفساد ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ أي : صح عليهم ، من الجلبة ، وهى : الصياح ، بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ أي : بأعوانك من راكب وراجل ، قيل : هو مجاز ، أي : افعل بهم جهدك. وقيل : إن له من الشياطين خيلا ورجالا. وقيل : المراد : بيان الراكبين فى طلب المعاصي ، والماشين إليها بأرجلهم. وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام ، والتصرف فيها على ما لا ينبغى ، كإنفاقها فى المعاصي ، وَالْأَوْلادِ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام ، كالزنى وشبهه من فساد الأنكحة ، وكتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وعبد العزى.

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٤

وقال فى الإحياء : قال يونس بن زيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ، ثم ينشأون معهم. قال ابن عطية : وما أدخله النقّاش من وطء الجن ، وأنه يحبل المرأة من الإنس ، فضعيف كله. هـ. قال فى الحاشية :

وضعفه ظاهر ، والآية مشيرة لرده لأنها إنما أثبتت المشاركة فى الولد ، لا فى الإيلاء ، فإنه لم يرد ، ولو قيل به لكان ذريعة لفساد كبير ، ولكان شبهة يدرأ بها الحد ، ولا قائل بذلك. وانظر الثعالبي الجزائرى فقد ذكر حكاية فى المشاركة فى الوطء عمن اتفق له ذلك ، فاللّه أعلم. وأما عكس ذلك إيلاء الإنسى الجنية ، فأمر لا يحيله العقل ، وقد جاء الخبر به فى أمر بلقيس «١». قاله المحشى الفاسى.

وَعِدْهُمْ بأن لا بعث ولا حساب ، أو المواعد الباطلة كشفاعة الآلهة ، والاتكال على كرامة الآباء ، وتأخير التوبة ، وطول الأمل ، وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً وباطلا. والغرور : تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب. قاله البيضاوي.

الإشارة : ينبغى لك أيها الإنسان أن تكون مضادا للشيطان ، فإذا امتنع من الخضوع لآدم فاخضع أنت لأولاد آدم بالتواضع واللين ، وإذا كان هو مجتهدا فى إغواء بنى آدم بما يقدر عليه ، فاجتهد أنت فى نصحهم وإرشادهم ، وتعليمهم ووعظهم وتذكيرهم ، بقدر ما يمكنك ، واستعمل السير إليهم بخيلك ورجلك ، حتى تنقذهم من غروره وكيده. وإذا كان هو يدلهم على الشرك الجلى والخفي ، فى أموالهم

وأولادهم ، فدلّهم أنت على التوحيد ، والإخلاص ، فى اعتقادهم وأعمالهم وأموالهم. وإذا كان يعدهم بالمواعد الكاذبة ، فعدهم أنت بالمواعد الصادقة كحسن الظن باللّه ، إن صحبه العمل بما يرضيه. فإن فعلت هذا كنت من عباد اللّه الذين ليس له عليهم سلطان ، كما أشار إليهم بقوله :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٦٥ الى ٦٩]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (٦٩)

قلت : (أَ فَأَمِنْتُمْ) : الهمزة للتوبيخ ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أنجوتم من البحر فأمنتم.

---

(١) قصة سيدنا سليمان من أكثر القصص امتلاء بالإسرائيليات ، فعليك بما هو فى القرآن ، وما صح من حديث رسولنا الكريم صلى اللّه عليه وسلم. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٥

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ عِبادِي المخلصين ، الذين يتوكلون علىّ فى جميع أمورهم ، لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ أي : تسلط وقدرة على إغوائهم حيث التجئوا إلىّ ، واتخذوني وكيلا وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا حافظا لمن توكل عليه ، فيحفظهم منك ومن أتباعك.

ثم ذكر ما يحث على التعلق به ، والتوكل عليه فى جميع الأحوال الدينية والدنيوية ، فقال : رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي يجرى لَكُمُ الْفُلْكَ ويسيرها فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة والربح ، وجلب أنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم ، إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً فى تسخيرها لكم حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه فى سيرها ، وسهل عليكم ما يعسر من أسباب معاشكم ومعادكم.

وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ يعنى : خوف الغرق ، ضَلَّ غاب عنكم مَنْ تَدْعُونَ من تعبدون من الآلهة. أو : من تستغيثون به فى حوادثكم ، إِلَّا إِيَّاهُ وحده ، فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه ، ولا تدعون ، لكشفه ، إلا إياه ، فكيف تعبدون غيره ، وأنتم لا تجدون فى تلك الشدة إلا إياه؟ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ من الغرق إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ عن التوحيد ، أو عن شكر النعمة ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً بالنعم ، جحودا لها ، إلا القليل ، وهو كالتعليل للإعراض.

أَفَأَمِنْتُمْ أي : أنجوتم من البحر ، وأمنتم أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ بأن يقلبه عليكم وأنتم عليه ، أو يخسف بكم فى جوفه ، كما فعل بقارون ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً أي : ريحا حاصبا ، يرميكم بحصباء كقوم لوط ، ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا حافظا لكم منه ، فإنه لا راد لفعله. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى بأن يخلق فيكم دواعى تحملكم إلى أن ترجعوا لتركبوا فيه فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ أي : ريحا شديدة ، لا تمر بشيء إلا قصفته ، أي : كسرته ، فَيُغْرِقَكُمْ ، وعن يعقوب : «فتغرقكم» على إسناده إلى ضمير الريح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بنون التكلم فى الخمسة. يفعل ذلك بكم بِما كَفَرْتُمْ بكفركم ، أي : بسبب إشراككم ، أو كفرانكم نعمة الإنجاء ، ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً مطالبا يتبعنا بثأركم ، كقوله : وَلا يَخافُ عُقْباها «١» ، أو : لا تجدوا نصيرا ينصركم منه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، هم الذين أضافهم إلى نفسه بأن اصطفاهم لحضرة قدسه ، وشغلهم بذكره وأنسه ، لم يركنوا إلى شيء سواه ، ولم يلتجئوا إلّا إلى حماه. فلا جرم أنه يحفظهم برعايته ، ويكلؤهم بسابق عنايته. فظواهرهم قائمة بآداب العبودية ، وبواطنهم مستغرقة فى شهود عظمة الربوبية. فلمّا قاموا بخدمة الرحمن ، حال بينهم وبين كيد الشيطان ، وقال لهم : ربكم الذي يزجى لكم فلك الفكرة فى بحر الوحدة لتبتغوا

---

(١) الآية ١٥ من سورة الشمس.

الوصول إلى حضرة الأحدية ، إنه كان بكم رحيما. ثم إذا غلب عليكم بحر الحقيقة ، وغرقتم فى تيار الذات ، غاب عنكم كل ما سواه ، وطلبتم منه الرجوع إلى بر الشريعة ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم عن شهود السّوى ، وجحدتم وجوده ، لكن القلوب بيد الرحمن ، يقلبها كيف شاء فلا يأمن العارف من المكر ، ولو بلغ ما بلغ ، ولذلك قال : أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر فتغرقون فى الحس ، وتشتغلون بعبادة الحس ، أو يرسل عليكم حاصبا : واردا قهّاريّا ، يخرجكم عن حد الاعتدال ، أم أمنتم أن يعيدكم فى بحر الحقيقة ، تارة أخرى ، بعد الرجوع للبقاء ، فيرسل عليكم واردا قهاريا يخرجكم عن حد الاعتدال ، ويحطكم عن ذروة الكمال ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر كرامة بنى آدم ، وتفضيلهم ردّا لقول الشيطان «أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ» ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٠]

وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا

تَفْضِيلاً (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ قاطبة ، برهم وفاجرهم ، أي : كرمناهم بالصورة الحسنة ، والقامة المعتدلة ، والتمييز بالعقل ، والإفهام بالكلام ، والإشارة والخط ، والتهدى إلى أسباب المعاش والمعاد ، والتسلط على ما فى الأرض ، والتمتع به ، والتمكن من الصناعات ، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة. ومن جملته : ما ذكره ابن عباس رضي اللّه عنه من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه ، إلا الإنسان يرفعه إليه بيده ، وأما القرد فيده بمنزلة رجله لأنه يطأ بها القاذورات فسقطت حرمتها. وَحَمَلْناهُمْ أي : بنى آدم ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ على الدواب والسفن فيمشون محمولين فى البر والبحر. يقال : حملته حملا : إذا جعلت له ما يركب. وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من فنون النعم ، وضروب المستلذات ممّا يحصل بصنعهم وبغير صنعهم ، وَفَضَّلْناهُمْ بالعلوم والإدراكات ، مما ركّبنا فيهم عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا وهم : من عدا الملائكة – عليهم السلام – . تَفْضِيلًا عظيما ، فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ، ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقّيّة ، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك ، الذي لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز ، فضلا عمن فضّل على من عدا الملأ الأعلى ، والمستثنى جنس الملائكة ، أو الخواص منهم ، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل جنس بنى آدم على الملائكة ، عدم تفضيل بعض أجزائه كالأنبياء والرسل ، فإنهم أفضل من خواص الملائكة ، وخواص الملائكة – كالمقربين مثلا – أفضل من خواص بنى آدم ، كالأولياء ، والأولياء أفضل من عوام الملائكة. واللّه تعالى أعلم.

(٢١٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٧

الإشارة : قد كرّم اللّه هذا الآدمي ، وشرفه على خلقه بخصائص جعلها فيه ، منها : أنه جعله نسخة من الوجود ، فيه ما فى الوجود ، وزيادة ، قد انطوت فيه العوالم بأسرها ، من عرشها إلى فرشها ، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا ، فى مباحثه ، حيث قال :

يا سابقا فى موكب الإبداع ولا حقا فى جيش الاختراع
اعقل فأنت نسخة الوجود للّه ما أعلاك من موجود
أليس فيك العرش والكرسىّ والعالم العلوىّ والسّفلىّ
ما الكون إلا رجل كبير وأنت كون مثله صغير

وقال آخر :

إذا كنت كرسيّا ، وعرشا ، وجنّة ، ونارا ، وأفلاكا تدور ، وأملاكا

وكنت من السّرّ المصون حقيقة وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا
ففيم التّأنّى فى الحضيض تثبّطا مقيما مع الأسرى ، أما آن إسراكا؟!

ومنها : أنه جعله خليفة فى ملكه ، وجعل الوجود بأسره خادما له ، ومنتفعا به ، الأرض تقله ، والسماء تظله ، والجهات تكتنفه ، والحيوانات تخدمه ، والملائكة تستغفر له ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه الخلق. قال تعالى : وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ «١».

ومنها : أن جعل ذاته مشتملة على الضدين : النور والظلمة ، الكثافة واللطافة ، الروحانية والبشرية ، الحس والمعنى ، القدرة والحكمة ، العبودية وأسرار الربوبية ، إلى غير ذلك. ولذلك خصه بحمل الأمانة.

ومنها : أنه جعله قلب الوجود ، هو المنظور إليه من هذا العالم ، وهو المقصود الأعظم من إيجاد هذا الكون ، فهو المنعّم دون غيره ، إن أطاع اللّه ، ألا ترى قوله تعالى : وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ «٢» ، فنعيم الجنان خاص بهذا الإنسان ، أو : من التحق به من مؤمنى الجان. وقال الورتجبي : كرامة اللّه تعالى لبنى آدم سابقة

---

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.
(٢) من الآية ٧٥ من سورة الزمر.

على كون الخلق جميعا لأنها من صفاته ، واختياره ، ومشيئته الأولية. أوجد الخلق برحمته ، وخلق آدم وذريته بكرامته ، الخلق كلهم فى حيز الرحمة ، وآدم وذريته فى حيز الكرامة. الرحمة للعموم ، والكرامة للخصوص. خلق الكلّ لآدم وذريته ، وخلق آدم وذريته لنفسه ، ولذلك قال : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي «١» ، جعل آدم خليفته ، وجعل ذريته خلفاء أبيهم ، الملائكة والجن فى خدمتهم ، والأمر والنهى والخطاب معهم ، والكتاب أنزل إليهم ، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وجميع الآيات ، خلق لهم. والخلق كلهم طفيل لهم ، ألا ترى اللّه يقول لحبيبه صلى اللّه عليه وسلم : «لولاك ما خلقت الكون»؟ ولهم كرامة الظاهر ، وهى : تسوية خلقهم ، وظرافة صورهم ، وحسن نظرتهم ، وجمال وجوههم ، حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة ، واستواء القامة ، وحسن المشي ، والبطش ، وإسماع الكلام ، والتكلم باللسان ، والنظر بالبصر ، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم ، التي صدرت من حسن اصطناع صورته. الذي قال : خَلَقْتُ بِيَدَيَّ «٢» ، فنور وجوههم من معادن نور

الصفة ، وأنوار الصفات نوّرت آدم وذريته ، فتكون نورا من حيث الصفات والهيئات ، والحسن والجمال ، متصفون متخلقون بالصفات الأزلية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : «خلق آدم على صورته» من حيث التخلق لا من حيث التشبيه. انظر تمامه.

والحاصل أنه فضلهم بالخلق والخلق ، وذلك يجمع محاسن الصورة الظاهرة والباطنة. هـ. قاله المحشى الفاسى.

ثم ذكر محل ظهور كرامة بنى آدم ، وهو يوم القيامة ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)

قلت : يجوز فى (أَعْمى) – الثاني – : أن يكون وصفا كالأول ، وأن يكون من أفعل التفضيل ، وهو أرجح لعطف «وَأَضَلُّ» عليه ، الذي هو للتفضيل. وقال سيبويه : لا يجوز أن يقال : هو أعمى من كذا ، وإنما يقال : هو أشد عمى ، لكن إنما يمتنع ذلك فى عمى البصر ، لا فى عمى القلب. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ بنبيهم. فيقال : يا أمّة فلان ، يا أمة فلان ، احضروا للحساب. أو : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا صاحب الخير ويا صاحب الشر ، فهو مناسب لقوله : (فَمَنْ أُوتِيَ ...) إلخ.

---

(١) من الآية ٤١ من سورة طه.

(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢١٩

وقال محمد بن كعب القرظي : بأسماء أمهاتهم ، فيكون جمع «أم» ، كخف وخفاف ، لكن فى الحديث : «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم» «١» ، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفى البيضاوي :

قيل : بأمهاتهم ، والحكمة فى ذلك : إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفتضح أولاد الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير : قيل لأبى عمران : هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم؟ قال : قد جاء فى ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفى البخاري – باب يدعى الناس بآبائهم ،

وساق حديث ابن عمر :

«ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة. يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان» «٢» ، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم ، وهو الراجح ، إلا فيمن لا أب له. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى : فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ أي : فمن أوتى صحيفة أعماله ، يومئذ ، من أولئك المدعوين بيمينه إظهارا لخطر الكتاب ، وتشريفا لصاحبه ، وتبشيرا له من أول الأمر ، فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ المؤتى لهم. والإشارة إلى «من» : باعتبار معناها لأنها واقعة على الجمع إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل ، وإشعارا بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع ، لا على وجه الانفراد كما فى حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد إشعارا برفع درجاتهم ، أي : أولئك المختصون بتلك الكرامة ، التي يشعر بها الإيتاء المذكور ، يقرأون كتابهم وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة فى صحيفتهم أدنى شيء ، فإن الفتيل – وهو :

قشر النواة – مثل فى القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال : وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ الدنيا ، التي فعل بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل ، أَعْمى فاقد البصيرة ، لا يهتدى إلى رشده ، ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل ، فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ، ولا يستعمل ما أودعنا فيه من العقل والقوى ، فيما خلق له من العلوم والمعارف ، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى كذلك ، لا يهتدى إلى ما ينجيه مما يرديه لأن النجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأخروية مرتب على العمل فى الدنيا ، ومعرفة الحق ، ومن عمى عنه فى الدنيا فهو فى الآخرة أشد عمى عما ينجيه ، وَأَضَلُّ سَبِيلًا عنه لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذي أخذ كتابه

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) ، وأبو داود فى (الأدب ، باب فى تغيير الأسماء) عن أبى الدرداء ، وصححه الهيثمي فى المجمع (٣/ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأدب ، باب يدعى الناس بآبائهم).

بشماله ، بدلالة ما سبق من القبيل المقابل ، ولعل العدول عن التصريح به إلى ذكره بهذا العنوان للإشعار بالعلة الموجبة له ، فإنّ العمى عن الحق والضلال هو السبب فى الأخذ بالشمال ، وهذا كقوله فى الواقعة : وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ «١» ، بعد قوله : وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ

«٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يدعو الحق تعالى ، يوم القيامة ، الأمم إلى الحساب بأنبيائها ورسلها ، ثم يدعوهم ، ثانيا ، للكرامة بأشياخها وأئمتها التي كانت تدعوهم إلى الحق على الهدى المحمدي. فيقال : يا أصحاب فلان ، ويا أصاحب فلان ، اذهبوا إلى الجنة ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. وهذا فى حق أهل الحق والتحقيق ، الدالين على سلوك الشريعة ، والتمسك بأنوار الحقيقة ذوقا وكشفا ، فكل من تبعهم ، وسلك منهاجهم ، كان من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم : أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأما من لم يكن من حزبهم ، ولم يدخل تحت تربيتهم ، فإن استعمل عقله وقواه فيما ينجيه يوم القيامة كان من الذين يؤتون كتابهم بيمينهم ، ولا يظلمون فتيلا. ومن أهل عقله واستعمل قواه فى البطالة والهوى ، كان من القبيل الذي عاش فى الدنيا أعمى ، ويكون فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والعياذ باللّه.

ثم ذكر نوعا من هذا القبيل ، الذي أعمى اللّه بصيرته ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧٣ الى ٧٧]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (٧٥) وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (٧٧)

قلت : «وَإِنْ» : مخففة من الثقيلة فى الموضعين ، واسمها : ضمير الشأن ، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، أي : إن الشأن قاربوا أن يفتنوك. و(سُنَّةَ) : مفعول مطلق ، أي : سنّ اللّه ذلك سنة.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كادُوا أي : كفار العرب ، لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من أمرنا ونهينا ، ووعدنا ووعيدنا ، لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ لتقول ما لم أقل لك ، مما اقترحوا عليك. نزلت فى ثقيف ،

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الواقعة.

(٢) الآية ٩٠ من نفس السورة.

إذ قالوا للنّبى صلى اللّه عليه وسلم : لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا نعشّر ، ولا نحشّر ، ولا نحنى فى صلاتنا ، وكلّ ربا لنا فهو لنا ، وكلّ ربا علينا فهو موضوع ، وأن تمتّعنا

باللات سنة ، وأن تحرّم وادينا كما حرمت مكة ، فإذا قالت العرب : لم فعلت؟ فقل : اللّه أمرنى بذلك. فأبى عليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «١» ، وخيّب سعيهم. فالآية ، على هذا ، مدنية. وقيل : فى قريش ، قالوا للنبى صلى اللّه عليه وسلم : لا نمكنك من استلام الحجر ، حتى تلمّ بآلهتنا ، وتمسّها بيدك «٢». وقيل : قالوا : اقبل بعض أمرنا ، نقبل بعض أمرك ، والآية ، حينئذ ، مكية كجميع السورة.

وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا أي : لو فعلت ما أرادوا منك لصرت لهم وليا وحبيبا ، ولخرجت من ولايتي ، وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك ، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا من الركون ، الذي هو أدنى ميل ، أي : لو لا أن عصمناك ، لقاربت أن تميل إليهم لقوة خدعهم ، وشدة احتيالهم. لكن عصمتنا منعتك من المقاربة. وهو صريح فى أنه – عليه الصلاة والسلام – ما همّ بإجابتهم ، مع قوة الداعي إليها ، ولا قارب ذلك. وهو دليل على أن العصمة بتوفيق اللّه وحفظه. قاله البيضاوي. وفيه رد على ابن عطية ، حيث قال :

قيل : إنه همّ بموافقتهم ، لكن كان ذلك خطرة ، والصواب : عدم ذلك لأن التثبيت والعصمة مانع من ذلك.

وقد أجاد القشيري فى ذلك ، ونصه : ضربنا عليك سرادقات العصمة ، وآويناك فى كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباع هواك ، فالزّلل منك محال ، والافتراء فى نعتك غير موهوم ، ولو جنحت لحظة إلى جانب الخلاف لتضاعفت عليك شدائد البلاء لكمال قدرك وعلوّ شأنك فإنّ كل من هو أعلى درجة فذنبه – لو حصل – أشدّ تأثيرا.

وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ ... الآية : لو وكلناك ونفسك ، ورفعنا عنك ظلّ العصمة ، لقاربت الإمام بشىء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا ، ولكنّا أفردناك بالحفظ ، بما لا تتقاصر عنك آثاره ، ولا تغرب عن ساحتك أنواره. إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ، هبوط الأكابر على قدر صعودهم. هـ.

إِذاً أي : لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ عذاب الْحَياةِ ، وَضِعْفَ عذاب الْمَماتِ ، أي : مثلى ما يعذّب غيرك فى الدنيا والآخرة لأن خطأ الخطير أخطر. وكأن أصل الكلام : عذابا ضعفا فى الحياة ، وعذابا ضعفا فى الممات ، أي : مضاعفا ، ثم حذف الموصوف ، وأقيمت الصفة مقامه ، ثم أضيفت

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : «لم أجده ، وذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند». وذكره الواحدي فى الأسباب (ص ٢٩٧) بدون سند أيضا.

(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن جبير ، بسند ضعيف.

إضافة موصوفها. وقيل : الضعف من أسماء العذاب. وقيل : المراد بضعف الحياة : عذاب الآخرة لأن حياته دائمة ، وبضعف الممات : عذاب القبر. ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً يدفع عنك العذاب.

وَإِنْ كادُوا أي : كاد أهل مكة لَيَسْتَفِزُّونَكَ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم مِنَ الْأَرْضِ التي أنت فيها. وهى : أرض مكة ، لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا إلا زمنا قليلا. وقد كان كذلك ، فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل : نزلت فى اليهود فإنهم حسدوا مقام النبي صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة ، فقالوا :

الشام مقام الأنبياء ، فإن كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك. فوقع ذلك فى قلبه صلى اللّه عليه وسلم ، فخرج مرحلة ، فنزلت «١» ، فرجع صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قتل منهم بنى قريظة ، وأجلى بنى النضير بقليل ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا أي :

عادته تعالى : أن يهلك من أخرجت رسلهم من بين أظهرهم ، فقد سنّ ذلك فى خلقه ، وأضافها إلى الرسل لأنها سنت لأجلهم. وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا أي : تغييرا وتبديلا.

الإشارة : من شأن العارف الكامل أن يأخذ بالعزائم ، ويأمر بما يقتل النفوس ، ويوصل إلى حضرة القدوس ، وهو كل ما يثقل على النفوس ، فإن أتاه من يفتنه ويرده إلى الهوى ، حفظته العناية ، واكتنفته الرعاية ، فيقال له :

وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك وحي إلهام ، لتفترى علينا غيره ، فتأمر بالنزول إلى الرخص والتأويلات ، وإذا لا تخذوك خليلا. ولو لا أن ثبتناك بالحفظ والرعاية ، لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، وهى :

خواطر تخطر ولا تثبت. إذا لأذقناك ضعف الحياة ، وهو : الذل والحرص والطمع. وضعف الممات ، وهو : السقوط عن مقام المقربين ، أهل الرّوح والريحان. وإن كادوا ليستفزونك من أرض العبودية ، ليخرجوك منها إلى إظهار الحرية ، من العز والجاه ، وإذا لا يلبثون خلافك ممن اتبعك إلا قليلا لأن من رجع إلى مباشرة الدنيا والحس قلّ مدده ، فيقل انتفاعه ، فلا يتبعه إلا القليل. هذه سنة اللّه فى أوليائه ، ولن تجد لسنة اللّه تحويلا.

ثم أمر بمراسم الشريعة ، التي هى عنوان العناية ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧٨ الى ٧٩]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (٧٩)

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٧/ ٢٣٤١) والبيهقي فى الدلائل (باب ماروى فى سبب خروج

النبي صلى اللّه عليه وسلم) إلى تبوك عن عبد الرحمن بن غنم ، وضعف الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣) هذا القول لأن هذه الآية مكية. وسكنى المدنية بعد ذلك.

(٢٢٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٣

قلت : الدلوك : الميل. واشتقاقه من الدّلك لأن من نظر إليها حينئذ يدلك عينه. واللام للتأقيت بمعنى : عند.

و(قُرْآنَ) : عطف على (الصَّلاةَ) ، أو منصوب بفعل مضمر ، أي : اقرأ قرآن الفجر ، أو على الإغراء. يقول الحق جل جلاله : أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ أي : عند زوال الشَّمْسِ ، وهو إشارة إلى إقامة الصلوات الخمس ، فدلوك الشمس : زوالها وهو إشارة إلى الظهر والعصر ، وغسق الليل : ظلمته ، وهو إشارة إلى المغرب والعشاء ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ صلاة الصبح ، وإنما عبّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر لأن القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها لأنها تصلى بسورتين طويلتين ، ثم مدحها بقوله : إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو : يشهده الجم الغفير من المصلين ، أو فيه شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء ، والنوم ، الذي هو أخو الموت ، بالانتباه.

ثم أمر بقيام الليل فقال : وَمِنَ اللَّيْلِ أي : بعض الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ أي : اترك الهجود ، الذي هو النوم فيه ، للصلاة بالقرآن ، نافِلَةً لَكَ أي : فريضة زائدة لك على الصلوات الخمس ، أو فريضة زائدة لك لاختصاص وجوبها بك ، أو نافلة زائدة لك على الفرائض غير واجبة. وكأنه ، لما أمر بالفرائض ، أمر بعدها بالنوافل. وتطوعه – عليه الصلاة والسلام لزيادة الدرجات ، لا لجبر خلل أو تكفير ذنب لأنه مغفور له ما تقدم وما تأخر. و«مِنَ» : للتبعيض ، والضمير فى «بِهِ» : للقرآن. والتهجد : السهر ، وهو : ترك الهجود ، أي : النوم. فالتفعل هنا للإزالة كالتأثم والتحرج ، لإزالة الإثم والحرج.

ثم ذكر ثوابه فى حقه – عليه الصلاة والسلام – فقال : عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً عندك وعند جميع الناس ، وهى : الشفاعة العظمى. وفيه تهوين لمشقة قيام الليل. روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال :

«المقام المحمود هو المقام الّذى أشفع فيه لأمّتى «١»». وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : مقاما محمودا يحمده فيه الأولون والآخرون ، ويشرف فيه على جميع الخلائق ، يسأل فيعطى ، ويشفع فيشفّع. وعن حذيفة : يجمع الناس فى صعيد واحد ، فلا تتكلم فيه نفس إلا بإذنه ، فأول مدعو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فيقول : «لبيك وسعديك. والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت».

ثم يأذن له فى الشفاعة. واللّه تعالى أعلم.

وقال ابن العربي المعافري فى أحكامه : واختلف فى وجه كون قيام الليل سببا للمقام المحمود على قولين ، فقيل :

إن البارئ تعالى يجعل ما يشاء من فضله سببا لفضله ، من غير معرفة منا بوجه الحكمة. وقيل : إن قيام الليل فيه

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤٤١) ، والترمذي وحسّنه فى (التفسير ، سورة الإسراء) ، والبيهقي فى الدلائل (٥/ ٤٨٤) ، وأصل الحديث عند البخاري ومسلم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٤

الخلوة به تعالى ، والمناجاة معه دون الناس ، فيعطى الخلوة به والمناجاة فى القيامة ، فيكون مقاما محمودا ، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم. وأجلّهم فيه درجة : نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فيعطى من المحامد ما لم يعط قبل ، ويشفّع فيشفع. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وقد يقال : إن ذلك مرتب على قوله : (أَقِمِ الصَّلاةَ ..) الآية ، ولا يخص بقيام الليل ، والصلاة ، مطلقا مفاتحة للدخول على اللّه ومناجاة له ، ولذلك جاء فى حديث الشفاعة افتتاحه بأن «يخر ساجدا حامدا ، فيؤذن حينئذ بالشفاعة». ومن تواضع رفعه اللّه. هـ.

الإشارة : قوم اعتنوا بإقامة صلاة الجوارح ، وهم : الصالحون الأبرار ، وقوم اعتنوا بإقامة صلاة القلوب ، التي هى الصلاة الدائمة ، وهم العارفون الكبار ، وقوم اعتنوا بسهر الليل فى الركوع والسجود ، وهم العباد والزهاد والصالحون ، أولوا الجد والاجتهاد. وقوم اعتنوا بسهره فى فكرة العيان والشهود ، وهم المقربون عند الملك الودود.

الأولون يوفّون أجرهم على التمام بالحور والولدان ، والآخرون يكشف لهم الحجاب ويتمتعون بالنظر على الدوام ، الأولون محبون ، والآخرون محبوبون ، الأولون يشفعون فى أقاربهم ومن تعلق بهم ، والآخرون قد يشفع واحد منهم فى أهل عصره. وما ذلك على اللّه بعزيز.

ولما أمره بالقيام بوظائف العبودية ، أمره بالتعلق فى أموره كلها بالربوبية ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٠ الى ٨١]

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (٨٠) وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (٨١)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلْ يا محمد : رَبِّ أَدْخِلْنِي فى الأمور كلها مُدْخَلَ صِدْقٍ بأن أدخل فيها بك لا بنفسي ، وَأَخْرِجْنِي منها مُخْرَجَ صِدْقٍ كذلك ، مصحوبا بالفهم عنك ، والإذن منك فى إدخالى وإخراجى. وقيل : أدخلنى قبرى مدخل صدق راضيا مرضيا ، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق ، أي : إخراجا مرضيا ملقى بالكرامة. فيكون تلقينا للدعاء بما وعده من البعث ، المقرون بالإقامة للمقام المحمود ، التي لا كرامة فوقها. وقيل : المراد : إدخال المدينة ، والإخراج من مكة. وقيل : إدخاله – عليه الصلاة والسلام – مكة ظاهرا عليها ، وإخراجه منها آمنا من المشركين. وقيل : إدخاله الغار ، وإخراجه منه سالما. وقيل : إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة ، وإخراجه منه مؤديا حقه. وقيل : إدخاله فى كل ما يلائمه من مكان أو أمر ، وإخراجه منه بالحفظ والرعاية ، بحيث يدخل باللّه ويخرج باللّه. وهو الراجح كما قدمناه.

وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أي : من مستبطن أمورك ، سُلْطاناً نَصِيراً أي : حجة ظاهرة ، تنصرنى على من يخالفنى ويعادينى ، أو : عزا ناصرا للإسلام ، مظهرا له على الكفر. فأجيبت دعوته – عليه الصلاة والسلام –

(٣/٢٢٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٥

بقوله : فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ «١» ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ «٢» ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ... «٣» الآية ، وبقوله : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ... «٤» الآية. وذلك حين يظهر الحق ، ويزهق الباطل ، كما قال : وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ أي : الإسلام أو الوحى ، وَزَهَقَ الْباطِلُ ذهب ، وهلك الكفر والشرك ، وتسويلات الشيطان إِنَّ الْباطِلَ كائنا ما كانَ زَهُوقاً أي : شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخل مكّة يوم الفتح ، وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنما ، فجعل يطعن بمخصرة «٥» كانت بيده فى عين كل واحد ، ويقول : جاء الحقّ وزهق الباطل ، فينكبّ لوجهه ، حتّى ألقى جميعها ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر ، «٦» فقال :

يا علىّ ، ارم به فصعد إليه ، ورمى به ، فكسره «٧». هـ.

الإشارة : إذا تمكن العارفون من شهود حضرة القدس ومحل الأنس ، وصارت معشش قلوبهم كان نزولهم إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين. فلم ينزلوا إلى سماء الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، ولا إلى أرض الحظوظ بالشهوة والمتعة ، بل دخلوا فى ذلك باللّه وللّه ، ومن اللّه وإلى اللّه ، كما فى الحكم. ثم قال : وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ

ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى ، وانقيادي إليك إذا أخرجتنى. وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً ينصرنى ولا ينصر علىّ ، ينصرنى على شهود نفسى ، حتى أغيب عنها وعن متعتها وهواها ، ويفنينى عن دائرة حسى ، حتى تتسع علىّ دائرة المعاني عندى ، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان ، فحينئذ يزهق الباطل ، وهو ما سوى اللّه ، ويجىء الحق ، وهو وجود الحق وحده ، فأقول حينئذ : وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً ، وإنما أثبته الوهم والجهل ، وإلا فلا ثبوت له ابتداء وانتهاء.

وثبوت الوهم والجهل فى القلب : مرض من الأمراض ، وشفاؤه فى التمسك بما جاء به القرآن العظيم ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٨٢]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (٨٢)

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة المائدة. [.....]

(٢) من الآية ٣٣ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٥٥ من سورة النور.

(٤) الآيتان : ١٧١ - ١٧٢ من سورة الصافات.

(٥) المخصرة : ما يختصره الإنسان بيده ، فيمسكه من عصا ونحوها ... انظر : مختار الصحاح ، (خصر).

(٦) أي : من نحاس.

(٧) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الإسراء) ، ومسلم فى (الجهاد ، باب فتح مكة).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٦

قلت : (مِنَ) : للبيان ، قدمت على المبيّن اعتناء ، فالقرآن كله شفاء. وقيل : للتبعيض ، والمعنى : أن منه ما يشفى من المرض الحسى ، كالفاتحة وآية الشفاء ، ومن المرض المعنوي ، كآيات كثيرة.

يقول الحق جل جلاله : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ لما فى الصدور ، ومن سقام الريب والجهل ، وأدواء الأوهام والشكوك ، وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ به ، العالمين بما احتوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب العلوم ، المستعملين أفكارهم وقرائحهم فى الغوص على دُرره ويواقيته ، أي : وننزل ما هو تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم ، ورفع الأوهام والشكوك عنهم ، كالدواء الشافي للمرض ، وعن النبي صلى اللّه

عليه وسلم : «من لم يستشف بالقرآن لا شفاه اللّه» «١». وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ الكافرين المكذبين ، الواضعين الأشياء فى غير محلها ، مع كونه فى نفسه شفاء من الأسقام ، إِلَّا خَساراً إلا هلاكا بكفرهم وتكذيبهم به. ولا يفسر الخسران هنا بالنقصان فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبّر عنه بالهلاك ، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام ، فهم فى الزيادة فى مراتب الهلاك ، من حيث إنهم ، كلما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكا.

وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشّبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد ، بمنزلة الأمراض ، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك ، وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن ، مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببا لذلك ، حيث كذّبوا به ، وفيه تعجيب من أمره حيث جعله مدار الشفاء والهلاك. قاله أبو السعود.

الإشارة : لا يحصل الاستشفاء بالقرآن إلا بعد التصفية والتطهير للقلب ، بالتخلية والتحلية ، على يد شيخ كامل ، عارف بأدواء النفوس ، حتى يتفرغ القلب من الأغيار والأكدار ، ويذهب عنه وساوس النفوس وخواطر القلوب ليتفرغ لسماع القرآن والتدبر فى معانيه. وأما إن كان القلب محشوا بصور الأكوان ، مصروفا إلى الخواطر والأغيار ، لا يذوق له حلاوة ، ولا يدرى ما يقول ، فلا يهتدى لما فيه من الشفاء ، إذ لا يستشفى بالقرآن إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولأجل ذلك كان من شأن شيوخ التربية أن يأمروا المريد بالذكر المجرد ، حتى تشرق عليه أنواره ، وتذهب به عنه أغياره. وحينئذ يأمره بتلاوة القرآن ليذوق حلاوته ، فإذا كمل تطهيره ، تمتع بحلاوة شهود المتكلم ، فيسمعه من الحق بلا واسطة ، وهو المراد بالرحمة المذكورة بعد الشفاء. واللّه تعالى أعلم.

وإذا أدرك العبد هذه النعمة العظمى ، وجب عليه دوام الشكر ، كما نبّه عليه تعالى بذكر ضدها ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (٨٤)

---

(١) عزاه فى الكنز (٢٨١١٠٦) للدارقطني فى الأفراد ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٧

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ بالصحة والعافية والنعمة ، أَعْرَضَ عن ذكرنا ، فضلا

عن القيام بالشكر ، وَنَأى أي : تباعد بِجانِبِهِ لوى عطفه وبعد بنفسه. فالنأى بالجانب : أن يلوى عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه ، فهو تأكيد للإعراض. أو عبارة عن التكبر لأنه من ديدن المستكبرين ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من فقر ، أو مرض ، أو نازلة من النوازل ، كانَ يَؤُساً شديد اليأس من روحنا وفرجنا. وفى إسناد المسّ إلى الشر ، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك. وهذا الوصف المذكور هنا هو وصف للإنسان باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذا الوصف ، ولا ينافيه قوله تعالى : وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ «١» ، ونظائره فإن ذلك فى نوع آخر من جنس الإنسان. وقيل : أريد به الوليد بن المغيرة.

قال تعالى : قُلْ كُلٌّ أي : كل واحد منكم وممن هو على خلافكم يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ على طريقته التي تشاكل حاله من الهدى والضلالة ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا أي : فربكم ، الذي يراكم على هذه الأحوال والطرق ، أعلم بمن هو أسدّ طريقا وأبين منهاجا. وقد فسرت الشاكلة أيضا بالطبيعة والعادة والدين والنية.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يمعن النظر فى كلام سيده ، فإذا وجده مدح قوما بعمل ، بادر إلى فعله ، أو بوصف ، بادر إلى التخلق به ، وإذا وجده ذم قوما ، بسبب عمل ، تباعد عنه جهده ، أو بوصف تطهر منه بالكلية. وقد ذم الحق تعالى هنا من بطر بالنعمة وغفل عن القيام بشكرها ، ومن جزع عند المصيبة وأيس من ذهابها ، فليكن المؤمن على عكس هذا ، فإذا أصابته مصيبة أو بلية تضرع إلى مولاه ، ورجى فضله ونواله ، وإذا أصابته نعمة دنيوية أو دينية أكثر من شكرها ، وشهد المنعم بها فى أخذها وصرفها ، ولا سيما نعمة الإيمان والمعرفة ، وتصفية الروح من غبش الحس والوهم ، حتى ترجع لأصلها ، الذي هو سر من أسرار اللّه ، الذي أشار إليه بقوله تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٨٥]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ أي : عن حقيقة الروح ، الذي هو مدبر البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته. روى أن اليهود قالوا لقريش : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ،

---

(١) من الآية ٥١ من سورة فصلت.

فإن أجاب عنها كلها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى. فبيّن لهم القصتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة ، فقال : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، أظهر فى مقام الإضمار إظهارا لكمال الاعتناء بشرفه ، أي : هو من جنس ما استأثر اللّه بعلمه من الأسرار الخفية ، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر. وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا لا يمكن تعلقه بأمثال هذه الأسرار.

روى أنه صلى اللّه عليه وسلم لما قال لهم ذلك ، قالوا : نحن مختصون بهذا الخطاب ، قال عليه الصلاة والسلام : «بل نحن وأنتم». فقالوا : ما أعجب شأنك ، ساعة تقول : وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً «١» ، وتارة تقول هذا ، فنزلت : قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي «٢» الآية. وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ... «٣» الآية.

وهذا من ركاكة عقولهم فإن من الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية ، بل ما نيط به المعاش والمعاد ، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهاية له من متعلقات علمه سبحانه ، قليل ينال به خير : كثير فى نفسه.

وقال ابن حجر : أخرج الطبراني عن ابن عباس أنهم قالوا : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح فى الجسد وإنما الروح من اللّه؟. هـ. قلت : يجاب بأنها لما برزت لعالم الشهادة لحقتها العبودية ، وأحاطت به القهرية. وقال القشيري : أرادوا أن يغالطوه فيما به يجيب ، فأمره أن ينطق بأمر يفصح عن أقسام الروح ، لأنّ ما يطلق عليه لفظ «الرُّوحِ» يدخل تحت قوله : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، ثم قال : وفى الجملة : الروح مخلوقة ، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ، ما دام الروح فى جسده ، والروح لطيفة تقرب للكثافة فى طهارتها ولطافتها. وهى مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين. وقيل : إن أدركها التكليف ، كان للروح صفاء التسبيح ، وضياء المواصلة ، ويمن التعريف بالحق. هـ. وقيل : المراد بالروح : خلق عظيم روحانى من أعظم الملائكة ، وقيل : جبريل عليه السّلام ، وقيل : القرآن. ومعنى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي) من وحيه وكلامه ، لا من كلام البشر. واللّه تعالى أعلم بمراده.

الإشارة : قد أكثر الناس الكلام فى شأن الروح ، فرأى بعضهم أن الإمساك عنها أولى لأن الرسول – عليه الصلاة والسلام – لم يجب عنها. وبيّن الحق تعالى أنها من أمر اللّه وسر من أسراره. ورأى بعضهم أن النهى لم يرد عن الخوض فيها صريحا ، فتكلم على قدر فهمه. فقال بعضهم : حقيقة الروح : جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأرطب ، وقال صاحب (الرموز فى فتح الكنوز) على حديث : «من عرف نفسه عرف ربه» : قد ظهر

---

(١) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٣) من الآية ٢٧ من سورة لقمان ، وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف للثعلبى فى التفسير ، بغير سند ولا راو.

(٢٢٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٢٩

لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه ، وهو : أن اللّه ، سبحانه ، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية ، لطيفة لاهوتية ، فى كثيفة ناسوتية ، دالة على وحدانيته تعالى وربانيته ، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه : الأول : أن هذا الهيكل الإنسانى لمّا كان مفتقرا إلى محرك ومدبر ، وهذا الروح هو الذي يدبره ويحركه ، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر. الثاني : لمّا كان مدبر الجسد واحدا علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره. قال تعالى : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» ، الثالث : لمّا كان لا يتحرك هذا الجسم إلا بتحريك الروح وإرادته علمنا أنه لا يتحرك بخير أو شر إلا بتحريك اللّه وقدرته وإرادته.

الرابع : لمّا كان لا يتحرك فى الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها ، لا يخفى على الروح من حركة الجسد شيء ، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. الخامس : لمّا كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شيء ، ليس شيء أقرب إليه من شيء ، ولا شيء أبعد إليه من شيء ، لا بمعنى قرب المسافة لأنه منزه عن ذلك. السادس : لمّا كان الروح موجودا قبل الجسد ، ويكون موجودا بعد عدمه علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه ، ويكون موجودا بعد عدمهم ، ما زال ، ولا يزال ، وتقدس عن الزوال. السابع : لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية.

الثامن : لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ولا أينية ، بل الروح موجود فى سائر الجسد ، ما خلا منه شيء فى الجسد. كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان ، وتنزه عن المكان والزمان.

التاسع : لمّا كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس. العاشر : لمّا كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر ، ولا يمثل بالصور ، علمنا أنه تعالى لا تدركه الأبصار ، ولا يمثل بالصور والآثار ، ولا يشبه بالشموس والأقمار ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٢». هـ. وحديث «من عرف نفسه ...»

إلخ ، قال النووي : غير ثابت ، وقال السمعاني : هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازي. واللّه تعالى أعلم.

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح ، أمخلوقة هى؟ قال : نعم. ولولا ذلك لما أقرت بالربوبية حتى قالت : «بلى».

قلت : لما انفصلت عن الأصل كستها أردية العبودية ، فأقرت بالربوبية. وقال الورتجبي : الروح : شعاع الحقيقة ، يختلف آثارها فى الأجساد. قال : ومن خاصيتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن ، وكل صوت طيب ، وكل رائحة طيبة لحسن جوهرها وروح وجودها ، ظاهرها غيب اللّه ، وباطنها سر اللّه ، مصورة بصورة آدم ، فإذا أراد اللّه _____

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

خلق آدمي أحضر روحه ، فصور صورته بصورة الروح فلذلك قال عليه الصلاة والسلام إشارة وإبهاما : «خلق اللّه آدم على صورته». هـ. قلت : يعنى : أن إظهار الروح من بحر الجبروت ، فى التجلي الأول ، كان على صورة آدم ، ثم خلق آدم على صورة الروح الأعظم ، وهو التجلي الأول من بحر المعاني ، فكانت أول التجليات من ذات الرحمن ، فقال فى حديث آخر : «إن اللّه خلق آدم على صورة الرحمن». واللّه تعالى أعلم. وقيل : الصوت الطيب روحانى ، ولتشاكله مع الروح ، صار يهيج الروح ويحثها للرجوع لأصلها ، إذا كان صاحبها له ذوق سليم ، يسمع من صوت طيب كريم. سمع أبو يزيد نغمة ، فقال : أجد النغم نداء منه تعالى. وقيل : إن الروح لم تدخل فى جسد آدم إلا بالسماع ، فصارت لا تخرج من سجنه إلا بالسماع. واللّه تعالى أعلم.

ثم بيّن قوله : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٦ الى ٨٩]

وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩)

قلت : قال ابن جزى : هذه الآية متصلة المعنى بقوله : وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا أي : فى قدرتنا أن نذهب بالذي أوحينا إليك ، فلا يبقى عندكم شيء من العلم. هـ. (إلا رحمة) : يحتمل أن يكون متصلا ، أي : لا تجد من يتوكل برده إلا رحمة ربك. أو منقطعا ، أي : لو شئنا لذهبنا بالقرآن ، لكن رحمة من ربك تمسكه من الذهاب ، و(لا يأتون) : جواب القسم الدال عليه اللام الموطئة ، وسد مسد جواب الشرط. ولولا اللام لكان جوابا للشرط ، ولم يجزم لكون الشرط ماضيا ، كقول زهير :

فإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب ما لى ولا حرم «١»

و(إلا كفورا) : استثناء مفرغ منصوب بأبى لأنه فى معنى النفي ، أي : ما رضى أكثرهم إلا الكفر به.

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أي : بالقرآن الذي هو منبع العلوم التي أوتيتموها ، ومقتبس الأنوار ، فلا يبقى عندكم من العلم إلا قليلا. والمراد بالإذهاب : المحو من المصاحف

---

(١) انظر ديوانه/ ٩١. [.....]

والصدور. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : (أول ما تفقدون من دينكم : الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم. وإن هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء. فقال رجل : كيف ذلك ، وقد أثبتناه فى قلوبنا ، ودونّاه فى مصاحفنا ، وعلمناه أبناءنا ، وأبناؤنا يعلمه أبناءهم؟! فقال : يسرى عليه ، ليلا ، فيصبح الناس منه فقراء ، ترفع المصاحف ، وينزع ما فى القلوب) «١».

ثُمَّ إن رفعناه لا تَجِدُ لَكَ بِهِ أي : القرآن عَلَيْنا وَكِيلًا أي : من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا ، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فإنها إن تأتك لعلها تسترده ، أو : لكن رحمة من ربك أمسكته فلم يذهب. إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ، كإرسالك للناس كافة ، وإنزال الكتاب عليك ، وإنعامه فى حفظك ، وغير ذلك مما لا يحصى.

ثم نوّه بقدر الكتاب الذي أنزله فقال : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، واتفقوا عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة ، وحسن النظم ، وكمال المعنى ، لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ أبدا لما تضمنه من العلوم الإلهية ، والبراهين الواضحة ، والمعاني العجيبة ، التي لم يكن لأحد بها علم ، ثم جاءت فيه على الكمال ، ولذلك عجزوا عن معارضته. وقال أكثر الناس : إنما عجزوا عنه لفصاحته ، وبراعته ، وحسن نظمه. ووجوه إعجازه كثيرة. وإنما خص الثقلين بالذكر لأن المنكر كونه من عند اللّه منهما ، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة. وإنما أظهر فى محل الإضمار ، ولم يقل : لا يأتون به لئلا يتوهم أن له مثلا معينا ، وإيذانا بأن المراد نفى الإتيان بمثل ما ، أي : لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة ، وفيهم العرب العاربة ، أرباب البراعة والبيان. فلا يقدرون على الإتيان بمثله وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً أي : ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان بمثله ما قدروا. وهو عطف على مقدر ، أي : لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ، ولو كان .. إلخ.

ومحله النصب على الحالية ، أي : لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ، ولو على هذه الحالة.
ثم قال تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنا أي : كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة ، توجب زيادة تقرير وبيان ، ووكادة رسوخ واطمئنان ، لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة ، مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من كل معنى بديع ، هو ، فى الحسن والغرابة واستجلاب الأنفس ، كالمثل ليتلقوه بالقبول ، أو بيّنّا لهم كل شيء محتاجون إليه من العلوم النافعة ، والبراهين القاطعة ، والحجج الواضحة. وهذا يدل على أن إعجاز القرآن هو بما فيه من

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الأمانات ../ ٥٢٧٣) ببعض الاختصار موقوفا.

المعاني والعلوم ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً إلا جحودا وامتناعا من قبوله. وفيه من المبالغة ما ليس فى نفى مطلق الإيمان لأنّ فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور والجحود ، وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء. وباللّه التوفيق.
الإشارة : كما وقع التخويف بإذهاب خصوصية النبوة والرسالة ، يقع التخويف بإذهاب خصوصية الولاية والمعرفة العيانية ، فإن القلوب بيد اللّه ، يقلبها كيف يشاء. والخصوصية أمانة مودعة فى القلوب ، فإذا شاء رفعها رفعها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره. وما زالت الأكابر يخافون من السلب بعد العطاء ، ويشدون أيديهم على الأدب لأن سوء الأدب هو سبب رفع الخصوصية ، والعياذ باللّه.
قال القشيري : سنّة الحقّ مع خيار خواصه أن يديم هم شهود افتقارهم إليه ليكونوا فى جميع الأحوال منقادين بجريان حكمه ، ثم قال : والمراد والمقصود : إدامة تفرّد سرّ حبيبه به ، دون غيره. هـ. وأما سلب الأولياء بعضهم لبعض فلا يكون فى خصوصية المعرفة بعد التمكين إذ لا مانع لما أعطى الكريم ، وإنما يكون فى خصوصية التصريف وسر الأسماء ، إذا كان أحدهما متمكنا فيه ، وقابل من لم يتمكن ، قد ينجذب إلى القوى بإذن اللّه ، وقد يزال منه إذا طغى به. واللّه تعالى أعلم.
ثم أظهر الحق تعالى جحودهم وعتوهم ، فقال :
[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩٠ الى ٩٦]
وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ

قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (٩٣) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (٩٤)

قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (٩٥) قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦)

(٢٣٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٣٣

قلت : من قرأ «كِسَفاً» بالتحريك : فهو جمع. ومن قرأ بالسكون : فمفرد. و(قَبِيلًا) : حال من «الله». وحذف حال الملائكة لدلالة الأول عليه. و(أَنْ يُؤْمِنُوا) : مفعول ثان لمنع. و(إِلَّا أَنْ قالُوا) : فاعل «مَنَعَ».

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار قريش ، عند ظهور عجزهم ، ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلى ، وغيره من المعجزات الباهرة ، معلّلين بما لا يمكن فى العادة وجوده ، ولا تقتضى الحكمة وقوعه ، من الأمور الخارقة للعادة ، كما هو ديدن المبهوت المحجوج ، قالوا للنبى – عليه الصلاة والسلام – فى جمع من أشرافهم :

إن مكة قليلة الماء ، ففجر لنا فيها عينا من ماء ، وهو معنى قوله تعالى : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ أرض مكة يَنْبُوعاً عينا لا ينشف ماؤها. وينبوع : يفعول ، من نبع الماء إذا خرج.

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ أي : بستان يستر أشجاره ما تحتها من العرصة ، مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ أي : تجريها بقوة ، خِلالَها فى وسطها تَفْجِيراً كثيرا ، والمراد : إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها ، أو إدامة إجرائها ، كما ينبىء عنه «الفاء» ، أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً «١» قطعا متعددة ، أو قطعا واحدا ، و(كَما زَعَمْتَ) : يعنون بذلك قوله تعالى : إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ «٢» ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا أي : مقابلا نعاينه جهرا ، أو ضامنا وكفيلا يشهد بصحة ما تدعيه ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أي : ذهب. وقرئ به. وأصل الزخرفة : الزينة ، أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ أي : فى معارجها فحذف المضاف. وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ أي : لأجل رقيك فيها وحده حَتَّى تُنَزِّلَ منها عَلَيْنا كِتاباً فيه تصديقك ، نَقْرَؤُهُ نحن ، من غير أن يتلقى من قبلك. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : قال عبد اللّه بن أميّة لرسول صلى اللّه عليه وسلم – وكان ابن عمته – : لن أؤمن لك حتّى تتّخذ إلى السماء سلّما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر ، حتّى تأتيها ، وتأتى معك بصك منشور ، معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول. هـ. ثم أسلم عبد اللّه بعد ذلك. ولم يقصدوا بتلك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج. ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات ، ما زادهم ذلك

إلا مكابرة. وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شهدوا من المعجزات ، التي تخر لها صم الجبال.
قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام – : قُلْ تعجبا من شدة شكيمتهم. وفى رواية «قال» : سُبْحانَ رَبِّي تنزيها له من أن يتحكم عليه أو يشاركه أحد فى قدرته. أو تنزيها لساحته – سبحانه – عما لا يليق بها ، من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة ، التي تكاد السموات يتفطرن منها ، أو عن طلب ذلك ، تنبيها على بطلان ما قالوه ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً لا ملكا ، حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه ، رَسُولًا مأمورا من قبل ربى

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم : (كسفا) بفتح السين ، أي : قطعا ، جمع كسفة ، وقرأ الباقون : بسكون السين على التوحيد ، جمع «كسفة» كسدرة وسدر. انظر : شرح الهداية (٢/ ٣٩٠) ، والإتحاف (٢/ ٢٠٥).
(٢) من الآية ٩ من سورة سبأ.

بتبليغ الرسالة ، كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره اللّه على أيديهم ، حسبما يلائم حال قومهم ، ولم يكن أمر الآيات إليهم ، ولا لهم أن يتحكموا على ربهم بشيء منها.
وَما مَنَعَ النَّاسَ أي : الذين حكيت أباطيلهم ، أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى أي : الوحى ، وهو ظرف لمنع ، أو يؤمنوا ، أي : وما منعهم وقت مجيئ الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان ، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك ، إِلَّا أَنْ قالُوا أي : إلا قولهم : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا ، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر. وليس المراد أن هذا القول صدر من بعضهم فمنع بعضا آخر منهم ، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل ، المستتبع بهذا المقول منهم. وإنما عبّر عنه بالقول إيذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير روية ، ولا مصداق له فى الخارج. وقصر المانع من الإيمان فيما ذكر ، مع أن لهم موانع شتى ، إما لأنه معظمها ، أو لأنه المانع بحسب الحال ، أعنى : عند سماع الجواب بقوله تعالى : هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ ، من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية.
قُلْ لهم من قبلنا تثبيتا للحكمة ، وتحقيقا للحق المزيح للريب : لَوْ كانَ أي : لو وجد واستقر فِي الْأَرْضِ بدل البشر مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ قارين ساكنين فيها ، لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا يهديهم إلى الحق لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه. وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق

المفاوضة مع الملائكة لأنها منوطة بالتناسب والتجانس ، فبعث الملائكة إليهم مناقض للحكمة التي يدور عليها أمر التكوين والتشريع. وإنما يبعث الملك إلى الخواص ، المختصين بالنفوس الزكية ، المؤيدة بالقوة القدسية ، فيتلقون منهم ويبلغون إلى البشر.

قُلْ كَفى بِاللَّهِ وحده شَهِيداً على أنى أديت ما علىّ من مواجب الرسالة ، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد. فهو شهيد بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وكفى به شهيدا ، ولم يقل : بيننا تحقيقا للمفارقة ، وإبانة للمباينة ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ من الرسل والمرسل إليهم ، خَبِيراً بَصِيراً محيطا بظواهر أعمالهم وبواطنها ، فيجازيهم على ذلك. وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية للرسول – عليه الصلاة والسلام – وتهديد للكفار ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : طلب الكرامات من الأولياء جهل بطريق الولاية ، وسوء الظن بهم ، إذ لا يشترط فى تحقيق الولاية ظهور الكرامة ، وأىّ كرامة أعظم من كشف الحجاب بينهم وبين محبوبهم ، حتى عاينوه وشاهدوه حقا ، وارتفعت عنهم الشكوك والأوهام ، وصار شهود الحق عندهم ضروريا ، ووجود السّوى محالا ضروريا ، فلا كرامة أعظم من

(٢٣٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٣٥

هذه؟ وكلامنا مع العارفين ، وأما الصالحون والعباد والزهاد فهم محتاجون إلى الكرامة ليزداد إيقانهم ، وتطمئن نفوسهم إذ لم يرتفع عنهم الحجاب ، ولم تنقشع عنهم سحابة الأثر.

والهداية بيد اللّه ، كما قال تعالى :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨)

قلت : (عَلى وُجُوهِهِمْ) : حال من ضمير «نحشرهم». و(عُمْياً ..) إلخ : حال أيضا من ضمير «وُجُوهِهِمْ».

و(مَأْواهُمْ) : استئناف ، وكذا : (كُلَّما ..) إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ إلى الحق الذي جاء من قبله على أيدى الرسل ، فَهُوَ الْمُهْتَدِ إليه ، وإلى ما يؤدى إليه من الثواب ، أو فهو المهتدى إلى كل مطلوب ، وَمَنْ يُضْلِلْ أي : يخلق فيه الضلال ، كهؤلاء المعاندين ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ ينصرونهم من عذابه ، أو يهدونهم إلى

طريقه ، ويوصلونهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية. ووحد الضمير أولا فى قوله : (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) : مراعاة للفظ «من» ، وجمع ثانيا فى (لَهُمْ) مراعاة لمعناها تلويحا بوحدة طريق الحق ، وتعدد طرق الضلال.

وَنَحْشُرُهُمْ ، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم إيذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ، أي : ونسوقهم يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ أي : كابين عليها سحبا ، كقوله : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ «١» ، أو : مشيا إلى المحشر بعد القيام ، فقد روى أنه قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كيف يمشون على وجوههم؟ قال : «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم» «٢». حال كونهم عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، لمّا كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ، ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه. ويجوز أن يحشروا ، بعد الحساب ، من الموقف إلى النار ، مؤوفي «٣» القوى والحواس. وأن يحشروا كذلك ، ثم تعاد إليهم قواهم وحواسهم ، فإنّ إدراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه.

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٥٥٤) ، والترمذي وحسنه فى (التفسير – سورة الإسراء) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) مؤوفى : صيغة جمع مضافة ، من الآفة ، وهى العاهة. وأيف الزرع : أصابته آفة ، فهو مؤوف على وزن : معوف. انظر مختار الصحاح (أوف).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٣٦

مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ هى مسكنهم ، كُلَّما خَبَتْ خمدت زِدْناهُمْ سَعِيراً توقدا ، أي : كلما سكن لهبها ، وأكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه ، زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومسعرة. ولعل ذلك عقوبة على إنكارهم البعث مرة بعد مرة ، ليروها عيانا ، حيث لم يعلموها برهانا ، كما يفصح عنه قوله : ذلِكَ أي : ذلك العذاب جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم كَفَرُوا بِآياتِنا العقلية والنقلية ، الدالة على وقوع الإعادة دلالة واضحة. وَقالُوا منكرين البعث أشد الإنكار : أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً أي : أنوجد خلقا جديدا بعد أن صرنا ترابا؟ و«خَلْقاً» : إما مصدر مؤكد من غير لفظه ، أي : لمبعوثون مبعثا جديدا ، أو حال ، أي : مخلوقين مستأنفين.

الإشارة : من يهده اللّه إلى صريح المعرفة وسر الخصوصية فهو المهتد إليها ، يهديه أولا إلى صحبة

أهلها ، فإذا تربى وتهذب أشرقت عليه أنوارها. ومن يضلله عنها ، فلا ينظر ولا يهتدى إلى صحبة أهلها ، فيحشر يوم القيامة محجوبا عن اللّه ، كما عاش محجوبا. يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، لا يبصر أسرار الذات فى مظاهر النعيم ، ولا ينطق بالمكالمة مع الرحمن الرحيم ، ولا يسمع مكالمة الحق مع المقربين وذلك بسبب إنكاره لأهل التربية فى زمانه ، وقال : لا يمكن أن يبعث اللّه من يحيى الأرواح الميتة بالجهل بالمعرفة الكاملة.

وفيه إنكار لعموم القدرة الأزلية ، وتحجير على الحق. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل عموم قدرته ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (١٠٠)

قلت : (وَ جَعَلَ)

: عطف على «قادِرٌ» لأنه فى قوة قدر ، أو استئناف. و(لَوْ أَنْتُمْ) : الضمير : فاعل بفعل يفسره ما بعده ، كقول حاتم :

لو ذات سوار لطمتنى «١».

وفائدة ذلك الحذف والتفسير للدلالة على الاختصاص والمبالغة. وقيل فى إعرابه غير هذا.

---

(١) مثل لحاتم الطائي ، انظر ديوانه (٢٦).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٣٧

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أو لم يتفكروا ولم يعلموا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ من غير مادة ، مع عظمها ، قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ فى الصّغر والحقارة. على أن المثل مقحم ، أي : على أن يخلقهم خلقا جديدا فإنهم ليسوا أشد خلقا منهم ، ولا الإعادة بأصعب من الإبداء ، وَجَعَلَ لَهُمْ أي : لموتهم وبعثهم أَجَلًا محققا لا رَيْبَ فِيهِ وهو : القيامة. فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً إلا جحودا ، وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه.

قُلْ لهم : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي خزائن رزقه وسائر نعمه التي أفاضها على كافة الموجودات ، إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ لبخلتم ، خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ مخافة النفاد بالإنفاق ، إذ ليس فى الدنيا أحد إلا وهو يختار

النفع لنفسه ، ولو آثر غيره بشيء فإنما يؤثره لغرض يفوقه ، فهو إذا بخيل بالإضافة إلى جود اللّه سبحانه ، إلا من تخلق بخلق الرحمن من الأنبياء وأكابر الصوفية. وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً مبالغا فى البخل لأن مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه ، وملاحظة العوض فيما يبذل. يعنى : أن طبع الإنسان ومنتهى نظره : أن الأشياء تتناهى وتفنى ، وهو لو ملك خزائن رحمة اللّه لأمسك خشية الفقر ، وكذلك يظن أن قدرة اللّه تقف دون البعث ، والأمر ليس كذلك ، بل قدرته لا تتناهى ، فهو يخترع من الخلق ما يشاء ، ويخترع من الأرزاق ما يريد ، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته. وبهذا النظر تتصل الآية بما قبلها. انظر ابن عطية.

قلت : ويمكن أن تتصل فى المعنى بقوله : (أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا) ، فكأنّ الحق تعالى يقول لهم : لو كانت بيدكم خزائن رحمته ، لخصصتم بالنبوة من تريدون ، لكن ليست بيدكم ، ولو كانت بيدكم تقديرا ، لأمسكتم خشية الإنفاق لأن طبع الإنسان البخل وخوف الفقر ، فهو كقوله تعالى : أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ «١» ، بعد قوله : وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الحق تعالى قادر على أن يخلق ألف عالم فى لحظة ، وأن يفنى ألف عالم فى لحظة ، فلا يعجزه شيء من الممكنات. وكما قدر أن يحيى الإنسان بعد موته الحسى هو قادر على أن يحييه بعد موته المعنوي بالجهل والغفلة ، على حسب ما سبق له فى المشيئة ، وجعل لذلك أجلا لا ريب فيه ، فلا يجحد هذا إلا من كان ظالما كفورا.

قل لمن يخصص الولاية بنفسه ، أو بأسلافه ، وينكر أن يفتح اللّه على قوم كانوا جهالا : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم الخصوصية عندكم خشية أن ينفد ما عندكم ، وكان الإنسان قتورا ، لا يحب الخير إلا لنفسه.

---

(١) الآية ٩ من سورة ص.

(٢) الآية ٤ من سورة ص.

ثم سلّى رسوله صلى اللّه عليه وسلم عما اقترحوا عليه من الآيات تشغيبا وعنادا ، بما جرى لموسى عليه السّلام مع قومه ، بعد ظهور الآيات ، فلم تنفعهم شيئا ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٠١ الى ١٠٤]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (١٠١) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤)

قلت : قال فى الأساس : ثبره اللّه : أهلكه هلاكا دائما ، لا ينتعش بعده ، ومن ثم يدعو أهل النار : وا ثبوراه. وما ثبرك عن حاجتك : ما ثبطك عنها. وهذا مثبر فلانة : لمكان ولادتها ، حيث يثبرها النفاس.

وفى القاموس : الثبر :

الحبس والمنع ، كالتثبير والصرف عن الأمر وعن الحبيب ، واللعن والطرد. والثبور : الهلاك والويل والإهلاك. هـ.

و(إِذا جاءَهُمْ) : إما متعلق بآياتنا ، أو بقلنا محذوف.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ واضحات الدلالة على نبوته ، وصحة ما جاء به من عند اللّه. وهى : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات. وقيل : انفجار الماء من الحجر ، ونتق الطور ، وانفلاق البحر ، بدل الثلاث. وفيه نظر فإن هذه الثلاث لم تكن لفرعون ، وإنما كانت بعد خروج سيدنا موسى عليه السّلام. وعن صفوان بن عسال : أن يهوديا سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عنها فقال : «ألّا تشركوا به شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النّفس التي حرّم اللّه إلّا بالحقّ ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الرّبا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تفروّا من الزّحف ، وعليكم ، خاصّة اليهود ، ألّا تعدوا فى السّبت». فقبّل اليهودي يده ورجله – عليه الصلاة والسلام «١».

قلت : ولعل الحق تعالى أظهر لهم تسعا ، وكلفهم بتسع ، شكرا لما أظهر لهم ، فأخبر – عليه الصلاة والسلام – السائل عما كلفهم به لأنه أهم ، وسكت عما أظهر لهم لأنه معلوم. وإنما قبّل السائل يده لموافقته لما فى التوراة ، وقد علم أنه ما علمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا بالوحى ، وقوله عليه الصلاة والسلام : «وعليكم ، خاصة اليهود ، ألا تعدوا» ، حكم مستأنف زائد على الجواب ، ولذلك غيّر فيه سياق الكلام.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الاستئذان ، باب ما جاء فى قبلة اليد والرجل) ، وقال : حسن صحيح. والنسائي فى (تحريم الدم ، باب السحر) ، والإمام أحمد (٤/ ٢٣٩) والحاكم وصححه فى (الإيمان ١/ ٩).

قال تعالى : فَسْئَلْ «١» بَنِي إِسْرائِيلَ أي : سل ، يا محمد ، بنى إسرائيل المعاصرين لك عما ذكرنا من قصة موسى لتزداد يقينا وطمأنينة ، أو : ليظهر صدقك لعامة الناس ، أو : قلنا لموسى : سل بنى إسرائيل من فرعون ، أي : اطلبهم منه ليرسلهم معك ، أو سل بنى إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك. ويؤيد هذا : قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «فسل» على صيغة الماضي ، بغير همز ، وهى لغة قريش. إِذْ جاءَهُمْ أي : آتينا موسى تسع آيات حين جاءهم بالرسالة ، أو قلنا له : سل بنى إسرائيل حين جاءهم بالوحى. فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ حين أظهر له ما آتيناه من الآيات ، وبلغة ما أرسل به : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً أي : سحرت فتخبط عقلك.

قالَ له موسى : لَقَدْ عَلِمْتَ يا فرعون ، ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ الآيات التي ظهرت على يدى إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خالقهما ومدبرهما ، ولا يقدر عليها غيره ، حال كونها بَصائِرَ بينات تبصرك صدقى ، ولكنك تعاند وتكابر ، وقد استيقنتها أنفسكم ، فجحدتم ظلما وعلوا ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً أي : مهلكا مقطوعا دابرك ، أو مغلوبا مقهورا ، أو مصروفا عن الخير. قابل موسى عليه السّلام قول فرعون : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً بقوله : وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً وشتان ما بين الظنين ظنّ فرعون إفك مبين ، وظن موسى حق اليقين لأنه بوحي من رب العالمين ، أو من تظاهر أماراته.

فَأَرادَ فرعون أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ أي : يستخفهم ويزعجهم مِنَ الْأَرْضِ أرض مصر ، فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً فعكسنا عليه علمه ومكره ، فاستفززناه وقومه من بلده بالإغراق. وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ من بعد إغراقه لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ التي أراد أن يستفزكم هو منها. أو أرض الشام. وهو الأظهر ، إذ لم يصح أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بالسكنى. وانظر عند قوله : وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ «٢» فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أي : الحياة الآخرة ، أو الدار الآخرة ، أي : قيام الآخرة ، جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً مختلطين إياكم وإياهم ، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم. واللفيف : الجماعات من قبائل شتى. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينفع فى أهل الحسد والعناد ظهور معجزة ولا آية ، ولا يتوقف عليها من سبقت له العناية ، لكنها تزيد تأييدا ، وطمأنينة لأهل اليقين ، وتزيد نفورا وعنادا ، لأهل الحسد من المعاندين. وباللّه التوفيق.

---

(١) قرأ ابن كثير والكسائي : «فسل» بنقل حركة الهمزة إلى السين. وقرأ الباقون : (فَسْئَلْ). انظر الإتحاف ٢/ ٢٠٦.

(٢) الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

ولما ذكر آية موسى عليه السّلام ذكر آية نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم وهو القرآن ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩)

قلت : تقديم المعمول ، وهو (بِالْحَقِّ) : يؤذن بالحصر. و(قُرْآناً) : مفعول بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله فى شأن القرآن : وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ أي : ما أنزلنا القرآن إلا ملتبسا بالحق ، المقتضى لإنزاله ، وما نزل إلا بالحق الذي اشتمل عليه من الأمر والنهى ، والمعنى : أنزلناه حقا مشتملا على الحق. أو : ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين. ولعل المراد : عدم اعتراء البطلان له أولا وآخرا. وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً للمطيعين بالثواب ، وَنَذِيراً للعاصين بالعقاب ، وهو تحقيق لحقية بعثه – عليه الصلاة والسلام – إثر تحقيق حقية إنزال القرآن.

وَقُرْآناً فَرَقْناهُ أي : أنزلناه مفرقا منجما فى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين. قال القشيري : فرق القرآن ليهون حفظه ، ويكثر تردد الرسول عليه من ربه ، وليكون نزوله فى كل وقت ، وفى كل حادثة وواقعة دليلا على أنه ليس مما أعانه عليه غيره. هـ. لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ على مهل وتؤدة وتثبت فإنه أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، والحوادث الواقعة.

قُلْ للذين كفروا : آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ، فإنّ إيمانكم لا يزيده كمالا ، وامتناعكم منه لا يزيده نقصانا. أو : أمر باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم ، كأنه يقول : سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا لأنكم لستم بحجة ، وإنما الحجة لأهل العلم ، وهم : المؤمنون من أهل الكتاب ، الذين أشار إليهم بقوله : إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ أي : العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل تنزيله ، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ القرآن يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ أي : يسقطون على وجوههم سُجَّداً تعظيما لأمر للّه ، أو شكرا لإنجازه ما وعد فى تلك الكتب من نعتك ، وإظهارك ، وإنزال القرآن عليك.

والأذقان : جمع ذقن ، وهو : أسفل الوجه حيث اللحية. وخصها بالذكر لأنها أول ما تلقى فى الأرض من وجه الساجد. والجملة : تعليل لما قبلها من قوله : آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا من عدم المبالاة. والمعنى : إن لم تؤمنوا

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤١

فقد آمن من هو أعلى منكم وأحسن إيمانا منكم. ويجوز أن يكون تعليلا لقل ، على سبيل التسلية للرسول – عليه الصلاة السلام ، كأنه يقول : تسلّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ، ولا تكثرت بإيمانهم وإعراضهم.

وَيَقُولُونَ فى سجودهم : سُبْحانَ رَبِّنا عن خلف وعده إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا أي : إن الأمر والشأن كان وعد ربنا مفعولا لا محالة ، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ كرره لاختلاف السبب ، فإن الأول : لتعظيم اللّه وشكر إنجاز وعده. والثاني : لما أثر فيهم من مواعظ القرآن ، يَبْكُونَ : حال ، أي : حال كونهم باكين من خشية اللّه ، وَيَزِيدُهُمْ القرآن خُشُوعاً ، كما يزيدهم علما باللّه تعالى.

الإشارة : وبالحق أنزلناه ، أي بالتعريف بأسرار الربوبية ، وبالحق نزل لتعليم آداب العبودية. أو : بالحق أنزلناه ، يعنى : علم الحقيقة ، وبالحق نزل علم الشريعة والطريقة. وما أرسلناك إلا مبشرا لأهل الإخلاص بالوصول والاختصاص ، ونذيرا لأهل الخوض بالطرد والبعد. وقرآنا فرقناه ، لتقرأه نيابة عنا ، كى يسمعوه منا بلا واسطة ، عند فناء الرسوم والأشكال ، ونزّلناه ، للتعريف بنا تنزيلا ، قل آمنوا به لتدخلوا حضرتنا ، أو لا تؤمنوا ، فإن أهل العلم بنا قائمون بحقه ، خاشعون عند تلاوته ، متنعمون بشهودنا عند سماعه منا. وباللّه التوفيق.

ولما كان القرآن مشتملا على أسماء كثيرة من أسماء اللّه الحسنى ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه :

«يا اللّه ، يا رحمن» ، قالوا : إنه ينهانا عن عبادة إلهين ، وهو يدعو إلها آخر. وقالت اليهود : إنك لتقل ذكر الرحمن ، وقد أكثر اللّه تعالى ذكره فى التوراة ، فأنزل اللّه ردا على الفريقين :

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى ...

قلت : «أي» : شرطية ، و(ما) : زائدة تأكيدا لما فى «أيا» من الإبهام ، وتقدير المضاف : أىّ الأسماء تدعو به فأنت مصيب.

يقول الحق جل جلاله : قُلِ يا محمد للمؤمنين : ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ نادوه بأيهما شئتم ، أو سموه بأيهما أردتم. والمراد : إما التسوية بين اللفظين فإنهما عبارتان عن ذات واحد ، وإن اختلف الاعتبار ، والتوحيد إنما هو للذات ، الذي هو المعبود بالحق ، وإما أنهما سيان فى حسن الإطلاق والوصول إلى المقصود ، فلذلك قال : أَيًّا ما تَدْعُوا أىّ اسم تدعوا به تصب ، فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فيكون الجواب محذوفا ، دلّ عليه الكلام. وقيل : التقدير أياما تدعو به فهو حسن ، فوضع موضعه : فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه إذ حسن جميع الأسماء يستدعى حسن

ذينك الاسمين ، وكونها حسنى لدلاتها على صفات الكمال من الجلال والجمال إذ كلها راجعة إلى حسن ذاتها ، وكمالها جمالا وجلالا.

(٢٤١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤٢

قال فى شرح المواقف : ورد فى الصحيحين : «إنّ للّه تسعة وتسعين اسما ، مائة إلّا واحدا ، من أحصاها دخل الجنّة» «١» ، وليس فيها تعيين تلك الأسماء. لكن الترمذي والبيهقي عيّناها. وهى الطريقة المشهورة ، ورواية الترمذي : «اللّه الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب ، المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوى المتين ، الولي الحميد ، المحصى المبدئ المعيد ، المحيي المميت ، الحي القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد ، الأحد الصمد ، القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالي المتعالي ، البر التواب ، المنتقم العفو الرؤوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، المقسط الجامع ، الغنى المغني المانع ، الضار النافع ، النور الهادي ، البديع الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور» «٢».

وقد ورد التوقيف بغيرها ، أمّا فى القرآن فكالمولى ، والنصير والغالب ، والقاهر والقريب ، والرب والأعلى ، والناصر والأكرم ، وأحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين ، وذى الطول ، وذى القوة ، وذى المعارج ، وغير ذلك. وأما فى الحديث ، فكالمنان ، والحنان ، وقد ورد فى رواية ابن ماجة «٣» أسماء ليست فى الرواية المشهورة كالقائم ، والقديم ، والوتر ، والشديد ، والكافي ، وغيرها.

وإحصاؤها : إما حفظها لأنه إنما يحصل بتكرار مجموعها وتعدادها مرارا ، وإما ضبطها حصرا وعلما وإيمانا وقياما بحقوقها ، وإما تعلقا وتخلقا وتحققا. وقد ذكرنا فى شرح الفاتحة الكبير كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها.

وفى ابن حجر : أن اسماء اللّه مائة ، استأثر اللّه بواحد ، وهو الاسم الأعظم ، فلم يطلع عليه أحدا ، فكأنه قيل : مائة لكن واحد منها عند اللّه. وقال غيره : ليس الاسم الذي يكمل المائة مخفيا ، بل هو الجلالة. وممن جزم بذلك البيهقي ، فقال : الأسماء الحسنى مائة ، على عدد درجات الجنة ، والذي يكمل المائة : «اللّه» ، ويؤيده قوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى «٤». فالتسعة والتسعون للّه فهى

زائدة عليه وبه تكمل المائة. هـ.

---

(١) أخرجه البخاري (الدعوات ، باب للّه مائة اسم غير واحد) ، ومسلم فى (الذكر ، باب فى أسماء اللّه تعالى ...) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الدعوات ، باب ٨٣). وأخرج البيهقي روايته فى (السنن الكبرى ، كتاب الإيمان ، باب أسماء الله عز وجل ثناؤه) من حديث أبى هريرة. [.....]

(٣) أخرجها فى (الدعاء ، باب أسماء الله عز وجل).

(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

(٢٤٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤٣

قلت : ولعله ذكر اسما آخر يكمل التسعة والتسعين. وإلا فهو مذكور فى الرواية المتقدمة من التسعة والتسعين.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ) ، قال الورتجبي : إن اللّه سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين ، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات ، والنعوت والأفعال فاللّه اسمه ، وهو اسم عين جمع الجمع ، والرحمن اسم عين الجمع فالرحمن مندرج تحت اسمه : «اللّه» لأنه عين الكل ، وإذا قلت : اللّه ذكرت عين الكل. ثم قال : وإذا قال «اللّه» يفنى الكل ، وإذا قال : «الرحمن» يبقى الكل ، من حيث الاتصاف والاتحاد ، فالاتصاف بالرحمانية يكون ، والاتحاد بالألوهية يكون. ثم قال : عن الأستاذ : من عظيم نعمه سبحانه على أوليائه : أنه ينزههم بأسرارهم فى رياض ذكره بتعداد أسمائه الحسنى ، فيتنقلون من روضة إلى روضة ، ومن مأنس إلى مأنس ، ويقال : الأغنياء تنزههم فى بساتينهم ، وتنزههم فى منابت رياحينهم. والفقراء تنزههم فى مشاهد تسبيحهم ، ويستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله. هـ. قلت : والعارفون تنزههم فى مشاهدة أسرار محبوبهم ، وما يكشف لهم من روض جماله وجلاله. وباللّه التوفيق.

ثم أمره بإخفاء قراءته عن المشركين لئلا يسبوا القرآن ومن جاء به ، فقال :

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَجْهَرْ بقراءة صلاتك ، بحيث تسمع المشركين ، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها ، وَلا تُخافِتْ أي : تسر بِها حتى لا تسمع من خلفك من المؤمنين ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا واطلب بين المخافتة والإجهار طريقا قصدا ، فإنّ خير الأمور أوسطها. والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه طريق يتوجه إليه المتوجهون ، ويؤمه المقتدون ليوصلهم إلى المطلوب. روى أن أبا بكر رضي اللّه عنه كان يخفت ، ويقول : أناجي ربّي ، وقد علم حاجتي. وعمر رضي اللّه عنه كان يجهر ، ويقول : أطرد الشّيطان وأوقظ الوسنان. فلما نزلت ، أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبا بكر أن يجهر قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا «١».

وقيل : المعنى : وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ كلها ، وَلا تُخافِتْ بِها بأسرها ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا. وقيل : (بِصَلاتِكَ) بدعائك. وذهب قوم إلى أنها منسوخة لزوال علة السب واللغو

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (التطوع ، باب فى رفع الصوت بالقراءة فى صلاة الليل) ، والترمذي فى (المواقيت ، باب ما جاء فى قراءة الليل) عن أبى قتادة.

بإظهار الدين وإخفاء الشرك وبطلانه فالحمد للّه على ذلك كما قال تعالى : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مدلج حيث قالوا : عزيز ابن اللّه ، والمسيح ابن اللّه ، والملائكة بنات اللّه. تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ فى الألوهية كما تقول الثنوية القائلون بتعدد الآلهة.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ أي : لم يكن له ناصر ينصره (مِنَ الذُّلِّ) أي : لم يذل فيحتاج إلى ولي يواليه ليدفع ذلك عنه. وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته ، دون غيره إذ بذلك يتم الكمال ، وما عداه ناقص حقير ، ولذلك عطف عليه : وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً عظيما ، وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد ، واجتهد فى العبادة والتحميد ، ينبغى أن يعترف بالقصور عن حقه فى ذلك. روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علّمه هذه الآية : (وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ...) إلخ «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الإجهار بالذكر والقراءة والدعاء ، مباح لأهل البدايات ، لمن وجد قلبه فى ذلك ، وأما النهى الذي فى الآية فمنسوخ لأن الصحابة ، حين هاجروا من مكة ، رفعوا أصواتهم بالقراءة والتكبير. لكن

المداومة عليه من شأن أهل البعد عن الحضرة ، وأما أهل القرب فالغالب عليهم السكوت أو المخافتة قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً «٢». وأما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى بكر رضي اللّه عنه بالإجهار قليلا ، وعمر بالخفض قليلا فإخراج لهم عن مرادهم تربية لهم. وختم السورة بآية العز إشارة إلى أن من أسرى بروحه ، أو بجسده إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة فى الدارين.

---

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يلقن الصبى إذا أفصح بالكلام) ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة طه.

سورة الكهف

مكية. وهى مائة وإحدى عشرة آية ، أو خمس عشرة. ووجه المناسبة لما قبلها : أنه لمّا أمر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بالحمد للّه على كمال تنزيهه ، أخبر أنه يستحق ذلك لإنعامه بأجلّ النعم ، وهو إنزال الكتاب العزيز ، الذي هو سبب الهداية الموصلة إلى النعيم المقيم. أو تكون تتميما لقوله : وَقُرْآناً فَرَقْناهُ ... «١» إلخ.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (٤)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥)

قلت : (قَيِّماً) : حال من الكتاب ، والعامل فيه : «أَنْزَلَ» ، ومنعه الزمخشري للفصل بين الحال وذى الحال ، واختار أن العامل فيه مضمر ، تقديره : جعله قيّما ، و«لِيُنْذِرَ» : يتعلق بأنزل ، أو بقيّما. والفاعل : ضمير الكتاب ، أو النبي صلى اللّه عليه وسلم ، و«بَأْساً» : مفعول ثان ، وحذف الأول ، أي : لينذر الناس بأسا ، كما حذف الثاني من قوله : (وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا ...) إلخ لدلالة هذا عليه ، و(مِنْ عِلْمٍ) : مبتدأ مجرور بحرف زائد ، أو فاعل بالمجرور لاعتماده على النفي ، و«كَلِمَةً» : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ أي : الثناء الجميل حاصل للّه ، والمراد : الإعلام بذلك للإيمان به ، أو الثناء على نفسه ، أو هما معا. ثم ذكر وجه استحقاقه له ، فقال : الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ أي : الكتاب الكامل المعروف بذلك من بين سائر الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب ، وهو جميع القرآن. رتّب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيها على أنه أعظم نعمائه ، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد.

وفى التعبير عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم بالعبد ، مضافا إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه صلى اللّه عليه وسلم إلى معاريج العبادة وكمال العبودية أقصى غاية الكمال ، حيث كان فانيا عن حظوظه ، قائما بحقوقه ، خالصا فى عبوديته لربه.

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٤٦

وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ أي : للكتاب عِوَجاً شيئا من العوج ، باختلاف فى اللفظ ، وتناقض فى المعنى ، وانحراف فى الدعوة. قال القشيري : صانه عن التناقض والتعارض ، فهو كتاب عزيز من ربّ عزيز ، ينزل على عبد عزيز.

قَيِّماً : مستقيما متناهيا فى الاستقامة ، معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط ، فهو تأكيد لما دل عليه نفى العوج ، مع إفادته كون ذلك من صفاته الذاتية ، حسبما تنبئ عنه الصيغة. أو قيّما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد ، على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير ، فيكون وصفا له بالتكميل ، بعد وصفه بالكمال ، أو : قيّما على ما قبله من الكتب السماوية ، وشاهدا بصحتها ومهيمنا عليها. لِيُنْذِرَ : ليخوّف اللّه تعالى به ، أو الكتاب ، والأول أولى لتناسب المعطوفين بعده ، أي : أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا بَأْساً : عذابا شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ أي :

صادرا من عنده ، نازلا من قبله ، فى مقابلة كفرهم وتكذيبهم.

وَيُبَشِّرَ- بالتشديد والتخفيف ، الْمُؤْمِنِينَ : المصدقين به ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ أي : العمال الصَّالِحاتِ التي تنبتّ فى تضاعيفه أَنَّ لَهُمْ أي : بأن لهم فى مقابلة إيمانهم وأعمالهم أَجْراً حَسَناً ، هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى ، ماكِثِينَ فِيهِ أي : فى ذلك الأجر أَبَداً على سبيل الخلود. والتعبير بالمضارع فى الصلة- أعنى : الذين يعملون- للإشعار بتجدد الأعمال الصالحات واستمرارها ، وإجراء الموصول على الموصوف بالإيمان إيماء بأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه ، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية. وتكرير الإنذار بقوله تعالى : وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً : متعلق بفرقة خاصة ، ممن عمّه الإنذار السابق ، من مستحقى البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم ، لغاية شناعة كفرهم وضلالهم ، أي :

وينذر ، من بين سائر الكفرة ، هؤلاء المتفوهين بمثل هذه القولة العظيمة ، وهم كفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات اللّه ، واليهود القائلون : عزير ابن اللّه ، والنصارى القائلون : المسيح ابن اللّه.

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أي : ما لهم باتخاذه الولد شيء من علم أصلا لضلالهم وإضلالهم ، وَلا لِآبائِهِمْ الذين قلدوهم ، فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة ، أو : ما لهم علم بما قالوا ، أصواب أم خطأ ، بل إنما قالوه رميا بقول عن عمى وجهالة ، من غير فكر ولا روية ، كقوله تعالى : خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ «١». أو : ما لهم علم بحقيقة ما قالوا ، وبعظم رتبته فى الشناعة ، كقوله تعالى : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ، تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ «٢» ، وهو الأنسب لقوله كَبُرَتْ كَلِمَةً أي : عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه لما فيه من التشبيه والتشريك ، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه. فما أقبحها مقالة تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ أي : يتفوهون

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام.

(٢) الآيات : ٨٨- ٩٠ من سورة مريم.

بها من غير حقيقة ولا تحقيق لمعناها ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً : ما يقولون فى ذلك إلا قولا كذبا ، لا يكاد يدخل فيه إمكان الصدق أصلا.

الإشارة : من كملت عبوديته للّه ، وصار حرا مما سواه ، بحيث تحرر من رق الأكوان ، وأفضى إلى مقام الشهود والعيان ، أنزل اللّه على قلبه علم التحقيق ، وسلك به منهاج أهل التوفيق ، منهاجا قيما ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، محفوظا فى باطنه من الزيغ والإلحاد ، وفى ظاهره من الفساد والعناد ، قد تولى اللّه أمره وأخذه عنه ، فهو على بينة من ربه فيما يأخذ ويذر. فإن أذن له فى التذكير وقع فى مسامع الخلق عبارته ، وجليت إليهم إشارته ، فبشّر وأنذر ، ورغّب وحذّر ، يبشر أهل التوحيد والتنزيه بنعيم الجنان ، وبالنظر إلى وجه الرحمن ، وينذر أهل الشرك بعذاب النيران ، وبالذل والهوان ، نعوذ

باللّه من موارد الفتن.

ولمّا كانت قريش تتفوه بشيء من هذه الكلمات ، التي شنّع اللّه على من تفوه بها ، وكان عليه الصلاة والسلام يتأسف من ذلك ، خفف عنه ذلك ، وأمره بالتسلى عنهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦ الى ٨]

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (٨)

قلت : (أسفا) : مفعول من أجله لباخع ، أو حال ، أي : متأسفا ، وجواب «إن» : محذوف ، أي : إن لم يؤمنوا فلعلك باخع نفسك.

يقول الحق جل جلاله : فَلَعَلَّكَ يا محمد باخِعٌ : مهلك نَفْسَكَ وقاتلها بالغم والأسف على تخلف قومك عن الإيمان وفراقهم عنك ، عَلى آثارِهِمْ إذا تولوا عنك ، عند ما تدعوهم إلى اللّه. شبهه ، لأجل ما تداخله من الوجد على توليتهم ، بمن فارقته أعزته ، وهو يتحسر على آثارهم ، ويبخع نفسه وجدا عليهم. إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أي : القرآن الذي عبّر عنه فى صدر السورة بالكتاب ، صدر ذلك منك أَسَفاً أي :

بفرط الحزن والتأسف عليهم.

ثم علل وجه إدبارهم عن الإيمان ، وهو اغترارهم بزهرة الدنيا ، فقال : إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ من الأشجار والأزهار والثمار ، وما اشتملت عليه من المعادن ، وأنواع الملابس والمطاعم ، والمراكب والمناكح ، زِينَةً لَها أي : مبهجة لها ، يستمتع بها الناظرون ، وينتفعون بها مأكلا وملبسا ، ونظرا واعتبارا ، حتى إن الحيّات والعقارب من حيث تذكيرها بعذاب الآخرة ، من قبيل المنافع ، بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على الصانع ، وكذلك الأزواج والأولاد ، بل هم من أعظم زينتها ، داخلون تحت الابتلاء. جعلنا ذلك لِنَبْلُوَهُمْ :

لنختبرهم ، حتى يظهر ذلك للعيان ، أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، أيهم أزهد فيها ، وأقبلهم على اللّه بالعمل الصالح إذ لا عمل أحسن من الزهد فى الدنيا إذ هو سبب للتفرغ لأنواع العبادة ، بدنية وقلبية.

قال أبو السعود : وحسن العمل : الزهد فيها ، وعدم الاكتراث بها ، والقناعة باليسير منها ، وصرفها على ما ينبغى ، والتأمل فى شأنها ، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها ، والتمتع بها حسبما أذن الشرع ، وأداء حقوقها ، والشكر على نعمها ، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات ، والأغراض الفاسدة ، كما يفعله

الكفرة وأهل الأهواء .. انظر بقية كلامه.

وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها عند تناهى الدنيا ، صَعِيداً جُرُزاً أي : ترابا يابسا ، لا نبات فيه ، بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار ، ويتشرف بمشاهدته الأبصار ، فلا يغتر بما يذهب ويفنى إلا من لا عقل له ، فلا تستغرب إدبارهم ، إذ لا عقل لهم.

ويحتمل أن يكون تسلية للنبى صلى اللّه عليه وسلم من حيث إنه أرشده إلى شهود تدبير الحق ، فيسلو ، بذلك ، عن إعراضهم لغيبته فى المصور المدبر عن الصور ، وعن الزينة فى المزيّن ، فالكون مظهر الصفات ومرآتها ، ويغيب فى الذات- التي هى معدنها- بإفناء الظاهر ، وإفناء الأفعال ، كما نبّه عليه بقوله : وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ... إلخ.

الإشارة : الخصوصية- من حيث هى- لها بداية ونهاية ، فمن شأن أهل بدايتها : الحرص على الخير لهم ولعباد اللّه ، فيتمنون أن الناس كلهم خصوص أو صالحون ، فإذا رأوا الناس أعرضوا عنها تأسفوا عليهم ، وإذا أقبلوا عليهم فرحوا من أجلهم ، زيادة فى الهداية لعباد اللّه ، فإذا تمكنوا منها ورسخت أقدامهم فيها ، وحصل لهم الفناء الأكبر ، لم يحرصوا على شىء ، ولم يتأسفوا من فوات شىء ، لهم ولغيرهم. وقد يتوجه العتاب لهم على الحرص فى بدايتهم تكميلا لهم ، وترقية إلى المقام الأكمل.

وقوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ ... إلخ ، هو حكمة تخلف الناس عن الخصوصية ، حتى يتميز الطالب لها من المعرض عنها ، فمن أقبل على زينة الدنيا وزهرتها ، فاتته الخصوصية ، وبقي من عوام الناس ، ومن أعرض عنها وعن بهجتها ، وتوجه بقلبه إلى اللّه ، كان من المخصوصين بها ، المقربين عند اللّه.

وهذا هو أحسن الأعمال التي اختبر اللّه به عباده بقوله : لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وفى الحديث : «الدنيا مال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له. وعليها يعادى من لا علم عنده» «١». وفى الزهد والترغيب أحاديث كثيرة مفردة بالتأليف ، وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٧١) ، والبيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الزهد/ ١٠٦٣٧) عن السيدة عائشة.

رضى الله عنها ، بدون العبارة الأخيرة.

ثم شرع فى قصة أهل الكهف المقصودة بالذات ، فقال

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٩ الى ١٢]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (١٠) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (١٢)

قلت : (أَمْ) : منقطعة مقدرة ببل ، التي هى للانتقال من حديث إلى حديث ، لا للإبطال ، والهمزة : للاستفهام عند الجمهور ، وبمعنى «بل» ، فقط ، عند غيرهم ، و(عَجَباً) : خبر كان ، و(مِنْ آياتِنا) : حال منه ، و(إِذْ أَوَى) : ظرف لعجبا ، لا لحسبت ، أو مفعول اذكر ، أي : اذكر هذا الوقت العجيب ، وهو حين التجأ الفتية إلى الكهف ، و(لَنا) و(مِنْ أَمْرِنا) : يتعلق ب (هَيِّئْ) ، و(أَيُّ الْحِزْبَيْنِ) : معلق لنعلم عن المفعولين لما فيه من معنى الاستفهام ، وهو مبتدأ ، و«أَحْصى » : خبره ، وهو فعل ماض ، و(أَمَداً) : مفعوله.

و(لِما لَبِثُوا) : حال منه ، أو مفعول «أَحْصى » ، واللام زائدة ، و(لِما) : موصولة ، و(أَمَداً) : تمييز ، وقيل : (أَحْصى) :

اسم تفضيل ، من الإحصاء بحذف الزوائد ، و(أَمَداً) : منصوب بفعل دل عليه أحصى ، أي : يحصى كقوله :

وأضرب منّا بالسّيوف القوانسا

«١» لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به ، إجماعا ، ويجوز أن يكون تمييزا بعد اسم التفضيل.

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبْتَ أي : ظننت يا محمد ، والمراد : حسبان أمته أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ ، وهو الغار الواسع فى الجبل. واختلف فى موضعه فقيل : بقرب فلسطين ، وقيل : بالأندلس بمقربة من لوشة فى جهة غرناطة. وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم ، وفيه موتى ، ومعهم كلبهم ، وعليهم مسجد ، وقريب منه بناء يقال له الرّقيم ، قد بقي موضع جدرانه ، وفى تلك الجهة آثار يقال لها : مدينة «دقيوس» ، واللّه أعلم. وقال ابن جزى : ومما يبعد ذلك ما روى أن معاوية مرّ عليهم ، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل ، هيبة ، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط ، وأيضا : فإن الموتى فى لوشة يراهم الناس ، ولا يدرك أحد الرعب الذي ذكر اللّه فى أهل الكهف. هـ.

---

(١) هذا عجز : صدره :

أكرّ وأحمى للحقيقة منهم

... وهو للعباس بن مرداس ... وقوله : القوانسا : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الرأس.

انظر : اللسان (قنس ٥/ ٣٧٥١) ، والمغني لابن هشام (٢/ ٧٠٩).

والمشهور : أن الرقيم هو اللوح المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم ، وكان جعل ذلك الكتاب فى خزانة الملك ، وهو لوح من رصاص أو حجر ، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومهم فقدهم. وقيل : اسم كلبهم.

أي : أظننت أنهم كانُوا فى قصتهم مِنْ بين آياتِنا عَجَباً أي : كانوا عجبا دون باقى آياتنا ، ليس الأمر كذلك. والمعنى : أن قصتهم ، وإن كانت خارقة للعادة ، ليست بعجيبة ، بالنسبة إلى سائر الآيات التي من تعاجيبها ما ذكر من خلق اللّه تعالى على الأرض ، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة ، بل هى عندها كالنزر الحقير. وقال القشيري : أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم ، بما أضاف إلى نفسه بقوله : (مِنْ آياتِنا) ، وقلب العادة من قبل اللّه غير مستنكر ولا مبتدع. هـ.

ثم ذكر أول قصتهم ، فقال : إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ : جمع فتى ، وهو الشاب الكامل ، أي : اذكر حين التجأ الفتية إلى الكهف ، هاربين بدينهم ، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم ، ورأسهم «دقيانوس» ، على ما يأتى فى قصتهم.

فَقالُوا حين دخلوا الغار : رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات ، رَحْمَةً خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء ، وَهَيِّئْ : أصلح لَنا مِنْ أَمْرِنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم ، رَشَداً : هداية نصير بها راشدين مهتدين ، أو : اجعل أمرنا كله رشدا وصوابا ، كقولك : لقيت منك أسدا ، فتكون من باب التجريد ، أو : إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب ، وأصل التهيئة : إحداث هيئة الشيء.

فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ أي : أنمناهم ، شبّه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر ، إذ هى الطريقة للتيقظ غالبا. والفاء فى (فَضَرَبْنا) : مثلها فى قوله : فَاسْتَجَبْنا لَهُ «١» ، بعد قوله : إِذْ نادى ، فإنّ الضرب المذكور ، وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال ، والبعث ، وغير ذلك ، إيتاء رحمة لدنّيّة خفية عن أبصار المستمسكين بالأسباب العادية استجابة لدعوتهم ، أي : فاستجبنا لهم وأنمناهم ، فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً أي : ذوات عدد ، أو تعدّ عددا ، أو معدودة ، ووصف السنين بذلك : إمّا للتكثير ، وهو الأنسب بكمال القدرة ، أو التقليل ، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجبا من سائر الآيات العجيبة فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥١

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ، لِنَعْلَمَ علم مشاهدة ، أي : ليتعلق علمنا تعلقا حاليا كتعلّقه أولا تعلقا استقباليا ، أَيُّ الْحِزْبَيْنِ : الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم المذكور فى قوله : قالُوا لَبِثْنا يَوْماً ... إلخ ، أَحْصى أي : أضبط لِما لَبِثُوا : للبثهم ، أَمَداً أي : غاية ، فيظهر بذلك عجزهم ، ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا حالهم وما صنع اللّه بهم ، من حفظ أبدانهم وأديانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ، وليتيقنوا به أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا بمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارهم ، وعبرة لمن يأتى بعدهم ، فهذه حكم إيقاظهم بعد نومهم ، واللّه عليم حكيم.

الإشارة : عادته تعالى فيمن انقطع إليه بكليته ، وآوى إلى كهف رعايته ، وأيس من رفق مخلوقاته ، أن يكلأه بعين عنايته ، ويرعاه بحفظ رعايته ، ويغيّب سمع قلبه عن صوت الأكدار ، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار ، حين انحاشوا إلى حمى رحمته المانع ، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع. وباللّه التوفيق.

ثم تمّم قصتهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٣ الى ١٦]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً (١٣) وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (١٤) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (١٦)

قلت : (بِالْحَقِّ) : إما صفة لمصدر محذوف ، أو حال من ضمير «نَقُصُّ» ، أو من «نَبَأَهُمْ» ، أو صفة له ، على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته ، أي : نقصّ قصصا ملتبسا بالحق ، أو نقصه متلبسين بالحق ، أو نقص نبأهم ملتبسا بالحق ، أو نبأهم الذي هو ملتبس بالحق. وإِذْ قامُوا : ظرف لربطنا ، وشَطَطاً : صفة لمحذوف ، أي :

قولا شططا ، أي : ذا شطط ، وصف به للمبالغة. و(هؤُلاءِ) : مبتدأ ، وفى اسم الإشارة : تحقير لهم ، و(قَوْمُنَا) : عطف بيان له. و(اتَّخَذُوا) : خبر ، و(ما يَعْبُدُونَ) : موصول ، عطف على الضمير المنصوب ، أو مصدرية ، أي : وإذ

اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا اللّه ، أو عبادتهم إلا عبادة اللّه ، وعلى التقديرين : فالاستثناء متصل على تقدير أنهم كانوا مشركين يعبدون اللّه والأصنام. ومنقطع على تقدير تمحضهم بعبادة الأوثان ، ويجوز أن تكون (ما) نافية على أنه إخبار من اللّه – تعالى – عن الفتية بالتوحيد ، معترض بين «إِذِ» وجوابه العامل فيها.

يقول الحق جل جلاله : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ ، والنبأ : الخبر الذي له شأن وخطر ، قصصا ملتبسا بِالْحَقِّ : بالصدق الذي لا يطرقه كذب ولا ريبة.

وخبرهم ، حسبما ذكر محمد بن إسحاق : أنه قد مرج أهل الإنجيل ، وظهرت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وكان من بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا : «دقيانوس» فإنه غلا فيه غلوا كبيرا ، فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد ، وقتل من خالفه ممن تمسك بدين المسيح ، وكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية : تبعه وصنع ما يصنع ، ومن آثر عليها الحياة الأبدية : قتله وقطع آرابه «١» ، وعلّقها بسور المدينة وأبوابها. فلما رأى الفتية ذلك ، وكانوا عظماء مدينتهم ، وكانوا بنى الملوك ، قاموا فتضرعوا إلى اللّه تعالى ، واشتغلوا بالصلاة والدعاء ، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار ، فأحضروهم بين يديه ، فقال لهم ما قال ، فخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلها ملأ السماوات والأرض عظمة وجبروتا ، لن ندعو من دونه أحدا ، ولن نقر بما تدعونا إليه أبدا ، فاقض ما أنت قاض ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة ، وأخرجهم من عنده. زاد فى رواية : وضمنهم أهلهم ، وخرج إلى مدينة (نينوى) لبعض شأنه ، وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم ، وإلّا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأجمعت الفتية على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كلّ منهم من بيت أبيه شيئا ، فتصدقوا ببعضه ، وتزودوا بالباقي ، فأووا إلى الكهف. وفى رواية : أنهم مروا بكلب فتبعهم ، على ما يأتى فى شأنه ، فجعلوا يصلّون فى ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار ، ويبتهلون إلى اللّه – سبحانه – بالأنين والجؤار ، ففوضوا أمر نفقتهم إلى «يمليخا» ، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ، ويلبس ثياب المساكين ، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم ، ويتحسس ما فيها من الأخبار ، ويعود إلى أصحابه ، فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم ، وأحضر آباءهم ، فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم ، وبذروها فى الأسواق ، وفروا إلى الجبل.

فلما رأى «يمليخا» ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى ، ومعه قليل من الزاد ، فأخبرهم بما شهد من الهول ، ففزعوا إلى اللّه – عز وجل – وخروا له سجدا ، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم ، فبينما هم كذلك

(١) أي أعضاءه. واحده : إرب .. انظر اللسان (أرب ١/ ٥٥).

(٢٥٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٣

إذ ضرب اللّه على آذانهم فناموا ، ونفقتهم عند رؤوسهم. فخرج «دقيانوس» فى طلبهم بخيله ورجله ، فوجدهم قد دخلوا الكهف ، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد منهم أن يدخله ، فلما ضاق بهم ذرعا ، قال قائل منهم : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم؟ قال : بلى. قال : فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا ، ففعل فكان شأنهم ما قص اللّه تعالى ، إذ قال :

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ، استئناف بيانى ، كأن سائلا سأل عن حالهم ، فقال : إنهم فتية شبان كاملون فى الفتوة آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التي اقتضت تربيتهم وحفظهم ، وَزِدْناهُمْ هُدىً بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه ، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما آثروا به الفناء على البقاء. وفيه التفات إلى التكلم لزيادة الاعتناء بشأنهم ، وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أي : قويناهم ، حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان ، والنعيم والإخوان ، واجترءوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر ، والرد على دقيانوس الجبار إِذْ قامُوا أي : انتصبوا لإظهار شعار الدين ، قال مجاهد : خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد. فقال أكبرهم : إنى لأجد فى نفسى شيئا ، إن ربى هو رب السموات والأرض ، فقالوا : نحن أيضا كذلك ، فقاموا جميعا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وعزموا على التصميم بذلك. وقيل : قاموا بين يدى الجبار من غير مبالاة به ، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ، فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى : (هؤُلاءِ ...) إلخ : منقطعا صادرا عنهم ، بعد خروجهم من عنده.

ثم قالوا : لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، ولم يقولوا : ربا للتصميم على الرد على المخالفين ، حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة ، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية. لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً : قولا ذا شطط ، وهو الجور والتعدي ، أي : لقد جرنا وأفرطنا فى الكفر ، وقلنا قولا خارجا عن حد المعقول ، إن دعونا إلها غير اللّه جزما.

هؤُلاءِ قَوْمُنَا قد اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، فيه معنى الإنكار ، لَوْ لا : هلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ : على ألوهيتهم بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ : بحجة ظاهرة ، فَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بنسبة الشريك إليه فإنه أظلم من كل ظالم.

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ أي : فارقتموهم وَفارقتم ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ : فالتجئوا إليه ، والمعنى : وإذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا ، يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ : يبسط لكم ويوسع

عليكم مِنْ رَحْمَتِهِ فى الدارين ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ، مِرفَقاً : ما ترتفقون به ، أي : تنتفعون ، وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم ، وقوة وثوقهم بفضل اللّه. واللّه تعالى أعلم.

(٢٥٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٤

الإشارة : قد وصف اللّه – تعالى – أهل الكهف بخمسة أوصاف هى من شعار الصوفية الإيمان ، الذي هو الأساس ، وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول الى صريح العرفان ، وربط القلب فى حضرة الرب ، والقيام فى إظهار الحق أو لداعى الوجد ، والصدع بالحق من غير مبالاة بأحد من الخلق.

وقال الورتجبي فى قوله تعالى : وَزِدْناهُمْ هُدىً : أي : زدناهم نورا من جمالى ، فاهتدوا به طرق معارف ذاتى وصفاتى ، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد لأن نورى لا نهاية له. وقال عند قوله : إِذْ قامُوا : قد استدل بهذه الآية بعض المشايخ على حركة الواجدين فى وقت السماع والذكر لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حرّكها أنواع الأذكار وما يرد عليها من فنون السماع. والأصل قوله : وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا ، نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياما بالصورة ، أي : الحسية فى القيام الحسى ، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية ، والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين ، فالاستدلال بها فى السكون فى الوجد أحسن ، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة. هـ.

قلت : الحاصل : أنا إذا حملنا القيام على الحسى ففيه دليل لأهل البداية على القيام فى الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المعنوي ، وهو النهوض فى الشيء ، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك ، وكأنه يشير إلى قضية الجنيد فى بدايته ونهايته. واللّه تعالى أعلم.

وقال ابن لب : قد اشتهر الخلاف بين العلماء فى القيام لذكر اللّه – تعالى – وقد أباحته الصوفية ، وفعلته ودامت عليه ، واستفادوه من كتاب اللّه تعالى من قوله – عز وجل – فى أصحاب الكهف : إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وإن كانت الآية لها محامل أخر سوى هذا. هـ. قلت : وقوله تعالى : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً «١» : صريح فى الجواز.

وقال فى القوت : وقد روينا أنه صلى اللّه عليه وسلم مرّ برجل يظهر التأوه والوجد ، فقال من كان معه : أتراه يا رسول اللّه مرائيا؟ فقال : «لا ، بل أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» «٢» ، وقال لآخر : أظهر صوته بالآية : «أسمع اللّه عز وجل ولا تسمّع» ، فأنكر عليه بما شهد فيه ، ولم ينكر على أبى موسى قوله : (لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرا) لأنه ذو نية فى الخير وحسن قصد به ، ولذا كل من كان له حسن

قصد ، ونية خير ، فى إظهار عمل ، فليس من السمعة والرياء فى شىء لتجرده من الآفة الدنيوية ، وهى الطمع والمدح. هـ.

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٤/ ١٥٩) ، والطبراني فى الكبير (١٧/ ٢٩٥) ، عن عقبة بن عامر ، وحسّنه الهيثمي فى المجمع (٩/ ٣٧٢). [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٥

ثم ذكر حالهم فى الكهف ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨)

قلت : (تزاور) أصله : تتزاور ، فأدغمت التاء فى الزاى. وقرأ الكوفيون بحذفها ، وابن عامر ويعقوب : «تزوّر» كتمرد ، كلها من الزّور بمعنى الميل. و(ذات اليمين) : ظرف بمعنى الجهة. وجملة : (و هم فى فجوة) : حال ، و(ذراعيه) : مفعول «باسط» لأنه حكاية حال ، أي : يبسط ، و(فرارا) : مصدر لأنه عبارة عن معنى التولية ، أو حال ، أي : لوليت فارا ، ورُعْباً : مفعول ثان لملئت ، أو تمييز.

يقول الحق جل جلاله ، فى بيان حالهم بعد ما أووا الى الكهف : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ أي : تنتحى وتميل عَنْ كَهْفِهِمْ الذي أووا إليه ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقا ، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ذاتَ الْيَمِينِ أي : جهة ذات يمين الكهف ، عند الداخل إلى قعره ، وَإِذا غَرَبَتْ أي : وتراها إذا غربت تَقْرِضُهُمْ أي : تقطعهم وتتعدى عنهم ذاتَ الشِّمالِ أي : جهته وجانبه الذي يلى المشرق. وكان ذلك بتصريف اللّه تعالى على منهاج خرق العادة كرامة لهم. وقيل : كان باب الكهف شماليا يستقبل بنات نعش «١» ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ : فى موضع واسع منه ، وذلك موقع لإصابة الشمس ، ومع ذلك ينحيها اللّه عنهم.

ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ أي : ما صنع اللّه بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها ، من آيات اللّه

العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته ، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه. قال بعضهم : هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف ، قلت : كان قبل السد وبعد هدم السد لأنه هدم بعد ، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدوما. وظاهر الآية يرجح من قال : إنه من باب خرق العادة.

---

(١) بنات نعش : سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي .. انظر المعجم الوسيط (نعش).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٦

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ الذي أصاب الفلاح. والمراد : إما الثناء عليهم ، والشهادة بإصابة المطلوب ، والإخبار بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق ، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ، ولكن المنتفع بها هو من وفقه اللّه وهداه للاستبصار بها ، وَمَنْ يُضْلِلْ أي : يخلق فيه الضلال بصرف اختياره إليه ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ ، ولو بالغت فى التتبع والاستقصاء ، وَلِيًّا : ناصرا مُرْشِداً ، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح.

والجملة معترضة بين أجزاء القصة.

ثم قال : وَتَحْسَبُهُمْ بالفتح والكسر ، أي : تظنهم أَيْقاظاً ، لانفتاح أعينهم ، أو لكثرة تقلبهم ، وهو جمع «يقظ» بضم القاف وكسرها ، وَهُمْ رُقُودٌ أي : نيام ، وَنُقَلِّبُهُمْ فى رقودهم ذاتَ الْيَمِينِ أي : جهة تلى أيمانهم ، وَذاتَ الشِّمالِ أي : جهة تلى شمائلهم لكى لا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض. قيل : كانوا يتقلبون مرتين فى السنة. وقيل : مرة يوم عاشوراء. وقيل : فى تسع سنين.

وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ ، حكاية حال ماضية أي : يبسط ذراعيه ، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع.

بِالْوَصِيدِ أي : بموضع من الكهف ، وقيل : بالفناء من الكهف ، وقيل : العتبة. وهذا الكلب ، قيل : هو كلب مروا به فتبعهم ، فطردوه مرارا ، فلم يرجع ، فأنطقه اللّه ، فقال : يا أولياء اللّه لا تخشوا إصابتى فإنى أحب أحباء اللّه ، فناموا حتى أحرسكم. وقيل : هو كلب راع مروا به فتبعهم «١» على دينهم ، ومر معه كلبه ، ويؤيده قراءة : (و كالبهم) أي : وصاحب كلبهم ، وقيل : هو كلب صيد لهم أو زرع ، واختلف فى لونه قيل أحمر ، وقيل : أصفر ، وقيل : أصهب «٢».

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ أي : لو عاينتهم وشاهدتهم. والاطلاع : الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ، لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً : هربا بما شاهدت منهم ، وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ، أي : خوفا يملأ الصدور برعبه ، لما ألبسهم اللّه من الرهبة ، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم ، وكانت منفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن

يتكلم. وعن معاوية : أنه غزا الروم فمرّ بالكهف ، فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس رضي اللّه عنه : ليس لك ذلك قد منع اللّه تعالى منهو خير منك ، حيث قال : لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فلم يسمع ، وقال : ما أنتهي حتى أعلم علمهم ، فبعث ناسا ، وقال : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا بعث اللّه ريحا فأحرقتهم. هـ «٣».

الإشارة : للصوفية – رضى اللّه عنهم – تشبه قوى بأهل الكهف ، فى الانقطاع إلى اللّه ، والتجرد عن كل ما سواه ، والانحياش إلى اللّه ، والفرار من كل ما يشغل عن اللّه ، والتماس الرحمة الخاصة من اللّه ، وطلب التهيئة لكل رشد

---

(١) أي الراعي.

(٢) الأصهب : الأشقر. وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧٦) : واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ، ولا دليل ولا حاجة إليها ، بل هى مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب.

(٣) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٧٩٢) لابن أبى حاتم ، وعبد بن حميد ، وابن أبى شيبة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : وإسناده صحيح.

وصواب ، ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة بما دعوا به ، حين أووا إلى كهف الإيواء تشبّها بهم فى مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس. ولذلك لمّا تشبهوا بهم حفظهم اللّه – أي : الصوفية – ممن رام أذاهم ، وغيّبهم عن حس أنفسهم ، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته ، ومن تمام التشبه بهم : أنك قلّ أن تجد فرقة تسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم ، حتى شهدت ذلك فى جل أسفارنا مع الفقراء تحقيقا لكمال التشبيه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بعثهم من نومهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً

(٢٠)

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : وكما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل ، وكان ذلك آية دالة على كمال قدرتنا ، بَعَثْناهُمْ من النوم لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ أي : ليسأل بعضهم بعضا ، فيترتب عليه ما فصّل من الحكم البالغة ، أو : ليتعرفوا حالهم وما صنع اللّه بهم ، فيزدادوا يقينا على كمال قدرة اللّه ، ويستبصروا أمر البعث ، ويشكروا ما أنعم اللّه به عليهم.

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ هو رئيسهم ، واسمه : «مكسليمنيا» : كَمْ لَبِثْتُمْ فى منامكم؟ لعله قال ذلك لما رأى من مخالفة حالهم ، لما هو المعتاد فى الجملة ، قالُوا أي : بعضهم : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قيل : إنما قالوا ذلك لأنهم دخلوا الكهف غدوة ، وكان انتباههم آخر النهار ، فقالوا : لَبِثْنا يَوْماً ، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا : أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، وكان ذلك إخبارا عن ظن غالب ، فلم يعزوا إلى الكذب.

قالُوا أي : بعض آخر منهم ، بما سنح له من الأدلة ، ولما رأى من طول أظافرهم وشعورهم : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ أي : أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها اللّه – سبحانه – ، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ «١» هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، أعرضوا عن البحث عن المدة ، وأقبلوا على

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر : بورقكم – ساكنة الراء – والباقون بكسرها. راجع الإتحاف ٢/ ٢١٢.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٨

ما يهم فى الوقت ، والورق : الفضة ، مضروبة أو غير مضروبة ، ووصفها باسم الإشارة يقتضى أنها كانت معينة ليشترى بها قوت ذلك اليوم ، وحملها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل ، وقد كان نبينا صلى اللّه عليه وسلم يتزود لغار حراء ليتعبد فيه. ثم قالوا : فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أي : أىّ أهلها أَزْكى طَعاماً أي : أحل وأطيب ، أو أكثر وأرخص ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ أي : من ذلك الأزكى طعاما ، وَلْيَتَلَطَّفْ : وليتكلف اللطف فى دخول المدينة وشراء الطعام ، لئلا يعرف ، وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحدا من أهل المدينة ، أو : لا يفعل ما يؤدى إلى ذلك.

ثم علل النهى بقوله : إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يطلعوا عليكم ، أو يظفروا بكم ، والضمير : للأهل المقدر فى «أيها» أي : إنّ أهل المدينة إن يظفروا بكم يَرْجُمُوكُمْ إن ثبتم على ما أنتم عليه ، أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ أي : يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها كرها ، كقوله تعالى : أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا «١» ،

وقيل : كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق. وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً إن دخلتم فيها ، ولو بالكره والجبر ، أَبَداً ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى.

الإشارة : وكذلك بعثنا من توجه إلينا من نوم الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم ليتعرفوا ما أنعم اللّه به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة ، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة ، استصغروا أيام البطالة لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها ، وإن كثرت آمادها ، وفى الحكم : «رب عمر اتسعت آماده ، وقلّت أمداده» ، بخلاف زمان اليقظة ، فإنه كثيرة أمداده ، وإن قلّت آماده ، فهو طويل معنى ، وإن قلّ حسا ، ولذلك قال فى الحكم أيضا : «ورب عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده». وقال أيضا : «من بورك له فى عمره : أدرك فى يسير من الزمان من منن اللّه تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة».

فإن توقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله ، فإنّ أكل الحلال ينور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة ، وتلطفوا فى أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب ، فإن أطلعهم اللّه على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا فى إخفائه ، حتى لا يشعروا به أحدا من خلقه ، غير من هو أهل له لأنهم ، إن أظهروه لغيرهم ، رجموهم أو أعادوهم إلى ملتهم ، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم ، ولن يفلحوا إذا أبدا. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٥٩

ثم ذكر اطلاع قوم أهل الكهف عليهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢١]

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١)

قلت : إِذْ يَتَنازَعُونَ : ظرف لقوله : (أَعْثَرْنا) ، لا ليعلموا ، أي : أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم ... إلخ ، و(رَجْماً) : حال ، أي : راجمين بالغيب ، أو مفعول مطلق ، أي : يرجمون رجما.

يقول الحق جل جلاله : وَكَذلِكَ أي : وكما أنمناهم وبعثناهم لازدياد يقينهم أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ : أطلعنا الناس عليهم لِيَعْلَمُوا أي : ليعلم القوم الذين كانوا فى ذلك الوقت أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ أي : وعده بالبعث والثواب والعقاب حَقٌّ صادق لا خلف فيه ، أو : ثابت لا مرد له لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ، وَأَنَّ السَّاعَةَ أي : القيامة ، التي هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب

والجزاء ، لا رَيْبَ فِيها : لا شك فى قيامها ، فإنّ من شاهد أنه جل وعلا توفّى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر ، حافظا لأبدانها من التحلل والفساد ، ثم أرسلها كما كانت ، لا يبقى معه ريب ، ولا يختلجه شك ، فى أن وعده تعالى حق ، وأنه يبعث من فى القبور ، ويجازيهم بأعمالهم.

وكان ذلك الإعثار إِذْ يَتَنازَعُونَ : حين كانوا يتنازعون بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فى أمر البعث مختلفين فيه ففرقة أقرّت ، وفرقة جحدت ، وقائل يقول : تبعث الأرواح فقط ، وآخر يقول : تبعث جميع الأجسام بالأرواح ، قيل :

كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا ، ملكها ثمانيا وعشرين سنة ، ثم اختلف أهل مملكته فى البعث كما تقدم ، فدخل الملك بيته وغلق الباب ، ولبس مسحا وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يظهر الحق ، فألقى اللّه – عز وجل – فى نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف ، أن يهدم بنيان فم الكهف ، فهدم ما سدّ به «دقيانوس» باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ، فعند ذلك بعثهم اللّه – تعالى – فجرى بينهم من التقاول ما جرى.

روى أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة ليشترى الطعام ، أخرج دراهمه ، وكانت على ضرب (دقيانوس) ، فاتهموه أنه وجد كنزا ، فذهبوا به إلى الملك ، فقص عليه القصة ، فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من

(دقيانوس) ، فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر ، فدخلوا عليهم وكلموهم ، ثم قالت الفتية للملك :

نودعك اللّه ونعيذك به من الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم ، فماتوا ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب ، فرآهم فى المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف مسجدا. وقيل : لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى : مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا ، فدخل ، فعمّى عليهم المدخل ، فبنوا ثمّة مسجدا.

وقيل : المتنازع فيه : أمر الفتية قبل بعثهم ، أي : أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم ، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال ، ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال. وعلى التقديرين : فالفاء فى قوله :

فَقالُوا ابْنُوا فصيحة ، أي : أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا ، ثم ماتوا ، فقال بعضهم : ابْنُوا عَلَيْهِمْ : على باب كهفهم بُنْياناً لئلا يتطرق إليهم الناس ، ففعلوا ذلك ضنا بمقامهم ومحافظة عليهم.

ثم قالوا : رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم من حيث النسبة ، ومن حيث العدد ، ومن حيث بعد اللبث فى الكهف ، قالوا ذلك تفويضا إلى علام الغيوب. أو : يكون من كلامه سبحانه ردا لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين ، قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ ، وهو الملك والمسلمون ، وكانوا غالبين فى ذلك الوقت :

لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ، فذكر فى القصة أنه جعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٦]

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦)

ثم وقع الخوض فى عهد نبينا – عليه الصلاة والسلام – بين نصارى نجران حين قدموا المدينة ، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين فى عددهم ، كما قال تعالى : سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وهو قول اليعقوبية من النصارى ، وكبيرهم السيد ، وقيل : قالته اليهود ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، هو قول النسطورية منهم ، وكبيرهم العاقب ، رَجْماً بِالْغَيْبِ : رميا بالخبر من غير اطلاع على حقيقة الأمر ، أو ظنا بالغيب من غير تحقيق ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحى ، وعدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب ، وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة تأكيد النسبة فيما بين طرفيها ، يقضى بصحته.

قال تعالى : قُلْ يا محمد تحقيقا للحق ، وردا على الأولين : رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ أي : ربى أقوى علما بعدتهم ، ما يَعْلَمُهُمْ أي : ما يعلم عددهم إِلَّا قَلِيلٌ من الناس ، قد وفقهم اللّه تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «أنا من ذلك القليل» ، قال : حين وقعت الواو انقطعت العدة ، وأيضا حين سكت عنه تعالى ولم يقل : رجما بالغيب ، علم أنه حق. وعن على – كرم اللّه وجهه – : أنهم سبعة ، أسماؤهم :

يمليخا ، وهو الذي ذهب بورقهم ، ومكسيلمينيا ، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم ، ومشلينا ، وفى رواية الطبري : ومجسيسيا بدله ، وهؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس ، وكان يستشير هؤلاء الستة

فى أمره ، والسابع : الراعي الذي تبعهم حين هربوا من دقيانوس ، واسمه : كفشططيوش «١». وذكر ابن عطية عن الطبري غير هؤلاء ، وكلهم عجميون ، قال : والسند فى معرفتهم واه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : عادة الحق تعالى فى أوليائه أن يخفيهم أولا عن أعين الناس ، رحمة بهم إذ لو أظهرهم فى البدايات لفتنوهم وردوهم إلى ما كانوا عليه ، حتى إذا تخلصوا من البقايا ، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده ، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته ليعلموا أن وعد اللّه بإبقاء العدد الذين يحفظ اللّه بهم نظام العالم فى كل زمان حق ، وأنّ خراب العالم بانقراضهم ، وقيام الساعة لا ريب فيه. وفى الآية تنبيه على ذم الخوض بما لا علم للعبد به ، ومدح من رد العلم إلى اللّه فى كل شىء. واللّه تعالى أعلم.

ثم نهى نبيه عن المجادلة بعد وضوح الحق ، فقال :

فَلا تُمارِ فِيهِمْ ...

قلت : (إِلَّا أَنْ يَشاءَ) : استثناء مفرغ من النهى ، أي : لا تقولن فى حال من الأحوال ، إلا حال ملابسة بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد ، وهو أن تقول : إن شاء اللّه ، أو : فى وقت من الأوقات ، إلا وقت إن شاء اللّه.

يقول الحق جل جلاله : فَلا تُمارِ أي : لا تجادل فِيهِمْ فى شأن أهل الكهف إِلَّا مِراءً ظاهِراً قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم ، من غير زيادة عليه ، مع تفويض العلم إلى اللّه ، فلا تصرح بجهلهم ، ولا تفضح خطأهم ، فإنه يخل بمكارم الأخلاق ، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ : فى شأنهم مِنْهُمْ من الخائضين أَحَداً فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن ذلك ، مع أنهم لا علم لهم بذلك.

---

(١) فى النطق بهذه الأسماء اختلاف كثير ، وقال الحافظ ابن كثير : فى تسميتهم بهذه الأسماء ، واسم كلبهم ، نظر فى صحته ، والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى عن أهل الكتاب. وقد قال الله تعالى : فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً أي : سهلا هينا ، فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة. انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨.

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ أي : لأجل شىء تعزم عليه : إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ الشيء غَداً : فيما يستقبل من الزمان مطلقا ، فيصدق بالغد وما بعده لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب

الكهف ، وعن ذى القرنين. فسألوه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «غدا أخبركم» ، ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى ، حتى شقّ عليه ، وكذبته قريش ، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يوما ، أو قريبا منها «١» ، على ما ذكره أهل السّير ، أي : لا تقل إنى فاعل شيئا فى حال من الأحوال إلا متلبسا بمشيئته على الوجه المعتاد ، وهو أن تقول : إن شاء اللّه ، أو فى وقت من الأوقات ، إن شاء اللّه أن تقوله ، بمعنى : أن يأذن لك فيه ، فإن النسيان بمشيئته تعالى.

وَاذْكُرْ رَبَّكَ بقولك : إلا أن يشاء اللّه مستدركا له ، إِذا نَسِيتَ : إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته. وعن عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه : ولو بعد سنة ما لم يحنث. ولذلك جوّز تأخير الاستثناء. وعامة الفقهاء على خلافه ، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاق ولا عتاق ، ولم يعلم صدق ولا كذب ، وقال القرطبي : هذا فى تدارك الترك والتخلص من الإثم ، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلا به ، ويجوز أن يكون المعنى : واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه ، أو : اذكر ربك إذا اعتراك نسيان لتستدرك ما فات ، وحمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وسيأتى فى الإشارة بقية الكلام عليها.

وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي : يوفقنى لِأَقْرَبَ مِنْ هذا أي : لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف ، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى ، رَشَداً أي : إرشادا للناس ودلالة على ذلك. وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم وأبين لقصص الأنبياء ، المتباعدة أيامهم ، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة فى الأعمار المستقبلة إلى قيام الساعة. أو : لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسى ، أي : عسى أن يدلنى على ما هو أصلح لى من الذي نسيته إذ يجوز أن يكون نسيانه خيرا له من ذكره إذ فيه إظهار قهريته تعالى ، وغناه عن خلقه ، وعدم مبالاته بإدبار من أدبر وإقبال من أقبل ، أو : الطريق الأقرب من هذا الذي هدى إليه أهل الكهف رشدا وصوابا ، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيّم الذي أظهره على الأديان كلها ، ولو كره المشركون.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ أحياء ، مضروبا على آذانهم ، ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ، روى عن على – كرم اللّه وجهه – أنه قال : عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية ، واللّه تعالى ذكر السنة القمرية ، والتفاوت بينهما فى كل مائة ثلاث سنين ، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين. هـ. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا أي : الزمان

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٣٩٤) لابن المنذر عن مجاهد ، فى سياق طويل ، وأخرج الطبري (١٥/ ١٩١) نحوه فى سياق طويل ، عن ابن عباس.

الذي لبثوا فيه. لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما غاب فيهما ، وخفى من أحوال أهلها ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ أي : ما أسمعه وما أبصره. دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالى وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين لأنه تعالى لا يحجبه شيء ، ولا يحول دونه حائل ، ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف ، والصغير والكبير ، والخفي والجلى. والتعجب فى حقه تعالى مجاز لأنه إنما يكون مما خفى سببه ، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة ما لم يعتده ، وهو تعالى منزّه عن ذلك ، فيؤوّل بأنه مبالغة فى إحاطة سمعه وبصره بكل شيء ، كما تقدم.

ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ أي : ما لأهل السموات والأرض من دونه تعالى من ولى يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه ، وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ : فى قضائه فى علم الغيب أَحَداً منهم ، ولا يجعل له فيه مدخلا ، وقرئ بالخطاب لكل أحد ، أي : ولا تشرك أيها السامع فى حكمه وتدبيره أحدا من خلقه ، فإنه لا فعل له ولا تدبير. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية :

الأولى : ترك المراء والجدال ، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة فى استخراج الحق أو تحقيقه ، من غير ملاججة ولا مخاصمة ، فى سهولة وليونة وسلامة القلوب.

الثانية : استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور قال صلى اللّه عليه وسلم : «استفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون وأفتوك ، فالبر ما اطمأن القلب وسكن إليه ، والإثم ما حاك فى الصدر وتردد» «١» ، والمراد بالقلوب التي تستفتى. القلوب الصافية المنورة بذكر اللّه ، الزاهدة فيما سوى اللّه ، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق ، ولا تسكن إلا إلى الحق ، بخلاف القلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى ، فلا تفتى إلا بما يوافق هواها.

الثالثة : التفويض إلى مشيئة اللّه وتدبيره ، والرضا بما يبرز به القضاء ، بحيث لا يعقد على شيء ، ولا يجزم بفعل شيء ، إلا ملتبسا بمشيئة اللّه ، فينظر ما يفعل اللّه ، فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل اللّه به ، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه ، كما قال صاحب الحكم.

الرابعة : الاشتغال بالذكر والفكر ، حتى يغيب عما سوى المذكور قال تعالى : (وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ) أي : إذا نسيت ما سواه ، حينئذ تكون ذاكرا حقيقة ، فالذكر الحقيقي : هو الذي يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه ، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه لشدة غيبته فيه ، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته.

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٤/ ٢٢٤) ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (تهذيب ٣/ ٢١٢) عن وابصة. وصححه محقق المسند. وزاد فى كشف الخفاء (٢/ ١٢٤) عزو الحديث لأبى يعلى وأبى نعيم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٤

الخامسة : التماس الترقي والزيادة فى الاهتداء واليقين ، فكل مقام يدركه ينبغى أن يطلب مقاما أعلى منه ، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته ، (و قل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا) ، وباللّه التوفيق.

ثم أمره بتلاوة كتابه الذي هو أصل كل رشد وصواب ، وأقرب هداية لذوى الألباب ، فقال تعالى :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢٧]

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ أي : اسرده على ما نزل ، ولا تسمع لقولهم : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا «١» ، أو اتبع أحكامه ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ : لا قادر على تبديله غيره ، أو : لا مغير لما وعد بكلماته للمخالفين له ، وَلَنْ تَجِدَ أبدا مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً أي : ملجأ ، تعدل إليه عند إلمام ملمة ، أو : لن تجد ، إن بدلت تقديرا ، وخالفت ما أنزل إليك ، ملتحدا : ملجأ تميل إليه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : القرآن شفاء لكل داء فمن نزلت به شدة حسية أو معنوية ، دنيوية أو دينية ، ففزع إليه بالتلاوة أو الصلاة به ، رأى فرجا ، وقريبا ، فالالتجاء إلى كلام الله هو الالتجاء إلى الله ، فإنّ الحق تعالى يتجلى فى كلامه للقلوب على قدر صفائها ، وأما من التجأ إلى غير اللّه فقد خاب رجاؤه وبطل سعيه قال تعالى : (وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً) تميل إليه فيأويك. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بصحبة الفقراء ، الذين يعينونه على تلاوة كتابه ونصر دينه والتمسك به ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢٨]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨)

قلت : (وَ لا تَعْدُ) : نهى مجزوم بحذف الواو ، و(عَيْناكَ) : فاعل ، و(تُرِيدُ) : حال من الكاف ، أو من فاعل (تَعْدُ).

يقول الحق جل جلاله : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ أي : احبسها مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ أي : يعبدونه بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ ، قيل : الصلوات الخمس ، فالغداة : الصبح ، والعشىّ : الظهر وما بعده ، وقيل : الصبح والعصر ،

---

(١) من الآية ١٥ من سورة يونس.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٥

قلت : والأظهر أنها الصلاة التي كانوا يصلونها قبل فرض الصلاة ، وهى ركعتان بالغداة والعشى. قال ابن عطية :

ويدخل فى الآية من يدعو فى غير صلاة ، ومن يجمع لمذاكرة علم ، وقد روى عبد الله بن عمر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «لذكر الله بالغداة والعشىّ أفضل من حطم السّيوف فى سبيل الله ، ومن إعطاء المال سحا» «١».

وقيل : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) فى جميع الأوقات ، وفى طرفى النهار ، والمراد بهم فقراء المؤمنين كعمار وصهيب وخباب وبلال ، روى أن رؤساء الكفرة من قريش قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك ، وقالوا : إن ريح جبابهم تؤذينا ، فنزلت الآية «٢».

روى أنه صلى اللّه عليه وسلم لما نزلت خرج إليهم وجلس بينهم ، وقال : «الحمد لله الذي جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معه» «٣». وقيل : نزلت فى بيان أهل الصفّة ، وكانوا نحو سبعمائة ، فتكون الآية مدنية.

ثم وصفهم بالإخلاص ، فقال : يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أي : معرفة ذاته ، لا جنة ولا نجاة من نار ، وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ أي : لا تجاوزهم بنظرك إلى غيرهم ، من عداه : إذا جاوزه ، وفى الوجيز : ولا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة ، تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا.

وَلا تُطِعْ فى تنحية الفقراء عن مجلسك مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا أي : جعلناه غافلا عن الذكر وعن الاستعداد له ، كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك ، فإنهم غافلون عن ذكرنا ، على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الأوقات ، وفيه تنبيه على أن الباعث على ذلك الدعاء غفلة قلبية عن جناب الله – سبحانه – حتى خفى عليه أن الشرف إنما هو بتحلية القلب بالفضائل ، لا بتحلية الجسد بالملابس والمآكل. وَاتَّبَعَ هَواهُ : ما تهواه نفسه ، وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً : ضياعا وهلاكا ، وهو من التفريط والتضييع ، أو من الإفراط والإسراف ، فإن الغفلة عن ذكر الله – تعالى – تؤدى إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : فى الآية حثّ على صحبة الفقراء والمكث معهم ، وفى صحبتهم أسرار كبيرة ومواهب غزيرة ، إذ بصحبتهم يكتسب الفقير آداب الطريق ، وبصحبتهم يقع التهذيب والتأديب ، حتى يتأهل لحضرة التقريب ،

(١) عزاه فى كنز العمال (١/ ٤٢٩ ح ١٨٥٠) لابن شاهين فى الترغيب فى الذكر عن ابن عمر. وأخرجه ، بدون العبارة الأخيرة ، الديلمي فى الفردوس (٣/ ٤٥٤ ح ٥٤٠٢) عن أنس .. وحطم السيوف ، أي : كسرها.

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (باب فى الزهد وقصر الأمل) عن سلمان ، وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٤/ ٣٩٦) لابن مردويه ، وأبى نعيم فى الحلية.

(٣) أخرجه الطبري (١٥/ ٢٣٥) عن قتادة ، وأخرجه البيهقي فى الموضع السابق ذكره ، ضمن الرواية ذاتها عن سلمان.

وبصحبتهم تدوم حياة الطريق ، ويصل العبد إلى معالم التحقيق ، وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي اللّه عنه :

ما لذّة العيش إلا صحبة الفقرا هم السّلاطين والسّادات والأمرا
فاصحبهم وتأدّب فى مجالسهم وخلّ حظّك مهما خلّفوك ورا

إلى آخر كلامه.

وقوله تعالى : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ قال القشيري : لم يقل : واصبر قلبك لأن قلبه كان مع الحق تعالى ، فأمره بصحبة الفقراء جهرا بجهر ، واستخلص قلبه لنفسه سرا بسرّ. هـ. قال الورتجبي : اصبر نفسك مع هؤلاء الفقراء ، العاشقين لجمالى ، المشتاقين إلى جلالى ، الذين هم فى جميع الأوقات يسألون متى لقاء وجهى الكريم ، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلي ، حتى يكونوا متسلين بصحبتك عن مقام الوصال ، وفى رؤيتهم لك رؤية ذلك الجمال. هـ.

وقوله تعالى : يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، بيّن أن دعاءهم وسؤالهم إنما هو رؤيته ولقاؤه ، شوقا إليه ومحبة فيه ، من غير تعلق بغيره ، أو شغل بسواه ، بل همتهم اللّه لا غيره ، وإلّا لما صدق قصر إرادتهم عليه. قال فى الإحياء : من يعمل اتقاء من النار خوفا ، أو رغبة فى الجنة رجاء ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة ، وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة اللّه وتعظيمه لذاته ولجلاله ، لا لأمر سواه. ثم قال : وقول رويم : الإخلاص : ألا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، هو إشارة لإخلاص الصدّيقين ، وهو الإخلاص المطلق ، وغيره إخلاص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة. هـ. من الحاشية.

ثم أمره بالصدع بالحق ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٢٩]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩)

قلت : «الْحَقُّ» : خبر ، أي : هذا الذي أوحى إليّ الحقّ.

يقول الحق جل جلاله : وَقُلِ يا محمد لأولئك الغافلين المتبعين أهواءهم ، أو : لمن جاءك من الناس : هذا الذي جئتكم به من عند ربى هو الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ أي : من جهة ربكم ، لا من جهتى ، حتى يتصور فيه التبديل ، أو يمكن التردد فى اتباعه. فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ، وهو تهديد ، أي : فمن شاء أن يؤمن فليؤمن كسائر المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعليل ، ومن شاء أن يكفر فليفعل ، وفيه مع التهديد الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم.

(٣/٢٦٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٧

ثم أوعدهم على الكفر ، فقال : إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ أي : هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من اللّه سبحانه ، والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيارهم الكفر ظلم وتجاوز عن الحد ، ووضع للشيء فى غير محله ، أي :

هيأنا لهم ناراً عظيمة أَحاطَ بِهِمْ أي : محيط بهم سُرادِقُها أي : سورها المحيط بها ، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه ، والسرادق : ما يحيط بالشيء ، كالجدار ونحوه. قيل : هو حائط من نار ، وقيل : دخانها.

وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا من العطش يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ : كمذاب الحديد والرصاص فى الحرارة. وقيل : كردىء الزيت فى اللون ، يَشْوِي الْوُجُوهَ إذا قدم ليشرب بحرارته. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «هو كعكر الزّيت ، فإذا قرّب من الكافر سقطت فروة وجهه فيه ، فإذا شربه تقطّعت أمعاؤه» «١».

بِئْسَ الشَّرابُ ذلك ، وَساءَتْ النار مُرْتَفَقاً : متّكا ، وأصل الارتفاق : نصب المرفق تحت الخد ليتكئ عليه ، وأنى ذلك فى النار ، وإنما هو لمقابلة قوله فى المؤمنين : وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً.

الإشارة : ينبغى للواعظ ، أو المذكر ، أو العالم ، ألا يحرص على الناس ، بل يستغنى باللّه فى أموره كلها ، وإنما يبين الحق من الباطل ، ويقول : هذا الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر. هذا إذا كان لعامة الناس ، وأما إن كان لخاصتهم كأهل الرئاسة والجاه ، فاختلف فيه فقال بعضهم : يسلك هذا المنهاج ، يبين الحق ولا يبالى ، محتجا بالآية ، قال : نحن أمة محمدية ، قال تعالى له : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ... الآية ، وقال بعضهم : ينبغى أن يلين لهم القول لقوله تعالى : فَقُولا

لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى «٢» ، وهو الأليق بطريق السياسة ، فمن أعرض عن الوعظ ، وبقي على ظلمه ، فالآية تجر ذيلها عليه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)

---

(١) أخرجه ، دون العبارة الأخيرة ، أحمد فى المسند (٣/ ٧٠) ، والترمذي فى (صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) ، والبغوي فى تفسيره (٥/ ١٦٨) ، عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه. [.....]

(٢) الآية ٤٤ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٨

قلت : جملة : (إِنَّا لا نُضِيعُ) : خبر «إِنَّ» ، والعائد محذوف ، أي : أحسن عملا ، أو : وقع الظاهر موقعه فإن من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذي آمن وعمل صالحا. وأُولئِكَ : استئناف لبيان الأجر ، أو : خبر «إِنَّ» ، وما بينهما اعتراض ، أو خبر بعد خبر. و(مِنْ أَساوِرَ) : ابتدائية ، و(مِنْ ذَهَبٍ) : بيانية ، و(أَساوِرَ) : جمع أسورة ، أو أسوار جمع سوار ، فهو جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أي : اختاروا الإيمان ، من قوله : (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ) ، وكأنه فى المعنى عطف على قوله : (أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ) ، أي : والذين آمنوا هيأنا لهم كذا وكذا ، ولعل تغيير سبكه : للإيذان بكمال تنافى مآلى الفريقين ، أي : إن الذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ ، حسبما بيّن فيما أوحى إليك ، إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وأتقنه على ما تقتضيه الشريعة.

أُولئِكَ المنعوتون بهذه النعوت الجليلة لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي من تحت قصورهم الْأَنْهارُ من ماء ولبن وخمر وعسل ، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أي : كل واحد يحلّى بسوارين من ذهب.

وكانت الأساور عند العرب من زينة الملوك ، وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً ، وخصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة. وتلك الثياب مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، السندس : ما رقّ من الديباج ،

والإستبرق : ما غلظ منه ، جمع النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ جمع أريكة ، وهو السرير فى الحجال ، أي : متكئين على الأسرة المزينة بالستور الرفيعة ، كحال العرائس المتنعمين. نِعْمَ الثَّوابُ ذلك ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً : متّكأ. والآية عامة وإن نزلت فى خصوص الصحابة رضى الله عنهم ، وأماتنا على منهاجهم. آمين.

الإشارة : إن الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وعملوا الأعمال التي تقرب إلى حضرة القدوس وهى تحمل ما يثقل على النفوس ، أولئك لهم جنات المعارف ، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب ، يحلّون فيها بمقامات اليقين ، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين ، متكئين على سرر الهنا والسرور ، قد انقضت عنهم أيام المحن والشرور ، جعلنا الله فيهم بمنّه وكرمه.

ثم ضرب مثلا لمن اغتر بدنياه ، ولمن زهد فيها وأقبل على مولاه ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٣٢ الى ٤٤]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (٣٦)

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨) وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١)

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (٤٣) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤)

(٢٦٨/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٦٩

قلت : «رَجُلَيْنِ» : بدل من «مَثَلًا» ، وجملة جَعَلْنا ... بتمامها : بيان للتمثيل ، أو صفة لرجلين ، وما شاءَ اللَّهُ :

خبر ، أي : هذا ما شاء اللّه ، أو الأمر ما شاء اللّه ، أو مبتدأ حذف الخبر ، أي : الذي شاء اللّه كائن ، أو شرطية ، والجواب محذوف ، أي : أىّ شىء شاء اللّه كان ، و(هُنالِكَ) : ظرف مقدم ، و(الْوَلايَةُ)

: مبتدأ ، والظرف : إشارة إلى الآخرة ، وهذا أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَاضْرِبْ لَهُمْ أي : للفريقين فريق المؤمنين والكافرين المتقدمين ، مَثَلًا من حيث عصيان الكافر ، مع تقلبه فى النعيم ، وطاعة المؤمن ، مع مكابدته مشاقّ الفقر ، وما كان مآلهما ، لا من حيث ما ذكر من أن للكافر فى الآخرة كذا وللمؤمن كذا ، أي : واضرب لهم حالى رَجُلَيْنِ مقدرين أو محققين ، هما أخوان من بنى إسرائيل ، أو شريكان : كافر ، واسمه قطروس ، ومؤمن ، اسمه يهوذا ، اقتسما ثمانية آلاف دينار ، أو ورثاها من أبيهما ، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا ، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه البر.

روى : أن الكافر اشترى أرضا بألف دينار ، فقال صاحبه المؤمن : اللهم إن فلانا اشترى أرضا بألف ، وإنى أشترى منك أرضا فى الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار ، فقال المؤمن : اللهم إن صاحبى بنى دارا بألف ، وإنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج

امرأة بألف دينار ، فقال : اللهم ، إن فلانا تزوج بألف دينار ، وإنى أخطب منك من نساء الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه اشترى خادما ومتاعا بألف دينار ، فقال : اللهم إن فلانا اشترى خادما ومتاعا بألف ، وإنى أشترى منك خادما ومتاعا من الجنة بألف ، فتصدق بألف دينار ، ثم أصابته حاجة ، فقال : لعل صاحبى يناولنى معروفه ، فأتاه ، فقال : ما فعل مالك؟ فأخبره قصته ، فقال : أو إنك لمن المصدقين بهذا؟ واللّه لا أعطيك شيئا ، فلما توفيا آل أمرهما إلى ما ذكر اللّه فى سورة الصافات بقوله : قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ... «١» الآية.

وبيّن حالهما فى الدنيا بقوله : جَعَلْنا لِأَحَدِهِما وهو الكافر ، جَنَّتَيْنِ : بستانين مِنْ أَعْنابٍ : من كروم متنوعة ، وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ أي : جعلنا النخل محيطة بهما محفوظا بها كرومهما ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُما : وسطهما زَرْعاً ليكون كل منهما جامعا للأقوات والفواكه ، متواصل العمارة ، على الهيئة الرائقة ، والوضع الأنيق. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها : ثمرها وبلغ مبلغا صالحا للأكل ، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً أي : لم تنقص من أكلها شيئا فى كل سنة ، بخلاف سائر البساتين ، فإن الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى عام ، وَفَجَّرْنا خِلالَهُما : فيما بين كل من الجنتين نَهَراً على حدة ، وقرئ بالسكون. والنهر : الماء الكثير ، وكان لكل بستان نهر ليدوم شربها ويدوم بهاؤها.

ولعل تأخير تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل ، مع أن الترتيب الخارجي العكس للإيذان باستقلال كل

من إيتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين ، كما فى قصة البقرة ونحوها ، ولو عكس لأوهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مرتب على بعض.

وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ أي : وكان لصاحب الجنتين أنواع من المال غير الجنتين ، من ثمر ماله : إذا كثر. قال ابن عباس : الثمر : جميع المال من الذهب ، والفضة ، والحيوان ، وغير ذلك. وقال مجاهد : هو الذهب والفضة خاصة. فَقالَ لِصاحِبِهِ المؤمن ، أخيه أو شريكه ، وَهُوَ يُحاوِرُهُ : يراجعه فى الكلام ، من حار إذا رجع ، وذلك أنه سأله عن ماله فيما أنفقه ، فقال : قدمته بين يدى ، لأقدم عليه ، فقال له : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَراً : حشما وأعوانا وأولادا ذكورا لأنهم الذين ينفرون معه.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ : بستانه الذي تقدم وصفه ، وإنما وحّده إما لعدم تعلق الغرض بتعدده ، أو لاتصال أحدهما بالآخر ، أو لأن الدخول يكون فى واحد واحد. فدخله وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ضارّ لها بعجبه وكفره ، قالَ حين دخوله : ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ الجنة ، أي : تفنى أَبَداً لطول أمده وتمادى غفلته ، وإنكارا لفناء الدنيا

---

(١) الآيتان ٥٠ – ٥١ من سورة الصافات. وانظر تفسير البغوي ٥/ ١٧٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٣٨.

وقيام الساعة ، ولذلك قال : وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً أي : كائنة فيما سيأتى ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي بالبعث عند قيامها ، كما تقول ، لَأَجِدَنَّ حينئذ خَيْراً مِنْها : من الجنتين مُنْقَلَباً أي : مرجعا وعاقبة ، أي : كما أعطانى هذا فى الدنيا سيعطينى أفضل منه فى الآخرة ، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة : اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه لذاته ، وكرامته عليه ، ولم يدر أن ذلك استدراج.

قالَ لَهُ صاحِبُهُ أخوه المسلم وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ أي : أصلك مِنْ تُرابٍ ، فإن خلق آدم عليه السّلام من تراب متضمن لخلق أولاده منه إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس ، انطواء مجانسا مستتبعا لجريان آثارها على الكل ، فكان خلقه عليه السّلام من تراب خلقا للكل منه ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ هى مادتك القريبة ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا أي : عدلك وكملك إنسانا ذكرا ، أو صيرك رجلا ، وفى التعبير بالموصول مع صلته : تلويح بدليل البعث ، الذي نطق به قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ «١».

قال البيضاوي : جعل كفره بالبعث كفرا باللّه لأنه منشأ الشك فى كمال قدرة اللّه ، ولذلك رتّب الإنكار

على خلقه إياه من التراب ، فإن من قدر على إبداء خلقه منه قدر أن يعيده منه. هـ.
ثم قال أخوه المسلم : لكِنَّا أصله : لكن أنا ، وقرئ به ، فحذفت الهمزة ، فالتقت النونان فوقع الإدغام ، هُوَ اللَّهُ رَبِّي ، «هُوَ» : ضمير الشأن ، مبتدأ ، خبره : «هُوَ اللَّهُ رَبِّي» ، وتلك الجملة : خبر «أَنَا» ، والعائد منها : الضمير ، وقرئ بإثبات «أنا» فى الوصل والوقف ، وفى الوقف خاصة ، ومدار الاستدراك قوله تعالى : أَكَفَرْتَ ، كأنه قال : أنت كافر ، لكنى مؤمن موحد ، وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ، وفيه تنبيه على أن كفره كان بالإشراك. قاله أبو السعود.
قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : والذي يظهر من قوله : وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ ... الآية ، ومن قوله :
يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ ... الآية ، أنه إشراك باللّه فى عدم صرف المشيئة إليه ، ودعوى الاستقلال بنفسه دونه ، وقد قال وهب بن منبه : (قرأت فى تسعين كتابا من كتب اللّه أن من وكل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر) ، ثم شكه فى البعث تكذيب بوعد اللّه ، وهو كفر صراح. هـ.
وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ : بستانك ، قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ أي : هلا قلت عند دخولها : ما شاءَ اللَّهُ أي : الأمر ما شاء اللّه ، أو ما شاء اللّه يكون ، والمراد : تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة اللّه تعالى ، إن شاء أبقاها ، وإن شاء أخفاها ، لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ أي : لا قوة لى على عمارتها وتدبير أمرها إلا بمعونة اللّه وإقداره.

---

(١) من الآية ٥ من سورة الحج.

قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «من رأى شيئا فأعجبه فقال : ما شاء اللّه لا قوّة إلّا باللّه ، لم يضرّه شى ء»»
. وقال لأبى هريرة : «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنّة؟ قال : بلى يا رسول اللّه ، قال : لا قوة إلّا باللّه ، إن قالها العبد قال اللّه عز وجل : أسلم عبدى واستسلم» «٢». وقال لعبد اللّه بن قيس : «ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنّة؟ قال : بلى ، يا رسول اللّه ، قال : لا حول ولا قوّة إلّا باللّه» «٣».
ثم قال له أخوه المسلم : إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَوَلَداً فى الدنيا ، وفيه تقوية لمن فسر النفر بالولد ، فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ فى الآخرة أو فى الدنيا خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ والمعنى : إن ترنى أفقر منك فأنا أتوقع من صنع اللّه سبحانه أن يقلب ما بي وبك من الفقر والغنى ، فيرزقنى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك

لكفرك نعمته ، ويخرب جنتك ، وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً : عذابا مِنَ السَّماءِ يذهبها ، من برد أو صاعقة ، وهو جمع : حسبانة ، وهى : المرامى من هذه الأنواع المذكورة ، وتطلق أيضا ، فى اللغة ، على سهام ترمى دفعة واحدة ، فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أي : أرضا ملساء ، يزلق عليها لاستئصال ما عليها من النبات والشجر والبناء ، أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها أي : النهر الذي خلالها غَوْراً : غائرا ذاهبا فى الأرض ، و«زَلَقاً» و«غَوْراً» : مصدران ، عبّر بهما عن الوصف مبالغة. فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً أي : لن تستطيع أبدا للماء الغائر طلبا ، بحيث لا يبقى له أثر يطلبه به ، فضلا عن وجدانه ورده.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ أي : هلكت أشجاره المثمرة ، وأمواله المعهودة ، وأصله : من إحاطة العدو ، وهو عطف على مقدر ، كأنه قيل : فوقع بعض ما وقع من المحذور ، وأهلكت أمواله ، روى أن اللّه تعالى أرسل عليها نارا فأحرقتها وغار ماؤها. فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ظهرا لبطن ، أو يضرب يديه واحدة على أخرى ، يصفق بهما ، وهو كناية عن الندم ، كأنه قال : فأصبح يندم عَلى ما أَنْفَقَ فِيها أي : فى عمارتها من الأموال. وجعل تخصيص الندم بها دون ما هلك الآن من الجنة لأنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية. انظر أبا السعود.

وَهِيَ أي : الجنة خاوِيَةٌ : ساقطة عَلى عُرُوشِها أي : دعائمها المصنوعة للكروم ، فسقطت العروش أولا ثم سقطت الكروم عليها. وتخصيص حالها بالذكر ، دون الزرع والنخل ، إمّا لأنها العمدة وهما من متمماتها ، وإمّا لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقي لأنها حيث هلكت ، وهى مشتدة بعروشها فهلاك

---

(١) أخرجه ابن السني فى عمل اليوم والليلة (ح ٢٠٦) من حديث أنس مرفوعا ، والبيهقي فى شعب الإيمان (باب فى تعديد نعم الله عز وجل ، ح ٤٣٧٠).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٨) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة خيبر) ، ومسلم فى (الذكر ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) من حديث أبى موسى الأشعري.

ما عداها أولى ، وإما لأن الإنفاق فى عمارتها أكثر. وَيَقُولُ أي : يقلب وهو يقول : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ، كأنه تذكر موعظة أخيه ، وعلم أنه إنما أتى من قبل شركه ، فتمنى أن لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه.

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ : جماعة يَنْصُرُونَهُ : يقدرون على نصره بدفع الهلاك عن أمواله ، مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فإنه القادر على ذلك وحده ، وَما كانَ مُنْتَصِراً أي : وما كان فى نفسه ممنوعا بقوته من انتقامه سبحانه منه.

هُنالِكَ فى ذلك المقام ، وفى تلك الحال الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ أي : النصرة له وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره ، وقرئ : «الحق» بالكسر ، صفة للّه ، وبالرفع ، نعت للولاية. ويحتمل أن يكون : هُنالِكَ ظرفا لمنتصرا ، أي :

وما كان ممتنعا من انتقام اللّه منه فى ذلك الوقت ، ففيه تنبيه على أن قوله : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ : كان عن اضطرار وجزع مما دهاه ، فلذلك لم ينفعه ، كقوله تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا «١». وحينئذ استأنف تعالى الإخبار عن كمال حفظه لأوليائه فقال : الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ أي : الحفظ والرعاية والنصرة إنما هى من اللّه لأوليائه فى الدنيا والآخرة ، لا يخذلهم فى حال من الأحوال ، بل يتولى سياستهم ونصرهم وهدايتهم ، كما هو شأن من اعتز باللّه ، دون من اعتز بغيره ، فقوله : وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ : رد لقوله : وَأَعَزُّ نَفَراً أي : بل النصرة للّه لأوليائه ، دون من تولى غيره.

والحاصل : أن من تولى اللّه فعاقبته النصرة ، ومن تولى غيره فعاقبته الخذلان. والعياذ باللّه. ويحتمل أن يكون قد تم الكلام على القصة ، ثم أعاد الكلام إلى ما قبل القصة ، فقال : هُنالِكَ عند ذلك ، يعنى : يوم القيامة الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ يتولون اللّه ويؤمنون به ، ويتبرأون مما كانوا يعبدون ، هُوَ خَيْرٌ ثَواباً أي : خير من يرجى ثوابه ، وَخَيْرٌ عُقْباً أي : عاقبة لأوليائه. والعقب : العاقبة ، يقال : عاقبة كذا وعقباه وعقبه ، أي : آخره.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد ضرب اللّه مثلا لمن عكف على هواه ، وقصر همته على زخارف دنياه ، ولمن توجه بهمته إلى مولاه ، وقدّم دنياه لأخراه ، فكان عاقبة الأول : الندم والخسران ، وعاقبة الثاني : الهنا والرضوان ، أو لمن وقف مع علمه واعتمد عليه ، ولمن تبرأ من حوله وقوته فى طلب الوصول إليه.

قال فى لطائف المنن : لا تدخل جنة علمك وعملك ، وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل ، فأخبر اللّه عنه بقوله : وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً ... الآية. ولكن أدخلها كما بيّن

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة غافر.

لك ، وقل كما رضى لك : وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وافهم هاهنا قوله صلى اللّه عليه وسلم :

«لا حول ولا قوّة إلّا باللّه كنز من كنوز الجنة» «١». وفى رواية أخرى : «كنز من كنوز تحت العرش».

فالترجمة : «٢» ظاهر الكنز ، والمكنوز فيها : صدق التبري من الحول والقوة ، والرجوع إلى حول اللّه وقوته.

ثم ضرب مثلا فى سرعة ذهابها وفنائها ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (٤٥) الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)

قلت : كَماءٍ : خبر عن مضمر ، أي : هى كماء ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا لا ضرب ، على أنه بمعنى «صيّر».

يقول الحق جل جلاله : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها ، وسرعة انقراضها وفنائها لئلا يطمئنوا إليها ويغفلوا عن الآخرة ، هى كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ وهو المطر ، فَاخْتَلَطَ بِهِ أي : بسببه نَباتُ الْأَرْضِ بحيث التف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه ، ثم مرت مدة قليلة فَأَصْبَحَ هَشِيماً أي : مهشوما مكسورا ، تَذْرُوهُ الرِّياحُ أي : تفرقه وتطيره ، كأن لم يغن بالأمس ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً : قادرا ، ومن جملة الأشياء : الإفناء والإنشاء.

الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : مما تذروه رياح الأقدار ، ويلحقه الفناء والبوار ، ويدخل فى الزينة :

الجاه ، وجميع ما فيه للنفس حظ فإنه يفنى ويبيد ، ثم ذكر ما لا يفنى فقال : وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ وهى أعمال الخير بأسرها ، أو : الصلوات الخمس ، أو : «سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا اله الا اللّه ، واللّه أكبر» ، زاد بعضهم : «ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم». قال عليه الصلاة والسلام : «هى من كنز الجنة ، وصفايا الكلام ، وهن الباقيات الصالحات ، يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات» «٣».

---

(١) أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة) ، ومسلم فى (الذكر والدعاء ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) ، من حديث أبى موسى الأشعري. بلفظ : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت : بلى يا رسول اللّه. قال : لا حول ولا قوة إلا بالله».

(٢) أي : اللفظ والكلام المنطوق به.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢٢٠ ح ٤٠٤٧) بلفظ : «قولوا : سبحان الله ، والحمد الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجنبات ، وهن الباقيات الصالحات» ، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٢٧٤/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٥

أو : الهمات العالية والنيات الصالحة إذ بها ترفع الأعمال وتقبل. أو : كل ما أريد به وجه اللّه ، وسميت باقية :

لبقاء ثوابها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا وزينتها الفانية.

قال في الإحياء : كل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، كالمال والجاه مما ينقضى على القرب ، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات ، كالعلم والحرية لبقائهما كمالا فيه ، ووسيلة إلى القرب من اللّه تعالى ، أما الحرية من الشهوات فتقطع عن غير اللّه ، وتجرده عن سواه ، وأما العلم الحقيقي فيفرده باللّه ويجمعه عليه. هـ.

وهى ، أي : الباقيات الصالحات خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ أي : فى الآخرة ثَواباً أي : عائدة تعود على صاحبها ، بخلاف ما شأنه الفناء من المال والبنين فإنه يفنى ويبيد. وهذا كقوله تعالى : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ «١». وقوله : عِنْدَ رَبِّكَ : بيان لما يظهر فيه خيريتها ، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركتها لها فى الخيرية إذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة. ثم قال تعالى : وَخَيْرٌ أَمَلًا أي : ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند اللّه تعالى ، حيث ينال صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا ، وأما ما مرّ من المال والبنين فليس لصاحبه فيه أمل يناله. وتكرير «خَيْرٌ» للإشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيه.

الإشارة : قد تقدم ، مرارا ، التحذير من الوقوف مع بهجة الدنيا وزخارفها الغرارة لسرعة ذهابها وانقراضها.

روى أبو هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا؟ قلت : نعم ، فأخذ بيدي ، وانطلق ، حتى وقف بي على مزبلة ، رؤوس الآدميين ملقاة ، وبقايا عظام نخرة ، وخرق بالية قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين ، فقال : يا أبا هريرة هذه رؤوس الآدميين التي تراها ، كانت مثل رؤوسكم ، مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا ، وكانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون ، وكانوا يجدّون فى جمع المال وعمارة الدنيا كما تجدّون ، فاليوم قد تعرّت عظامهم ، وتلاشت أجسامهم كما ترى ، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها ، وقت

التجمل ووقت الرعونة والتزين ، فاليوم قد ألقتها الرياح فى النجاسات ، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها ، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون فى تحصيلها ، وينهبها بعضهم من بعض ، قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد من نتنها ، فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى ، فمن أراد أن يبكى على الدنيا فليبك ، فإنها موضع البكاء.

قال أبو هريرة رضي اللّه عنه :

فبكى جماعة الحاضرين» «٢».

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة النحل.

(٢) لم أقف على حديث بهذا السياق.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٦

ثم ذكر ما يكون بعد فناء الدنيا التي تقدم مثالها من أهوال الحشر والحساب ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٧) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)

قلت : وَيَوْمَ : معمول لمحذوف ، أي : واذكر ، أو عطف على قوله : «عند ربك» ، أي : والباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة ، و(حَشَرْناهُمْ) : عطف على (نُسَيِّرُ) للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المشركون ، وعليه يدور أمر الجزاء ، وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا ، وقيل : هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك. و(نُغادِرْ) : نترك ، يقال : غادره وأغدره : إذا تركه ، ومنه : الغدير لما يتركه السيل فى الأرض من الماء ، وَفًّا)

: حال ، أي : مصطفين.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ أي : حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو ، على هيئتها ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ «١» أو : نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منثورا ، والمراد من ذكره : تحذير الغافلين مما فيه من الأهوال ، وقرئ :

«تسيّر» بالبناء للمفعول جريا على سنن الكبرياء ، وإيذانا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لظهور تعينه ، ثم قال : وَتَرَى الْأَرْضَ أي :

جميع جوانبها ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، أو لكل من يسمع ، بارِزَةً : ظاهرة ، ليس عليها جبل ولا غيره. بل تكون قاعاً صَفْصَفاً ، لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً «٢». وَحَشَرْناهُمْ : جمعناهم إلى الموقف من كل حدب ، مؤمنين وكافرين ، فَلَمْ نُغادِرْ أي : لم نترك مِنْهُمْ أَحَداً.

عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ

، شبهت حالتهم بحال جند عرض على السلطان ، ليأمر فيهم بما يأمر. وفى الالتفات إلى الغيبة ، وبناء الفعل للمفعول ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، والإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – من

---

(١) الآية ٨٨ من سورة النمل.

(٢) الآيتان ١٠٧ – ١٠٨ من سورة طه. [.....]

تربية المهابة ، والجري على سنن الكبراء ، وإظهار اللطف به صلى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.فًّا

أي :

مصطفّين غير متفرقين ولا مختلطين ، كل أمة صفّ ، وفى الحديث الصحيح : «يجمع اللّه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، صفوفا ، يسمعهم الدّاعى وينفذهم البصر ...» «١» الحديث بطوله. وفى حديث آخر : «أهل الجنة ، يوم القيامة ، مائة وعشرون صفا ، أنتم منها ثمانون صفا» «٢».

يقال لهم – أي : للكفرة منهم : قَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

، وتركتم ما خولناكم وما أعطيناكم من الأموال وراء ظهوركم. أو : حفاة عراة غرلا ، كما فى الحديث. وهذه المخاطبة ، بهذا التقريع ، إنما هى للكفار المنكرين للبعث ، وأما المؤمنون المقرون بالبعث فلا تتوجه إليهم هذه المخاطبة ، ويدل عليه ما بعده من قوله : لْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً

أي : زعمتم فى الدنيا أنه ، أي : الأمر والشأن ، لن نجعل لكم وقتا يتنجّز فيه ما وعدته من البعث وما يتبعه. وهو إضراب وانتقال من كلام ، إلى كلام ، كلاهما للتوبيخ والتقريع.

وَوُضِعَ الْكِتابُ أي : كتاب كل أحد ، إما فى يمينه أو شماله ، وهو عطف على : رِضُوا)

، داخل تحت الأمور الهائلة التي أريد بذكرها تذكير وقتها ، وأورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة

الماضي لتحقق وقوعه ، وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس ، والمراد : صحائف أعمال العباد. ووضعها إما في أيدى أصحابها يمينا وشمالا ، أو فى الميزان. فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ قاطبة ، المنكرون للبعث وغيرهم ، مُشْفِقِينَ : خائفين مِمَّا فِيهِ من الجرائم والذنوب ، وَيَقُولُونَ ، عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا أو قطميرا : يا وَيْلَتَنا أي :

ينادون بتهلكتهم التي هلكوها من بين التهلكات ، ومستدعين لها ليهلكوا ، ولا يرون تلك الأهوال ، أي : يا ويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك ، يقولون : ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ : لا يترك صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً من ذنوبنا إِلَّا أَحْصاها أي : حواها وضبطها ، وجملة لا يُغادِرُ : حال محققة لما فى الاستفهام من التعجب ، أو استئنافية مبنية على سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما شأنه حتى يتعجب منه؟ فقال : لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها ، وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا فى الدنيا من السيئات ، أو جزاء ما عملوا حاضِراً : مسطورا عتيدا ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ، فيكتب مالم يعمل من السيئات ، أو يزيد فى عقابه المستحق له. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بطوله البخاري فى (تفسير سورة الإسراء ، باب قوله تعالى : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ...) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٤٥٣) ، والبراز (كشف الأستار/ ٣٥٣٤) عن ابن مسعود.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٨

الإشارة : ويوم نسير جبال الحس ، أو الوهم ، عن بساط المعاني ، وترى أرض العظمة بارزة ظاهرة لا تخفى على أحد ، إلا على أكمه لا يبصر القمر فى حال كماله ، وحشرناهم إلى الحضرة القدسية ، فلم نغادر منهم ، أي :

ممن ذهب عنه الحس والوهم ، أحدا ، وعرضوا على ربك لشهود أنوار جماله وجلاله ، صفا ، للقيام بين يديه ، فيقول لهم : لقد جئتمونا من باب التجريد ، كما خلقناكم أول مرة ، مطهّرين من الدنس الحسى ، غائبين عن العلائق والعوائق ، وكنتم تزعمون أن هذا اللقاء لا يكون فى الدنيا ، وإنما موعده الجنة ، ومن مات عن شهود حسه ، وعن حظوظه ، حصل له الشهود واللقاء قبل الموت الحسى ، ووضع الكتاب فى حق أهل الحجاب ، فترى المجرمين من أهل الذنوب مشفقين مما فيه ، ووجود العبد : ذنب لا يقاس به ذنب ، فنصب الموازين ، ومناقشة الحساب إنما هو لأهل الحجاب ، وأما العارفون الفانون عن أنفسهم ، الباقون بربهم ، لم يبق لهم ما يحاسبون عليه إذ لا يشهدون لهم فعلا ،

ولا يرون لأحد قوة ولا حولا. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا كان سبب العذاب ووجود الحجاب هو التكبر على رب الأرباب ، ذكر وباله بإثر الحشر والحساب ، أو تقول :

لمّا ذكر قصة الرجلين ذكر قبح صنيع من افتخر بنفسه ، وأنه شبيه بإبليس ، وكل من افتخر واستنكف عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين كان داخلا فى حزبه. وقال الواحدي : ثم أمر اللّه تعالى نبيه أن يذكر لهؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما ورّثه الكبر ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٠ الى ٥١]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١)

قلت : (إِلَّا إِبْلِيسَ) : استثناء منقطع ، إذا قلنا : إن إبليس لم يكن من الملائكة ، وإذا قلنا : إنه منهم يكون متصلا ، ويكون معنى «كانَ» : صار ، أي : إلا إبليس صار من الجن لمّا امتنع من السجود ، أو بأن الملائكة كان منهم قوم يقال لهم الجن ، وهم الذين خلقوا من النار. وجملة (كانَ مِنَ الْجِنِّ) : استئنافية سيقت مساق التعليل ، كأنه قيل : ما له لم يسجد؟ فقيل : كان أصله جنّيا.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ أي : وقت قولنا لهم : اسْجُدُوا لِآدَمَ سجود تحية وتكريم ، فَسَجَدُوا جميعا امتثالا للأمر ، إِلَّا إِبْلِيسَ أبى واستكبر لأنه كانَ مِنَ الْجِنِّ ،

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٧٩

وكان رئيسهم فى الأرض ، فلما أفسدوا أرسل اللّه عليهم جندا من الملائكة ، فغزوهم ، فهربوا فى أقطار الأرض ، وأخذ إبليس أسيرا ، فعرجوا به إلى السماء ، فأسلم وتعبد فى أقطار السموات ، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع ونزع لأصله ، فَفَسَقَ أي : خرج عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أي : عن طاعته ، أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر اللّه تعالى إذ لو لا ذلك لما أبى ، والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله.

قال تعالى : أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أي : أولاده ، أو أتباعه ، وهم الشياطين ، جعلوا ذرية مجازا. وقال قتادة :

إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل : يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين.

والهمزة للإنكار والتعجب ، والفاء للتعقيب ، أي : أعقب علمكم بصدور تلك القبائح منه ، تتخذونه وذريته أَوْلِياءَ أحباء مِنْ دُونِي فتستبدلونهم ، وتطيعونهم بدل طاعتى ، والحال أنهم ، أي : إبليس وذريته لَكُمْ عَدُوٌّ أي : أعداء. وأفرد تشبيها له بالمصدر ، كالقبول والولوع ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ : الواضعين للشيء فى غير محله ، بَدَلًا استبدلوه من اللّه تعالى ، وهو إبليس وذريته. وفى الالتفات إلى الغيبة ، مع وضع الظاهر موضع الضمير ، من الإيذان بكمال السخط ، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ، ما لا يخفى.

ما أَشْهَدْتُهُمْ أي : ما أحضرت إبليس وذريته ، أو : جميع الكفار خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، حيث خلقتهما قبل خلقهم ، وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، كقوله : وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١». قاله البيضاوي.

قلت : الظاهر إبقاء الأنفس على ظاهرها ، أي : ما أحضرتهم خلق أنفسهم ، أي : ما كانوا حاضرين حين خلقت أنفسهم ، بل هم محدثون فى غاية العجز والجهل ، فكيف تتخذونهم أولياء من دونى؟ وفى الآية رد على المنجّمين الذين يخوضون فى أسرار غيب السموات بالتخمين ، وعلى الطبائعيين من الأطباء ومن سواهم ، من كل متخوض فى هذه الأشياء ، وعلى الكهّان وكل من يتطلع على الغيب بطريق الحدس ، والمصدقين لهم. انظر ابن عطية.

قال تعالى : وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ من الشياطين عَضُداً أي : أعوانا فى شأن الخلق ، أو فى شأن من شؤونى ، حتى تتخذوهم أولياء وتشركوهم فى عبادتى ، وكان الأصل أن يقول : وما كنت متخذهم ، فوقع المظهر موقع الضمير ذما لهم ، وتسجيلا عليهم بالإضلال ، وتأكيدا لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء ، وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذي لا يكاد يشتبه على أبلد الصبيان ، فيحتاجون إلى التصريح به. انظر أبا السعود.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٠

الإشارة : فى الآية تنفير من الاستكبار والترفع على عباد اللّه تشبيها بإبليس ، وحث على التواضع والخضوع للّه فى خلقه وتجلياته كيفما كانت ، وفيها أيضا الحض على إفراد الوجهة والمحبة للّه ، والتبري من كل ما سواه مما يشغل عن اللّه ، وفيها أيضا : النهى عن التطلع إلى ما لم يرد به من أسرار القدر نص صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسول اللّه من أسرار القدر ، وفيها أيضا : النهى عن

الاستعانة بأعداء اللّه فى أي شأن كان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر وبال من اتخذ وليّا غير اللّه ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]

وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (٥٣)

قلت : «مَوْبِقاً» : اسم مكان ، أو مصدر ، من : وبق وبوقا ، كوثب وثوبا ، ووبق وبقا ، كفرح فرحا.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَقُولُ الحق تعالى للكفار توبيخا وتعجيزا لهم : نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم ، والمراد بهم كل ما عبد من دون اللّه ، أو إبليس وذريته ، فَدَعَوْهُمْ أي : نادوهم للإغاثة ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ : فلم يغيثوهم ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ أي : بين الداعين والمدعوين مَوْبِقاً أي : مهلكا يهلكون فيه جميعا ، وهو النار ، وقيل : العداوة ، وهى نوع من الهلاك ، لقول عمر رضي اللّه عنه : «لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا» «١». وقيل : المراد بالبين : الوصل ، أي : وجعلنا وصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ، كقوله : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ «٢» ، وقيل : المراد بالشركاء : الملائكة ، وعزير ، وعيسى – عليهم السّلام – ، ويراد حينئذ بالموبق : البرزخ البعيد ، أي : وجعلنا بينهم وبين من عبدوهم برزخا بعيدا لأنهم فى قعر جهنم ، وهم فى أعلى عليين.

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ، وضع المظهر موضع المضمر تصريحا بإجرامهم ، وذما لهم ، أي : ورأوا النار فَظَنُّوا أي : أيقنوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها مخالطوها وواقعون فيها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً أي : انصرافا ومعدلا ينصرفون إليه ، نسأل اللّه السلامة من مواقع الهلاك.

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي ٢/ ٧٩٦ : «لم أقف عليه» ، ومعنى المثل : لا يكن حبك حبا مفرطا يؤدى إلى الولع والهيام ، وبغضك بغضا مفرطا يجر إلى التلف.

(٢) من الآية ٩٤ من سورة الأنعام.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨١

الإشارة : من اتخذ اللّه وليا ، بموالاة طاعته وإفراد محبته ، كان اللّه له وليا ونصيرا عند احتياجه وفاقته ، ومجيبا له عند دعائه واستغاثته ، ومن اتخذ وليّا غير اللّه خاب ظنه ومناه ، فإذا استغاث به جعل بينه وبين المستغيث به موبقا وبرزخا بعيدا ، ومن والى أولياء اللّه فإنما والى اللّه ، إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ «١». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر كفرهم بالقرآن ، مع كونه آية واضحة للعيان ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٤ الى ٥٩]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (٥٥) وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨)

وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (٥٩)

قلت : جَدَلًا : تمييز ، ورَبُّكَ : مبتدأ ، والْغَفُورُ : خبره ، وذُو الرَّحْمَةِ : خبر بعد خبر ، وقيل : الخبر : (لَوْ يُؤاخِذُهُمْ) ، والْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ : صفتان للمبتدأ ، ، وإيراد المغفرة على جهة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ، وأيضا : المغفرة ترك المؤاخذة ، وهى غير متناهية ، والرحمة فعل ، وهو متناهى ، وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية ، و(المهلك) بضم الميم وفتح اللام : اسم مصدر ، من أهلك ، فالمصدر ، على هذا ، مضاف للمفعول لأن الفعل متعد ، وقرئ بفتح الميم ، من هلك ، فالمصدر ، على هذا ، مضاف للفاعل.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَرَّفْنا أي : كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظر العجيب ، فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ لمصلحتهم ومنفعتهم ، مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من كل خبر يحتاجون إليه ، أو : من كل مثل

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

مضروب يعتبرون به ، ومن جملته ما مر من مثل الرجلين ، ومثل الحياة الدنيا. أو : من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان ، التي هى ، فى الغرابة والحسن واستجلاب القلوب ، كالمثل المضروب ، ليتلقوه بالقبول ، فلم يفعلوا. وَكانَ الْإِنْسانُ بحسب جبلّته أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا أي : أكثر الأشياء ، التي يتأتى منها الجدل ، جدلا ، وهو هنا شدة الخصومة بالباطل ، والمعنى : أن جدله أكثر من جدل كل مجادل ، وفيها ذم الجدل. وسببها :

مجادلة النضر بن الحارث كما قيل ، وهى عامة.

وَما مَنَعَ النَّاسَ أي : أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم ، من أَنْ يُؤْمِنُوا باللّه تعالى ، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك ، إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى أي : حين جاءهم القرآن الهادي إلى الإيمان ، بسبب ما فيه من فنون العلوم وأنواع الإعجاز ، فيؤمنوا ، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ عما فرط منهم من أنواع الذنوب ، التي من جملتها : مجادلتهم للحق بالباطل ، إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أي : ما منعهم إلا إتيان سنة الأولين ، وهو نزول العذاب المستأصل أو انتظاره ، فيكون على حذف مضاف ، أي : انتظار سنة الأولين ، وهو الهلاك.

قال ابن جزى : معناها أن المانع للناس من الإيمان والاستغفار هو القضاء عليهم بأن تأتيهم سنّة الأمم المتقدمة ، وهى الإهلاك فى الدنيا ، أو يأتيهم العذاب أي : عذاب الآخرة. هـ. قلت : والظاهر أن معنى الآية : ما منعهم من الإيمان إلا انتظار آية يرونها عيانا ، كعادة الأمم الماضية ، فيهلكوا كما هى سنّة اللّه فى خلقه ، أو : عذاب ينزل بهم جهرا ، وهو معنى قوله : أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا أي : مقابلة وعيانا.

قال تعالى : وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلى الأمم إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ أي : مبشرين للمؤمنين بالثواب ، ومنذرين للكافرين بالعقاب ، دون إظهار الآيات واقتراح المعجزات ، وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ باقتراح الآيات كالسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها. يفعلون ذلك لِيُدْحِضُوا بِهِ أي : بالجدال الْحَقَّ ، أي :

يزيلونه عن مركزه ويبطلونه ، من إدحاض القدم وهو إزلاقها. وجدالهم : قولهم لرسلهم عليهم السلام : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا «١» ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً «٢» ، ونحوها. وَاتَّخَذُوا آياتي التي تخرّ لها صمّ الجبال ، وهو القرآن ، وَما أُنْذِرُوا أي : وإنذارى لهم ، أو : الذي أنذروا به من العذاب والعقاب ، هُزُواً مهزوءا به ، أو محل استهزاء.

---

(١) الآية ١٥ من سورة يس.

(٢) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٣

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ وهو القرآن العظيم ، فَأَعْرَضَ عَنْها فلم يتدبرها ولم يؤمن بها ، أي : لا أحد أظلم منه لأنه أظلم من كل ظالم حيث ضم إلى المجادلة التكذيب والإعراض ، وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر والمعاصي ، ولم يتفكر فى عاقبتها ، إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً : أغطية كثيرة تمنعهم

من التدبر فى الآيات ، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ، فعل ذلك بهم كراهة أَنْ يَفْقَهُوهُ ، أو : منعناهم أن يقفوا على كنهه. وَجعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً أي : ثقلا يمنعهم من استماعه ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً أي : فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف للطبع المتقدم على قلوبهم ، وهذا فى قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

و«إِذاً» : حرف جزاء وجواب ، وهو ، هنا ، عن سؤال من النبي صلى اللّه عليه وسلم المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم ، كأنه قال صلى اللّه عليه وسلم : مالى لا أدعوهم؟ فقال : إن تدعهم ... إلخ.

وجمع الضمير الراجع إلى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه ، كما أن إفراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار اللفظ.

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ : البليغ المغفرة ذُو الرَّحْمَةِ الموصوف بها ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا من المعاصي ، التي من جملتها : ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل ، وإعراضهم عن آيات ربهم ، وعدم مبالاتهم بما اجترحوا من الموبقات ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ قبل يوم القيامة لاستجلاب أعمالهم لذلك ، والمراد : إمهال قريش ، مع إفراطهم فى عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ وهو يوم القيامة ، أو يوم بدر ، والمعطوف عليه ببل : محذوف ، أي : لكنهم ليسوا بمؤاخذين ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا أي : ملجأ يلتجئون إليه ، أو منجى ينجون به ، يقال : وأل : أي : نجا ، ووأل إليه : أي : التجأ إليه.

وَتِلْكَ الْقُرى أي : قرى عاد وثمود وأضرابها ، أي : وأهل تلك القرى أَهْلَكْناهُمْ بالعذاب لَمَّا ظَلَمُوا أي : وقت ظلمهم ، كما فعلت قريش بما حكى عنهم ، وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ أي : عيّنّا لهلاكهم مَوْعِداً أي : وقتا معينا ، لا محيد لهم عن ذلك ، فلتعتبر قريش بذلك ولا تغتر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد صرّف اللّه فى كتابة العزيز كل ما يحتاج إليه العباد ، من علم الظاهر والباطن ، لكن خوض القلوب فيما لا يعنى ، وكثرة مجادلتها بالباطل ، صرفتها عن فهم أسرار الكتاب واستخراج غوامضه. فمن صفت مرآة قلبه أدرك ذلك منه. وتصفيتها بصحبة أهل الصفاء ، وهم العارفون باللّه ، ولا تخلو الأرض منهم حتى يأتى أمر اللّه ، وما منع الناس من الإيمان بهم وتصديقهم إلا انتظارهم ظهور كرامتهم ، ونزول العذاب على من آذاهم ، وهو جهل بطريق الولاية لأنهم رحمة للعباد ، أرسلهم الحق تعالى فى كل زمان ، يذكّرون الناس بالتحذير والتبشير ، وبملاطفة الوعظ والتذكير ، فاتخذهم الناس وما ذكروا به هزوا ولعبا ، حيث حادوا عن تذكيرهم ، ونفروا عن

صحبتهم ، فلا أحد أظلم ممن ذكّر باللّه وبآياته ، فأعرض واستكبر ونسى ما قدمت يداه من المعاصي والأوزار ، سبب ذلك : جعل الأكنة على القلوب ، وسفح ران المعاصي والذنوب ، فلا يفقهون وعظا ولا تذكيرا ، ولا يستمعون تحذيرا ولا تبشيرا ، وإن تدعهم إلى الهدى والرجوع عن طريق الردى ، فلن يهتدوا إذا أبدا لما سبق لهم فى سابق القضاء ، فلو لا مغفرته العامة ، ورحمته التامة ، لعجل لهم العذاب ، لكن له وقت معلوم ، وأجل محتوم ، لا محيد عنه إذا جاء ، ولا ملجأ منه ولا منجا. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر الحق جل جلاله قصة أهل الكهف ، وكان وقع فيها عتاب للرسول – عليه الصلاة والسلام – حيث لم يستثن بتأخير الوحى ، وبقوله : وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ... إلخ ، ذكر هنا قصة موسى مع الخضر – عليهما السلام – وكان سببها عتاب الحق لموسى عليه السّلام حيث لم يردّ العلم إليه ، حين قال له القائل : هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال : لا ، فذكر الحق تعالى قصتهما تسلية لنبينا عليه الصلاة والسلام بمشاركة العتاب ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : آية ٦٠]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (٦٠)

قلت : لا أَبْرَحُ : ناقصة ، وخبرها : محذوف : اعتمادا على قرينة الحال إذ كان ذلك عن التوجه إلى السفر ، أي : لا أبرح أسير فى سفرى هذا ، ويجوز أن تكون تامة ، من زال يزول ، أي : لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السّلام ، وكان ابن أخته ، سمى فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه العلم. والفتى فى لغة العرب : الشاب ، ولمّا كانت الخدمة أكثر ما تكون من الفتيان ، قيل للخادم : فتى ، ويقال للتلميذ : فتى ، وإن كان شيخا ، إذا كان فى خدمة شيخه ، فقال موسى عليه السّلام : لا أَبْرَحُ : لا أزال أسير فى طلب هذا الرجل ، يعنى : الخضر عليه السّلام ، حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق ، وهذا مذهب الأكثر. وقال ابن جزى : مجمع البحرين :

عند «طنجة» حيث يتجمع البحر المحيط والبحر الخارج منه ، وهو بحر الأندلس. قلت : وهو قول كعب بن محمد القرظي. أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً أي : زمنا طويلا أتيقن معه فوات الطلب. والحقب : الدهر ، أو ثمانون سنة ، أو سبعون.

وسبب هذا السفر : أن موسى عليه السّلام لما ظهر على مصر ، بعد هلاك القبط ، أمره اللّه تعالى أن يذّكر قومه هذه النعمة ، فقام فيهم خطيبا بخطبة بليغة ، رقّت بها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقالوا له : من أعلم الناس؟ فقال : أنا.

وفى رواية : هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال : لا. فعتب اللّه عليه إذ لم يردّ العلم إليه عز وجل ، فأوحى اللّه إليه : أعلم

(٣/٢٨٤)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٥

منك عبد لى بمجمع البحرين ، وهو الخضر «١» ، وكان قبل موسى عليه السّلام ، وكان فى مقدّمة ذى القرنين ، فبقى إلى زمن موسى عليه السّلام ، وسيأتى ذكر التعريف به فى محله ، إن شاء اللّه.

وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : إن موسى عليه السّلام سأل ربه : أىّ عبادك أحب إليك؟ قال : الذي يذكرنى ولا ينسانى ، قال :

فأى عبادك أقضي؟ قال : الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : فأى عبادك أعلم؟ قال : الذي يستقى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ، قال : يا رب إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه؟ قال : أعلم منك الخضر ، قال : أين أطلبه؟ قال : على ساحل البحر عند الصخرة «٢». قال : يا رب ، كيف لى به؟ قال : خذ حوتا فى مكتل ، فحيثما فقدته فهو هناك ، فأخذ حوتا مشويا ، فجعله فى مكتل ، فقال لفتاه :

إذا فقدتّ الحوت فأخبرنى ، وذهبا يمشيان إلى أن اتصلا بالخضر ، على ما يأتى تمامه ، إن شاء اللّه تعالى. وحديث الخطبة هو الذي فى صحيح البخاري «٣» وغيره. واللّه تعالى أعلم أىّ ذلك كان.

الإشارة : قصة سيدنا موسى مع الخضر – عليهما السلام – هى السبب فى ظهور التمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، فأهل الظاهر قائمون بإصلاح الظواهر ، وأهل الباطن قائمون بتحقيق البواطن. أهل الظاهر مغترفون من بحر الشرائع ، وأهل الباطن مغترفون من بحر الحقائق. وقيل : هو المراد بمجمع البحرين ، حيث اجتمع سيدنا موسى ، الذي هو بحر الشرائع ، والخضر عليه السّلام ، الذي هو بحر الحقائق ، ولا يفهم أن سيدنا موسى عليه السّلام خال من بحر الحقائق ، بل كان جامعا كاملا ، وإنما أراد الحق تعالى أن ينزله إلى كمال الشرف ، بالتواضع فى طلب زيادة العلم تأديبا له وتربية ، حيث ادعى القوة فى نسبته العلم إلى نفسه ، وفى الحكم : «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين ، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين!».

وهذه عادة اللّه تعالى مع خواصّ أحبائه ، إذا أظهروا شيئا من القوة ، أو خرجوا عن حد العبودية ، ولو أنملة ، أدبهم بأصغر منهم علما وحالا عناية بهم ، وتشريفا لهم لئلا يقفوا دون ذروة الكمال ، كقضية الشاذلى مع المرأة التي قالت له : تمنّ على ربك بجوع ثمانين يوما ، وأنا لى تسعة أشهر ماذقت شيئا. وكقضية الجنيد والسّري فى جماعة من الصوفية ، حيث تكلموا فى المحبة ، وفاض كل واحد على قدر

اتساع بحره فيها ، فقامت امرأة بالباب ، عليها جبة صوف ، فردت على كل واحد ما قال ، حيث أظهروا قوة علمهم ، فأدبهم بامرأة.

ويؤخذ من طلب موسى الخضر – عليهما السلام – والسفر إليه : الترغيب فى العلم ، ولا سيما علم الباطن ، فطلبه أمر مؤكد. قال الغزالي رضي اللّه عنه : هو فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب أو اصرار على ذنب ، إلا الأنبياء – عليهم السلام – وقد قال الشاذلى رضي اللّه عنه : من لم يغلغل فى علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرج حديث موسى والخضر ، البخاري فى مواضع منا : (العلم ، باب ما ذكر فى ذهاب موسى عليه السّلام فى البحر إلى خضر) ، و(أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر) ، و(التفسير ، سورة الكهف) ، ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل الخضر).

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (١٥/ ٢٧٧) وعزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٤٢٣) لابن المنذر ، وابن أبى حاتم فى التفسير.

(٣) أخرج البخاري حديث الخطبة فى (تفسير سورة الكهف ، باب «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما») ، عن أبيّ بن كعب.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٦

ثم ذكر بقية القصة ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦١ الى ٦٥]

فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (٦٢) قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (٦٤) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥)

قلت : بَيْنِهِما : ظرف مضاف إليه اتساعا ، أو بمعنى الوصل ، وسَرَباً : مفعول ثان لاتخذ ، وإِذْ أَوَيْنا : متعلق بمحذوف ، أي : أخبرنى ما دهانى حين أويت إلى الصخرة حتى لم أخبرك بأمر الحوت ، فإنى نسيت أن أذكر لك أمره. وأَنْ أَذْكُرَهُ : بدل من الهاء فى (أَنْسانِيهُ) بدل اشتمال للمبالغة ، وعَجَباً : مفعول ثان لاتخذ ، وقيل : إن الكلام قد تم عند قوله : (فِي الْبَحْرِ) ، ثم ابتدأ التعجب فقال : (عَجَباً) أي : أعجب عجبا ، وهو بعيد. قاله ابن جزى. قلت : وهذا البعيد هو الذي ارتكب الهبطى.

و(قَصَصاً) : مصدر ، أي : يقصان قصصا.

يقول الحق جل جلاله : ثم إن موسى ويوشع – عليهما السلام – حملا حوتا مشويا وخبزا ، وسارا يلتمسان الخضر ، فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما بين البحرين ، أو مجمع وصل بعضهما ببعض ، وجدا صخرة هناك ، وعندها عين الحياة ، لا يصيب ذلك الماء شيئا إلا حيي بإذن اللّه ، وكانا وصلا إليها ليلا ، فناما ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطرب فى المكتل ، ودخل البحر ، وقد كانا أكلا منه ، وكان ذلك بعد استيقاظ يوشع ، وقيل : توضأ عليه السّلام من تلك العين ، فانتضح الماء على الحوت ، فحيي ودخل البحر ، فاستيقظ موسى ، وذهبا ، ونَسِيا حُوتَهُما أي : نسيا تفقد أمره وما يكون منه ، أو نسى يوشع أن يعلمه ، وموسى عليه السّلام أن يأمر فيه بشيء ، فَاتَّخَذَ الحوت سَبِيلَهُ أي : طريقه فِي الْبَحْرِ سَرَباً مسلكا كالطّاق ، قيل : أمسك اللّه جرية الماء على الحوت فجمد ، حتى صار كالطاق فى الماء معجزة لموسى أو الخضر – عليهما السلام.

فَلَمَّا جاوَزا مجمع البحرين ، الذي جعل موعدا للملاقاة ، وسارا بقية ليلتهما ويومهما إلى الظهر ، وجد موسى عليه السّلام حرّ الجوع ، ف قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا أي : ما نتغدى به ، وهو الحوت ، كما ينبئ عنه الجواب ، لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً : تعبا وإعياء. قيل : لم ينصب موسى ولم يجع قبل ذلك ، ويدل عليه الإتيان بالإشارة ، وجملة (لَقَدْ لَقِينا) : تعليل للأمر بإيتاء الغذاء ، إما باعتبار أن النّصب إنما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع ، وإمّا باعتبار ما فى أثناء التغذي من استراحة ما.

(٣/٢٨٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٨٧

قالَ فتاه عليه السّلام : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ أي : التجأنا إليها ونمنا عندها ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ أي : أخبرنى ما دهانى حتى لم أذكر لك أمر الحوت ، فإنى نسيت أن أذكر لك أمره ، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السّلام مما اعتراه من النسيان ، مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى ، وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ بوسوسته الشاغلة له عن ذلك ، أَنْ أَذْكُرَهُ ، ونسبته للشيطان هضما لنفسه ، واستعمال الأدب فى نسبة النقائص إلى الشيطان ، وإن كان الكل من عند اللّه. وهذه الحالة ، وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها ، لكنه قد تعود بمشاهدة أمثالها من الخوارق مع موسى عليه السّلام ، وألفها قبل اهتمامه بالمحافظة عليها ، أو لاستغراقه وانجذاب سره إلى جناب القدس ، حتى غاب عن الإخبار بها.

قلت : والظاهر أن نسيانه كان أمرا إلهيا قهريا بلا سبب ، وحكمته ما لقى من النصب لتعظم حلاوة العلم الذي يأخذه عن الخضر عليه السّلام ، فإن المساق بعد التعب ألذ من المساق بغير تعب ،

ولذلك : «حفت الجنة بالمكاره».

ثم قال : وَاتَّخَذَ الحوت سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ، فيه حذف ، أي : فحيى الحوت ، واضطرب ، ووقع فى البحر ، واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا ، أو اتخاذا عجبا يتعجب منه ، وهو كون مسلكه كالطاق ، قالَ موسى عليه السّلام : ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ أي : ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو الذي كنا نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام ، فَارْتَدَّا أي : رجعا عَلى طريقهما الذي جاءا منه ، يقصّان. يتبعان آثارِهِما قَصَصاً ، حتى أتيا الصخرة فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا ، التنكير للتفخيم والإضافة للتعظيم ، وهو الخضر عليه السّلام عند الجمهور ، واسمه : بليا بن ملكان يعصوا ، والخضر لقب له لأنه جلس على فروة بيضاء فاهتزّت تحته خضراء ، كما فى حديث أبى هريرة عنه – صلى اللّه عليه وسلم «١».

وقال مجاهد : سمى خضرا لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، ثم قال : وهو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وكان أبوه ملكا. هـ. وفى الحديث أن النبي صلى اللّه عليه وسلم ذكر قصة الخضر ، فقال : كان ابن ملك من الملوك ، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده ، فأبى وهرب ، ولحق بجزائر البحر ، فلم يقدر عليه. قيل : إنه شرب من عين الحياة فمتع بطول الحياة.

روى أن موسى عليه السّلام حين انتهى إلى الصخرة رأى الخضر عليه السّلام على طنفسة – أي : بساط – على وجه الماء ، فسلم عليه. وعنه – عليه الصلاة والسّلام – أنه قال : انتهى موسى إلى الخضر ، وهو نائم مسجى عليه ثوب ، فسلّم عليه فاستوى جالسا ، وقال : عليك السّلام يا نبى بنى إسرائيل ، فقال موسى : من أخبرك أنى نبى بنى إسرائيل؟ قال :

الذي أدراك بي ، وذلك عليّ.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى).

قال تعالى فى حق الخضر : آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، هى الوحى والنبوة ، كما يشعر به تنكير الرحمة ، وإضافتها إلى جناب الكبرياء ، وقيل : هى سر الخصوصية ، وهى الولاية. وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً خاصا ، لا يكتنه كنهه ، ولا يقدر قدره ، وهو علم الغيوب ، أو أسرار الحقيقة ، أو علم الذات والصفات ، علما حقيقيا. فالخضر عليه السّلام قيل : إنه نبى بدليل قوله فيما يأتى : وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، وقيل : وليّ ، واختلف : هل مات ، أو هو حى؟

وجمهور الأولياء : أنه حي ، وقد لقيه كثير من الصلحاء والأولياء ، حتى تواتر عنهم حياته «١». واللّه

تعالى أعلم.

الإشارة : إنما صار الحوت دليلا لسيدنا موسى عليه السّلام بعد موته وخروجه عن إلفه ، ثم حيى حياة خصوصية لمّا أنفق عليه من عين الحياة ، كذلك العارف لا يكون دالا على اللّه ، وإماما يقتدى به حتى يموت عن شهود حسه ، ويخرق عوائد نفسه ، ويفنى عن بشريته ، ويبقى بربه ، حينئذ تحيا روحه بشهود عظمة ربه ، ويصير إماما ودليلا موصلا إليه ، ويظهر منه خرق العوائد ، كما ظهر من الحوت ، حيث أمسك عن الماء الجرية فصار كالطّاق ، وذلك اقتدار ، وإلى ذلك تشير أحوال الخضر ، فكان الحوت مظهرا لحاله فى تلك القصة. قاله فى الحاشية بمعناه.

وقال قبل ذلك فى قوله : وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً : أي اتخذ الحوت ، وجوّز كون فاعل (اتَّخَذَ) : موسى ، أي : اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبا وخرق عادة بأن مشى على الماء فى طريق الحوت ، حتى وجد الخضر على كبد البحر. ثم قال : وعلى الجملة : فالقضية تشير من جهة الخضر : للاقتدار وإسقاط الأسباب ، ومن جهة موسى : لإثبات الأسباب حكمة ، وحالة الاقتدار أشرف ، وصاحب الحكمة أكمل ونفعه عام ، بخلاف الآخر ، فإن نفعه خاص. هـ.

وقوله تعالى : وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ، العلم اللدني : هو الذي يفيض على القلب من غير اكتساب ولا تعلم ، قال عليه الصلاة والسّلام : «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم». وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والرذائل ، وتفرغه من العلائق والشواغل ، فإذا كمل تطهير القلب ، وانجذب إلى حضرة الرب ، فاضت عليه العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول ، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول ، بل تسلم لأربابها ، من غير أن يقتدى بهم فى أمرها ، ومنها ما تفيض عليهم فى جانب علم الغيوب كمواقع القدر وحدوث الكائنات المستقبلة ، ومنها ما تفيض عليهم فى علوم الشرائع وأسرار الأحكام ، ومنها فى أسرار الحروف وخواص الأشياء ، إلى غير ذلك من علوم اللّه تعالى. وباللّه التوفيق.

---

(١) بين أهل العلم خلاف فى شأن الخضر ، هل هو نبى أم لا؟ وهل هو حى أم لا؟ ... راجع فى ذلك تفسير : ابن كثير (٣/ ٩٩) ، وفتح الباري (٦/ ٤٣٤) ، والمعالم الصوفية فى قصة سيدنا موسى والخضر ، للأستاذ الدكتور جودة المهدى ، فى حولية كلية أصول الدين بطنطا ، العدد الأول ، / ١٩٨٧ م.

ثم تمم قصتهما بعد التقائهما ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦٦ الى ٧٠]

قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (٦٩) قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠)

قلت : «رُشْداً» : مفعول ثانى لعلمت ، أو : علة لأتبعك ، أو : مصدر بإضمار فعله ، أو : حال من كاف «أَتَّبِعُكَ» ، أو :

على إسقاط الخافض ، أي : من الرشد ، وفيه لغتان : ضم الراء وسكون الشين ، وفتحهما ، وهو : إصابة الخير ، وخُبْراً : تمييز محول عن الفاعل ، أي : لم يحط به خبرك. و«لا أَعْصِي» : عطف على : «صابِراً».

يقول الحق جل جلاله : ولما اتصل موسى بالخضر – عليهما السّلام – استأذنه فى صحبته ليتعلم منه ، ملاطفة وأدبا وتواضعا ، وكذلك ينبغى لمن يريد التعلم من المشايخ : أن يتأدب ويتواضع معهم. قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً أي : مما علمك اللّه من العلم الذي يدل على الرشد وإصابة الصواب ، لعلى أرشد به فى دينى. ولا ينافى كونه نبيا ذا شريعة أن يتعلم من غيره من أسرار العلوم الخفية إذ لا نهاية لعلمه تعالى ، وقد قال له تعالى فيما تقدم : أعلم الناس من يبتغى علم غيره إلى علمه. روى أنهما لما التقيا جلسا يتحدثان ، فجاءت خطافة أو عصفور فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، فقال الخضر : يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض؟ ما علمك وعلمى وعلم الأولين والآخرين فى جنب علم اللّه إلا أقل من الماء الذي حمله هذا العصفور.

ولمّا سأله صحبته قالَ له : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً لأنك رسول مكلف بحفظ ظواهر الشرائع ، وأنا أطلعنى اللّه تعالى على أمور خفية ، لا تتمالك أن تصبر عنها لمخالفة ظاهرها للشريعة. وفى صحيح البخاري :

«قال له الخضر : يا موسى ، إنى على علم من علم اللّه علّمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم اللّه علّمكه اللّه ، لا أعلمه» «١».

ثم علل عدم صبره بقوله : وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً؟ لأنى أتولى أمورا خفية لا خبر لك بها ، وصاحب الشريعة لا يسلم لصاحب الحقيقة العارية من الشريعة ، قالَ له موسى عليه السّلام : سَتَجِدُنِي إِنْ

---

(١) جاء ذلك فى رواية البخاري ، التي أخرجها فى (العلم ، باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أىّ الناس أعلم)؟ من حديث أبىّ بن كعب. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩٠

شاءَ اللَّهُ صابِراً معك ، غير معترض عليك. وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ، ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر ، وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، هو داخل فى الاستثناء ، أي : ستجدنى إن شاء اللّه صابرا وغير عاص.

وقال القشيري : وعد من نفسه شيئين : الصبر ، وألّا يعصيه فيما يأمره به. فأما الصبر فقرنه بالمشيئة ، حتى وجده صابرا ، فلم يقبض على يدى الخضر فيما كان منه من الفعل. والثاني قال : وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ، فأطلق ولم يستثن ، فعصى ، حيث قال له الخضر : فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ، فكان يسأله ، فبالاستثناء لم يخالف ، وبالإطلاق خالف. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وفيه نظر للحديث الصحيح : «يرحم اللّه موسى ، لو صبر ...» مع أن قوله : «ولا أعصى ...» إلخ ، غير خارج عن الاستثناء ، كما تقدم ، وإن احتمل خروجه ، والظاهر :

أن الاستثناء ، كالدعاء ، إنما ينفع إذا صادف القدر ، وهو هنا لم يصادف ، مع أنه هنا عارضه علم الخضر بكونه لم يصبر من قوله : لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، وقد أراد اللّه نفوذ علم الخضر. هـ.

وقال ابن البنا : أن العهد إنما هو على قدر الاستطاعة ، وإن الوفاء بالملتزم إنما يكون فيما لا يخالف الشرع ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق لأن موسى عليه السّلام لم يلتزم إلا ذلك. ولمّا رأى ما هو محرم تكلم .. فافهم. هـ.

ثم شرط عليه التسليم لما يرى ، فقال : فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ تشاهده من أفعالى ، فهمته أم لا ، أي : لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته ، فضلا عن مناقشته واعتراضه ، حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً حتى أبتدى بيانه لك وحكمته ، وفيه إيذان بأن ما يصدر منه له حكمة خفية ، وعاقبة صالحة. وهذا من أدب المتعلم مع العالم ، والتابع مع المتبوع ، أنه لا يعترض على شيخه بل يسأل مسترشدا بملاطفة وأدب ، وهذا فى العلم الظاهر.

وسيأتى فى الإشارة ما يتعلق بعلم الباطن.

الإشارة : قد أخذ الصوفية – رضى اللّه عنهم – آداب المريد مع الشيخ من قضية الخضر مع موسى – عليهما السّلام – فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم ، حتى لو قال لشيخه : لم؟ لم يفلح أبدا ، سواء رأى من شيخه منكرا أو غيره ، ولعله اختبار له فى صدقه ، أو اطلع على باطن الأمر فيه ، فأحوالهم خضرية ، فالمريد الصادق يسلم لشيخه فى كل ما يرى ، ويمتثل أمره فى كل شىء ، فهم وجه الشريعة فيه أم لا ، هذا فى علم الباطن ، وأما علم الظاهر فمبنى على البحث والتفتيش ، مع ملاطفة وتعظيم.

قال الورتجبي : امتحن الحق تعالى موسى عليه السّلام بصحبة الخضر لاستقامة الطريقة ولتقويم السنة فى متابعة المشايخ ، ويكون أسوة للمريدين والقاصدين فى خدمتهم أشياخ الطريقة. هـ. قال القشيري فى قوله : (فلا تسألن عن شى ء) : قال :

ليس للمريد أن يقول لشيخه : لم ، ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه ، ولا للعامى أن يقول للمفتى فيما يفتى ويحكم : لم. هـ.

(٣/٢٩٠)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩١

وقال ابن البنا فى تفسيره : يؤخذ من هذه القصة : ترك الاعتراض على أولياء اللّه إذا ظهر منهم شىء مخالف للظاهر لأنهم فيه على دليل غير ظاهر لغيرهم ، اللهم إلا أن يدعوك إلى اتباعه ، فلا تتبعه إلا عن دليل ، ويسلم له فى حاله ، ولا تعترض عليه ، ولا يمنعك ذلك من طلب العلم والتعلم منه ، وإن كنت لا تعمل بعمله لأنه لا يجب عليك تقيده إلا عن دليل ، فلا تعمل مثل عمله ، وأنت ترى أنه مخالف لك فى ظنك ، ولا علم لك بحقيقة باطن الأمر ، فلا تقف ما ليس لك به علم. واللّه الموفق والمرشد. هـ.

قلت : ما ذكره إنما هو فى حق من لم يدخل تحت تربيته ، فإنما هو طالب علم أو تبرك ، وأما من التزم صحبته على طريق التربية فلا يتأخر عن امتثال ما أمره به ، كيفما كان ، نعم ، إن لم ينبغ التوقف والتأنى فى الاقتداء به.

وقال فى القوت فى قوله : فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ : الشيء فى هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم ، الذي علمه الخضر عليه السّلام من لدنه ، لا يصلح أن يسأل عنه ، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية ، لا يوكل إلى العقول ، بل يخص به المراد المحمول. هـ.

قال المحشى الفاسى : وهو – أي : المحمول – ما يرشق فيهم من وصف الحق وقدرته ، فيتصرفون ، وهم فى الحقيقة مصرّفون ، وهؤلاء هم أهل القبضة ، الذين علّمهم سرّ الحقيقة ، فلهم قدرة لنفوذ شعاعها فيهم ، فتتكوّن لهم الأشياء ، وتنفعل لحملهم سر الحقيقة وظهورها لهم وفيهم ، وهم كما قال : مرادون محمولون ، فما يجرى عليهم :

قدر وَما رَمَيْتَ ... الآية. هـ.

ثم ذكر ما أراه من الخوارق ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧١ الى ٧٧]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧١) قالَ أَلَمْ

أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (٧٤) قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥)

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧)

(٢٩١/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩٢

قلت : ضمّن ركوب السفينة معنى الدخول فيها ، فعداه بفي ، وقد تركه على أصله فى قوله : لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً «١».

يقول الحق جل جلاله : فَانْطَلَقا أي : موسى والخضر ، وسكت عن الخادم لكونه تبعا ، وقيل : إن يوشع لم يصحبهما ، بل رجع ، فصارا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهم سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر ، فحملوهم بغير نول ، فلما لجّجوا البحر أخذ الخضر فأسا فخرق السفينة ، فقلع لوحا أو لوحين مما يلى الماء ، فحشاها موسى بثوبه ، وقالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها أو : ليغرق أهلها «٢» ، لَقَدْ جِئْتَ أي : أتيت وفعلت ، شَيْئاً إِمْراً أي : عظيما هائلا ، يقال : أمر الأمر : عظم ، قالَ الخضر : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً تذكيرا لما قاله له من قبل ، وإنكارا لعدم الوفاء بالعهد ، قالَ موسى عليه السّلام : لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ أي :

بنسياني ، أو بالذي نسيته ، وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه ، أراد : نسى وصيته ، ولا مؤاخذة على الناسي ، وفى الحديث : «كانت الأولى من موسى نسيانا». أو : أراد بالنسيان الترك ، أي : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة. وَلا تُرْهِقْنِي أي : لا تغشنى ولا تحمّلنى مِنْ أَمْرِي ، وهو اتباعك ، عُسْراً أي : لا تعسّر علىّ فى متابعتك ، بل يسرها علىّ بالإغضاء والمسامحة.

فَانْطَلَقا أي : فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قيل : كان يلعب مع الغلمان ففتل عنقه ، وقيل : ضرب رأسه بحجر ، وقيل : ذبحه ، والأول أصح لوروده فى الصحيح ، روى أن اسم الغلام «جيسور» بالجيم ، وقيل : بالحاء المهملة ، فإن قلت : لم قال خَرَقَها بغير فاء ، وقال فَقَتَلَهُ بالفاء؟ فالجواب :

أن «خرقها» : جواب الشرط ، وقتله : من جملة الشرط ، معطوفا عليه ، والجزاء هو قوله : (قالَ

أَقَتَلْتَ) ، فإن قلت : لم خولف بينهما؟ فالجواب : أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. هـ. وأصله للزمخشرى.

وقال البيضاوي : ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء ، واعتراض موسى عليه السّلام مستأنفا فى الأولى ، وفى الثانية فَقَتَلَهُ من جملة الشرط ، واعتراضه جزاء لأن القتل أقبح ، والاعتراض عليه أدخل ، فكان جديرا بأن يجعل عمدة الكلام ، ولذلك وصله بقوله : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً أي : منكرا. هـ.

وناقشه أبو السعود بما يطول ذكره.

---

(١) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٢) بفتح الياء والراء ، على الغيب ، وأهلها : بالرفع على الفاعلية ، وهى قراءة حمزة والكسائي ، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الراء ، مخففة مع سكون الغين على الخطاب ، وأهلها بالنصب على المفعولية .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢١).

قالَ موسى عليه السّلام فى اعتراضه : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً «١» : طاهرة من الذنوب ، وقرئ بغير ألف مبالغة ، بِغَيْرِ نَفْسٍ أي : بغير قتل نفس محرمة ، فيكون قصاصا. وتخصيص نفى هذا القبيح بالذكر من بين سائر القبيحات من الكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد إحصان لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا لحال الغلام. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً أي : منكرا ، قيل : أنكر من الأول ، إذ لا يمكن تداركه ، كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه. وقيل :

«الإمر» أعظم لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة.

قالَ له الخضر عليه السّلام : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، زاد «لَكَ» لزيادة تأكيد المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر ، لما تكرر منه الإنكار ، ولم يرعو بالتذكير ، حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية بذكر المنكر. قالَ موسى عليه السّلام : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها بعد هذه المرة فَلا تُصاحِبْنِي إن سألت صحبتك ، وقرأ يعقوب : «فلا تصحبنى» رباعيا ، أي : لا تجعلنى صاحبا لك ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً أي : قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا فى مفارقتى ، حيث خالفتك ثلاث مرات.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يرحم اللّه أخى موسى ، استحيا ، فقال ذلك ، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» «٢».

وفى البخاري : «وددنا لو صبر موسى ، حتى يقص اللّه علينا من أمرهما» «٣».

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ ، هى أنطاكية ، وقيل : أيلة ، وقيل الأبلة ، وهى أبعد أرض اللّه من السماء ، وقيل : برقة ، وقال أبو هريرة وغيره : هى بالأندلس. ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. قلت : وهى التي تسمى اليوم طريفة ، وأصلها بالظاء المشالة. وذلك على قول أن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «كانوا أهل قرية لئاما». وقال قتادة : شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف ، ولا يعرف لابن السبيل حقه.

ثم وصف القرية بقوله : اسْتَطْعَما أَهْلَها أي : طلبا منهم طعاما ، ولم يقل : استطعماهم ، على أن يكون صفة لأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم ، فإن الإباء من الضيافة ، مع كونهم أهلها قاطنين بها ، أشنع وأقبح.

روى أنهما طافا بالقرية يطلبان الطعام ، فلم يطعموهما. واستضافاهم فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما بالتشديد ، وقرئ بالتخفيف. يقال : ضافه : إذا كان له ضيفا ، أضافه وضيّفه : أنزله ضيفا. وأصل الإضافة : الميل ، من : ضاف السهم

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر : «زاكية» بألف بعد الزاى ، وتخفيف الياء ، اسم فاعل من «زكا» ، وقرأ الباقون : «زكية» بتشديد الياء من غير ألف ... انظر الإتحاف ٢/ ٢٢١.

(٢) أخرجه ، بنحوه ، أبو داود فى (الحروف والقراءات ح ٢٩٨٤) ، وأصل الحديث فى صحيح مسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل الخضر) .. فى سياق طويل.

(٣) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الكهف).

عن الغرض : مال ، ونظيره : زاره ، من الازورار ، أي : الميل. فبينما هما يمشيان ، فَوَجَدا فِيها جِداراً ، قال وهب : كان طوله مائة ذراع ، يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ أي : يسقط ، استعار الإرادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك ، والانقضاض : الإسراع فى السقوط ، وهو انفعال ، من القض ، يقال : قضضته فانقض ، ومنه : انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة. وقرئ : أن ينقاض ، من انقاضت السنّ : إذا سقطت طولا. فَأَقامَهُ قيل : مسحه بيده فقام ، وقيل : نقضه وبناه ، وهو بعيد. قالَ له موسى : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً نتعشى به ، وهو تحريض له على أخذ الجعل ، أو تعريض بأنه فضول ، وكأنه لمّا رأى الحرمان ومساس الحاجة كان اشتغاله بذلك فى ذلك الوقت مما لا يعنى ، فلم يتمالك الصبر

عليه.

قال ابن التين : إن الثالثة كانت نسيانا لأنه يبعد الإنكار لأمر مشروع ، وهو الإحسان لمن أساء. هـ.

وفيه نظر فقد قال القشيري فى تفسير الآية : لم يقل موسى : إنك ألممت بمحظور ، ولكن قال : لو شئت ، أي : فإن لم تأخذ بسببك فهلا أخذت بسببنا ، فكان أخذ الأجر خيرا من الترك ، ولئن وجب حقّهم فلم أخللت بحقنا؟ ويقال : إنّ سفره ذلك كان سفر تأديب ، فردّ إلى تحمّل المشقة ، وإلّا فهو نسى ، حيث سقى لبنات شعيب ، وكان ما أصابه من التعب والجوع أكثر ، ولكنه كان فى ذلك الوقت محمولا ، وفى هذا الوقت متحمّلا. هـ.

قلت : لأن الحق تعالى أراد تأديبه فلم يحمل عنه ، فكان سالكا محضا ، وفى وقت السقي : كان مجذوبا محمولا عنه.

ثم قال القشيري : وكما أن موسى كان يحب صحبة الخضر لما له فيه من غرض استزادة من العلم ، كان الخضر يحب ترك صحبته إيثارا للخلوة باللّه عنه. هـ. قاله فى الحاشية الفاسية.

الإشارة : يؤخذ من خرق السفينة أن المريد لا تفيض عليه العلوم اللدنية والأسرار الربانية حتى يخرق عوائد نفسه ، ويعيب سفينة وجوده ، بتخريب ظاهره ، حتى لا يقبله أحد «١» ، ولا يقبل عليه أحد ، فبذلك يخلو بقلبه ويستقيم على ذكر ربه ، وأما مادام ظاهره متزينا بلباس العوائد ، فلا يطمع فى ورود المواهب والفوائد.

ويؤخذ من قتل الغلام : أنه لا بد من قتل الهوى ، وكل ما فيه حظ للنفس والشيطان ، والطريق فى ذلك أن تنظر ما يثقل على النفس فتحمله لها ، وما يخف عليها فتحجزها عنه ، حتى لا يثقل عليها شىء من الحق.

ويؤخذ من إقامة الجدار رسم الشرائع قياما بآداب العبودية ، وصونا لكنز أسرار الربوبية. ويؤخذ منه أيضا :

الإحسان لمن أساء إليه ، فإن أهل القرية أساءوا بترك ضيافة الخضر ، فقابلهم بالإحسان حيث أقام جدارهم.

واللّه تعالى أعلم.

---

(١) فى هذا الكلام نظر.

ثم ذكر افتراقهما ، وبيان الحكمة فى تلك الخوارق التي فعل ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧٨ الى ٨٢]

قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)

قلت : هذا ، الإشارة إما إلى نفس الفراق ، كقولك : هذا أخوك ، أو إلى الوقت الحاضر ، أي : هذا وقت الفراق.

أو إلى السؤال الثالث. و(بَيْنِي) : ظرف مضاف إليه المصدر مجازا ، وقرئ بالنصب ، على الأصل ، وغَصْباً :

مصدر نوعي ليأخذ.

يقول الحق جل جلاله : قالَ الخضر عليه السّلام : هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ فلا تصحبنى بعد هذا ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً أي : سأخبرك بالخبر الباطن ، فيما لم تستطع عليه صبرا لكونه منكرا فى الظاهر ، فالتأويل : رجوع الشيء إلى مآله ، والمراد هنا : المآل والعاقبة ، وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شره ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز ، وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعته ، ولم يقل : «بتأويل ما رأيت» نوع تعريض به ، وعتابه عليه السّلام.

ثم جعل يفسر له ، فقال : أَمَّا السَّفِينَةُ التي خرقتها ، فَكانَتْ لِمَساكِينَ : ضعفاء ، لا يقدرون على مدافعة الظلمة ، فسماهم مساكين لذلهم وضعفهم ، ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «اللّهمّ أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرني فى زمرة المساكين» «١». فلم يرد مسكنة الفقر ، وإنما أراد التواضع والخضوع ، أي : احشرني مخبتا متواضعا ، غير جبار ولا متكبر ، وقيل : كانت السفينة لعشرة إخوة : خمسة زمنى»

، وخمسة يَعْمَلُونَ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد ، باب مجالسة الفقراء).

(٢) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد ، باب مجالسة الفقراء).

(٣/٢٩٥)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٢٩٦

الْبَحْرِ. وإسناد العمل إلى الكل ، حينئذ ، بطريق التغليب ، ولأن عمل الوكيل بمنزلة الموكل. فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها : أجعلها ذات عيب ، «١» وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ أي : أمامهم ، وقرئ به ، أو خلفهم ، وكان رجوعهم عليه لا محالة ، وكان اسمه : «جلندى بن كركر» وقيل : «هدد بن بدد» ، قال ابن عطية : وهذا كله غير ثابت ، يعنى : تسمية الملك. يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالحة ، وقرئ به ، غَصْباً من أصحابها. وكان حق النظم أن يتأخر بيان إرادة التعيّب عن خوف الغصب ، فيقول : فكانت لمساكين ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة ، فأردت أن أعيبها لأن إرادة التعيب مسبّب عن خوف الغصب ، وإنما قدّم للاعتناء بشأنها إذ هى المحتاجة إلى التأويل ، ولأن فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها ، مع توهم رجوعه إلى الأقرب. قال البيضاوي : ومبنى ذلك – أي : التعيب وخوف الغصب – على أنه متى تعارض ضرران يجب حمل أهونهما بدفع أعظمهما ، وهو أصل ممهد ، غير أن الشرائع فى تفاصيله مختلفة. هـ.

وَأَمَّا الْغُلامُ الذي قتلته ، فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ وقد طبع هو كافرا ، وإنما لم يصرح بكفره لعدم الحاجة إليه لظهوره من قوله : فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما : فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طُغْياناً عليهما وَكُفْراً بنعمتهما لعقوقه وسوء صنيعه ، فيلحقهما شرا ، أو لشدة محبتهما له فيحملهما على طاعته ، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره ، فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر ، فلعله يميلهما إلى رأيه فيرتدا. وإنما خشى الخضر عليه السّلام منه ذلك لأن اللّه سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على عاقبة أمره ، وقرئ : «فخاف ربك» ، أي : كره سبحانه كراهية من خاف سوء عاقبة الأمر. ويجوز أن يكون القراءة المشهورة من قول اللّه سبحانه على الحكاية ، أي فكرهنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ بأن يرزقهما بدله ولدا خَيْراً مِنْهُ زَكاةً : طهارة من الذنوب والأخلاق الردية ، وَأَقْرَبَ رُحْماً أي : رحمة وعطفا ، وفى التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على وصول الخير إليهما ، فلذلك قيل : ولدت لهما جارية ، تزوجها نبى من الأنبياء فولدت نبيا ، هدى اللّه تعالى على يديه أمة من الأمم ، وقيل : ولدت سبعين نبيا ، وقيل : أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما.

وَأَمَّا الْجِدارُ الذي أقمت فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ أي : القرية المذكورة فيما سبق ، ولعل التعبير عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح ، قيل : اسم

اليتيمين :
أصرم وصريم. وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما من فضة وذهب ، كما فى الحديث «٢» ، والذم على كنزهما إنما هو لمن لم يؤد زكاته ، مع أن هذه شريعة أخرى. قال ابن عباس : (كان لوحا من ذهب ، مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن

---

(١) أي : مرضى بمرض مزمن.
(٢) أخرجه الترمذي فى (تفسير سورة الكهف) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٦٩) ، عن أبى الدرداء مرفوعا.

بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله الا اللّه ، محمد رسول اللّه) «١». وقيل : كانت صحفا فيها علم مدفون.
وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً ، فيه تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاح أبيهما ، وفيه دليل على أن اللّه تعالى يحفظ أولياءه فى ذريتهم ، قيل : كان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر : (إن اللّه تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده ، وولد ولده ، ومسربته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فلا يزالون فى حفظ اللّه وستره). وكان سعيد بن المسيب يقول لولده : إنى لأزيد فى صلاتى من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيك ، ويتلو هذه الآية. وفى الحديث : «ما أحسن أحد الخلافة فى ماله إلا أحسن اللّه الخلافة فى تركته» «٢». ويؤخذ من الآية :
القيام بحق أولاد الصالحين إذ قام الخضر عليه السّلام بذلك.
فَأَرادَ رَبُّكَ أي : مالكك ومدبر أمرك. وفى إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السّلام ، دون ضميرهما ، تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد ، والاستسلام لإرادته سبحانه ، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما برز من القدرة فى الأمور المذكورة وغيرها. أراد أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما : حلمهما وكمال رأيهما ، وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما من تحت الجدار ، ولو لا أنى أقمته لا نقض ، وخرج الكنز من تحته ، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته ، وضاع بالكلية رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ مصدر فى موضع الحال ، أي : يستخرجا كنزهما مرحومين به من اللّه تعالى. أو : يتعلق بمضمر ، أي : فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بمن فعل له أو به.

وقد استعمل الخضر عليه السّلام غاية الأدب فى هذه المخاطبة فنسب ما كان عيبا لنفسه ، وما كان ممتزجا له وللّه تعالى فإن القتل بلا سبب ظاهره عيب ، وإبداله بخير منه خير ، فأتى بضمير المشاركة ، وما كان كمالا محضا ، وهو إقامة الجدار ، نسبه للّه تعالى.

ثم قال : وَما فَعَلْتُهُ أي : ما رأيت من الخوارق عَنْ أَمْرِي أي : عن رأيى واجتهادي ، بل بوحي إلهى ملكى ، أو إلهامي ، على اختلاف فى نبوته أو ولايته ، ذلِكَ أي : ما تقدم ذكره من التأويلات ، تَأْوِيلُ أي : مآل وعاقبة ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً أي : تفسير ما لم تستطع عليه صبرا ، فحذف التاء تخفيفا ، وهو فذلكة لما تقدم ، وفى جعل الصلة غير ما مرّ تكرير للتنكير عليه وتشديد للعتاب. قيل : كل ما أنكر سيدنا موسى

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٦/ ٦). وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٩٩).

(٢) عزاه فى كنز العمال (١٦٠٧١) لابن المبارك ، عن ابن شهاب ، مرسلا. وذكره مرفوعا : ابن عدى فى الكامل (٦/ ٢٢٩١) عن ابن عمر ، وضعّفه.

عليه السّلام على الخضر قد جرى له مثله ، ففى هذه الأمثلة حجة عليه ، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة ، نودى : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت مطروح فى اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك من وكزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار ، نودى : أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر؟ واللّه تعالى أعلم.

روى أنه قال له : لو صبرت لأتيت بك على ألفى عجيبة ، كلها مما رأيت. ولما أراد موسى عليه السّلام أن يفارقه ، قال له : أوصنى ، قال : لا تطلب العلم لتحدث به ، واطلبه لتعمل به. هـ.

وفى رواية : قال له : اجعل همتك فى معادك ، ولا تخض فيما لا يعنيك ، ولا تأمن الخوف ، ولا تيأس الأمن ، وتدبر الأمور فى علانيتك ، ولا تذر الإحسان فى قدرتك. فقال له : زدنى يا ولى اللّه ، فقال : يا موسى إياك واللجاجة ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير أحدا بخطيئة بعد الندم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران ، وإياك والإعجاب بنفسك ، والتفريط فيما بقي من عمرك ، فقال له موسى : قد أبلغت فى الوصية ، أتم اللّه عليك نعمته ، وغمرك فى رحمته ، وكلأك من عدوه. فقال الخضر : آمين. فأوصنى أنت يا نبى اللّه ، فقال له موسى : إياك والغضب إلا فى اللّه ، ولا ترضى عن أحد إلا فى اللّه ، ولا تحب لدنيا ولا تبغض لدنيا ، فإنك تخرج من الإيمان وتدخل فى

الكفر ، فقال له الخضر : قد أبلغت فى الوصية يا ابن عمران ، أعانك اللّه على طاعته ، وأراك السرور فى أمرك ، وحببك إلى خلقه ، وأوسع عليك من فضله ، قال موسى : آمين.

تنبيه : قد تقدم أن الجمهور على حياة الخضر عليه السّلام. وسبب تعميره أنه كان على مقدمة ذى القرنين ، فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة ، فنزل فاغتسل منها ، وشرب من مائها ، فأخطأ ذو القرنين الطريق ، فعاد ، فلم يصادفها ، قالوا : وإلياس أيضا فى الحياة ، يلتقيان فى كل سنة بالموسم ، واحتج من قال بموت الخضر بقوله – عليه الصلاة والسلام ، كما فى اللصحيح ، بعد صلاة العشاء : «أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنّه على رأس مائة سنة ، لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» «١» ، ويجاب بأن الخضر عليه السّلام كان فى ذلك الوقت فى السحاب ، أو يخصص الحديث به كما يخص بإبليس ومن عمّر من غيره. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الاعتراض على المشايخ موجب للبعد عنهم ، والبعد عنهم موجب للبعد عن اللّه ، فلا وصول إلى اللّه إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» كما فى الحكم. فالواجب على المريد ، إذا كان بين يدى الشيخ ، السكوت

---

(١) أخرجه البخاري فى (العلم ، باب السمر فى العلم) ، ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب قوله صلى اللّه عليه وسلم : لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم) ، من حديث ابن عمر – رضى اللّه عنه.

والتسليم والاحترام والتعظيم ، إلا أن يأمره بالكلام ، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت ، فإذا رأى منه شيئا يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له ، ويطلب تأويله ، فإن الشريعة واسعة ، لها ظاهر وباطن ، فلعله على ما لم يفهمه المريد.

وكذلك الفقراء لا ينكر عليهم إلا ما كان محرّما مجمعا على تحريمه ، ولا تأويل فيه ، كالزنا بالمعينة أو اللواط ، وأما ما اختلف فيه ، ولو خارج المذهب ، فلا ينكر عليه ، وكذلك ما فيه تأويل. هذا إن صحت عدالته ، فقد قالوا : إن صحت عدالة المرء فليترك وما فعل. وتأمل قضية شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب فى مسألة الثور الذي أمر الفقراء بذبحه ، فلما ذبحوه تبين أنه كان صدقة عليه ، وكذلك غيره من أرباب الأحوال ، يلتمس لهم أحسن المخارج ، فإن أحوالهم خضرية ، وما رأينا أحدا

أولع بالإنكار فأفلح أبدا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة ذى القرنين ، الذي وقع السؤال عنه مع الروح وأهل الكهف ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٨٣ الى ٨٨]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (٨٨)

يقول الحق جل جلاله : وَيَسْئَلُونَكَ أي : اليهود ، سألوه على وجه الامتحان ، أو قريش ، بتلقينهم.

والتعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب ، والمراد : ذو القرنين الأكبر ، وكان على عهد إبراهيم عليه السّلام ، ويقال : إنه الذي قضى لإبراهيم حين تحاكم إليه فى بئر السبع بالشام ، واسمه تبرس ، وقيل :

هرديس «١» ، وأما ذو القرنين الأصغر ، بالقرب من زمن عيسى عليه السّلام ، واسمه الإسكندر ، وهو صاحب أرسطو الفيلسوف ، وقيل : المراد به هنا الأصغر ، واقتصر عليه المحلّى.

قال الإمام الرازي : والأول أظهر لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الأكبر ، كما شهدت به كتب التواريخ. قلت : كلاهما بلغا الغاية القصوى ، وملكا المشارق والمغارب ، أما ذو القرنين الأكبر ، فقيل : إنه كان ملكا عادلا صالحا ، ملك الأقاليم ، وقهر أهلها من الملوك ، ودانت له البلاد ، وإنه كان داعيا

---

(١) ليس فى هذا الشأن خبر عن الرسول الأعظم صلى اللّه عليه وسلم. [.....]

إلى اللّه تعالى ، سائرا فى الخلق بالمعونة التامة والسلطان المؤيد المنصور ، وكان الخضر على مقدمة جيشه ، بمنزلة المستشار الذي هو من الملك بمنزلة الوزير. وقيل : كان ابن خالته. وذكر الأزرقى وغيره أنه أسلم على يد إبراهيم عليه السّلام ، فطاف معه بالكعبة مع إسماعيل. وروى أنه حج ماشيا ، فلما سمع إبراهيم عليه السّلام بقدومه تلقاه ودعا له ، وأوصاه بوصايا. ويقال : إنه أتى بفرس ليركب ، فقال : لا أركب فى بلد فيه الخليل ، فعند ذلك سخّر له السحاب ، وطوى له الأسفار ، فكانت السحاب

تحمله وعساكيره وجميع آلاتهم ، إذا أرادوا غزو قوم. وسئل عنه عليّ رضي اللّه عنه : أكان نبيا أو ملكا – بالفتح؟ فقال : لم يكن نبيا ولا ملكا ، ولكن كان عبدا أحبّ اللّه فأحبه اللّه ، وناصح اللّه فناصحه ، فسخر له السحاب ، ومدّ له الأسباب «١».

وقال مجاهد : ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : سليمان وذو القرنين ، والكافران : نمرود وبختنصر. هـ.

وأما ذو القرنين الأصغر ، وهو الإسكندر اليوناني ، فروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ، ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ، ثم مضى حتى أتى البحر الأخضر ، ثم عاد إلى مصر ، فبنى الإسكندرية وسماها باسمه ، ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل ، وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحة ، ثم انعطف الى أرمينية وباب الأبواب ، ودان له العراقيون والقبط والبربر ، واستولى على ملوك الفرس ، وقصد السند وفتحه ، وبنى مدينة سرنديب وغيرها ، ثم قصد الصين ، وغزا الأمم البعيدة ، ورجع إلى العراق ومرض ومات.

روى أن أهل النجوم : قالوا له : إنك تموت على أرض من حديد ، وتحت سماء من خشب ، فبلغ بابل ، ورعف ، وسقط عن دابته ، فبسطت له دروع من حديد ، فنام عليها ، فآذته الشمس ، فأظلوه بترس من خشب ، فنظر ، فقال : هذه أرض من حديد وسماء من خشب ، فمات ، وهو ابن ألف وستمائة سنة ، وقيل : ثلاثة آلاف ، قال ابن كثير : وهو غريب. قلت : والذي لابن عساكر : أنه عاش ستا وثلاثين سنة ، وأنه كان بعد داود وسليمان – عليهما السلام – ثم قال ابن عساكر بعد كلام : وإنما بيّنا هذا لأن كثيرا من الناس يعتقدون أنهما واحد ، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو المتأخر ، فيقع بذلك خطأ كبير. كيف لا ، والأول كان عبدا صالحا مؤمنا ، ملكا عادلا ، وزيره الخضر عليه السّلام ، وقد قيل : إنه كان نبيا ، وأما الثاني فقد كان كافرا ، وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف ، وقد كان بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة ، فأين هذا من ذلك؟!. هـ فتأمله مع ما ذكر فى اللباب من تعزيته أمه ، مما يدل على إسلامه ، قال فيه : لما علم ذو القرنين أن الموت استعجله ، دعا بكاتبه ، فقال له : أكتب تعزيتى لأمى ، بسم اللّه

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/ ٨ ، والبغوي ٥/ ١٩٧.

الرحمن الرحيم ، من الإسكندر ابن قيصر ، رفيق أهل الأرض بجسده وأهل السماء بروحه ، إلى أمي

رومية ذات الصفا ، التي لم تتمتع بثمرتها فى دار الفناء ، وعما قريب تجاوره فى دار البقاء ، يا أماه أسألك بودك لى وودى لك ، هل رأيت لحىّ قرارا فى الدار الدنيا؟ وانظري إلى الشجر والنبات يخضر ويبتهج ، ثم يهشم ويتناثر ، كأن لم يغن بالأمس ، وإنى قد قرأت فى بعض الكتب فيما أنزل اللّه : يا دنياى ارحلى بأهلك ، فإنك لست لهم بدار ، إنما الدنيا واهبة الموت ، موروثة الأحزان ، مفرقة الأحباب ، مخربة العمران ، وكل مخلوق فى دار الأغيار ليس له قرار. انظر بقية كلامه فيه. ولا يلزم من صحبته أرسطاطاليس أن يكون على دينه. واللّه تعالى أعلم.

واختلف فى ذى القرنين المذكور فى القرآن : هل كان نبيا أو ملكا – بفتح اللام – أو ملكا – بالكسر – وهو الصحيح ، واختلف فى وجه تسميته بذي القرنين فقيل : كان فى رأسه أو تاجه ما يشبه القرنين ، وقيل : لأنه كان له ذؤابتان ، وقيل : لأنه دعا الناس إلى اللّه عز وجل ، فضرب بقرنه الأيمن ، ثم دعا إلى اللّه فضرب بقرنه الأيسر ، وقيل : لأنه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس ، وقيل : لأنه انقرض فى عهده قرنان ، وقيل : لأنه سخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه ، وتحوطه الظلمة من ورائه. هـ.

ثم ذكر الحق تعالى الجواب ، فقال : قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ أي : سأذكر لكم مِنْهُ ذِكْراً أي : خبرا مذكورا ، أو قرآنا يخبركم بشأنه ، والسين للتأكيد ، والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده صلى اللّه عليه وسلم ، وتصديقه بإنجاز وعده ، لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فى المستقبل لأن هذه الآية نزلت موصولة بما قبلها ، حين سألوه صلى اللّه عليه وسلم عنه ، وعن الروح ، وعن أهل الكهف ، فقال : غدا أخبركم ، فتأخر الوحى كما تقدم ، ثم نزلت السورة مفصلة.

ثم شرع فى تلاوة ذلك الذكر ، فقال : إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ أي : مكنا له فيها قوة يتصرف فيها كيف يشاء ، بتيسير الأسباب وقوة الاقتدار ، حيث سخر له السحاب ، ومدّ له فى الأسباب ، وبسط له النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء ، وسهل له السير فى الأرض ، وذللت له طرقها ، وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه سَبَباً أي : طريقا يوصله إليه من علم ، أو قدرة ، أو آلة ، فأراد الوصول إلى الغرب فَأَتْبَعَ سَبَباً : طريقا يوصله إليه.

حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ أي : منتهى الأرض من جهة المغرب ، بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي ، الذي فيه الجزاير المسماة بالخالدات ، التي هى مبدأ الأطوال على أحد القولين. وَجَدَها أي : الشمس ، تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ أي : ذات حما ، وهو الطين الأسود ،

وقرئ : حامية ، أي : حارة ، روى أن معاوية رضي اللّه عنه قرأ حامية ، وعنده ابن عباس ، فقال ابن عباس : حمئة ، فقال معاوية لعبد اللّه بن عمرو بن العاص : كيف تقرأ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال : فى ماء وطين ، كذا نجده فى التوراة ، فوافق قول ابن عباس رضي اللّه عنه.

وليس بينهما تناف ، لجواز كون العين جامعة بين الوصفين ، وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس بما سمعه من كعب الأحبار ، مع أن قراءته أيضا متواترة ، فلكون قراءة ابن عباس قطعية فى مدلولها ، وقراءته محتملة ، ولعله لمّا بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك ، إذ ليس فى مطمح نظره غير الماء ، كما يلوح به قوله تعالى : وَجَدَها تَغْرُبُ ، ولم يقل : كانت تغرب فإن الشمس فى السماء لا تغرب فى الأرض.

وَوَجَدَ عِنْدَها أي : تلك العين قَوْماً قيل : كان لباسهم جلود الوحش ، وطعامهم ما لفظه البحر ، وكانوا كفارا ، فخيّره اللّه تعالى بين أن يعذبهم بالقتل ، وأن يدعوهم إلى الإيمان ، فقال : قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ بالقتل من أول الأمر ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً أمرا ذا حسن ، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع ، واستدل بهذا على نبوته ، ومن لم يقل بها قال : كان بواسطة نبى كان معه فى ذلك العصر ، أو إلهاما ، بعد أن كان التخيير موافقا لشريعة ذلك النبي ، قالَ ذو القرنين ، لمن كان عنده : مختارا للشق الأخير ، وهو الدعاء إلى الإسلام : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فى نفسه ، وأصرّ على الكفران ، ولم يقبل الإيمان فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ بالقتل. وعن قتادة : أنه كان يطبخ من كفر فى القدور «١» ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فى الآخرة نُعَذِّبُهُ فيها عَذاباً نُكْراً منكرا فظيعا ، لم يعهد مثله ، وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحى إليه ، أي : حيث لم يقل : «ثم يرد إليك» ، وأن مقاولته كانت مع النبي ، أو مع من عنده من أهل مشورته.

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ بموجب دعوته وَعَمِلَ عملا صالِحاً حسبما يقتضيه الإيمان فَلَهُ فى الدارين جَزاءً الْحُسْنى «٢» ، أي : المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى جزاء ، على قراءة النصب ، على أنه مصدر مؤكد للجملة ، قدّم عليه المبتدأ اعتناء ، أو حال ، أو تمييز. وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا أي : مما نأمر به يُسْراً : سهلا ميسرا ، غير شاق عليه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) لا يصح نسبة هذا – إطلاقا – لذى القرنين – رحمه اللّه.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب : «جزاء» بفتح الهمزة منونة ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : بالرفع من غير تنوين ، على الابتداء ، والخبر : الظرف قبله ، والحسنى مضاف إليها ... انظر : شرح الهداية (٢/ ٤٠٢) ، والإتحاف (٢/ ٢٢٤).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٣

الإشارة : ذو القرنين لمّا أقبل بكليته على مولاه ، ودعا إلى اللّه ، ونصح للّه ، مكّنه اللّه تعالى من الأرض ، ويسر له أموره ، حتى قطع مشارقها ومغاربها ، وكذلك من انقطع إلى اللّه ، ورفع همته إلى مولاه ، وأرشد الخلق إلى اللّه ، تكون همته قاطعة ، يقول للشيء كن فيكون ، بقدرة اللّه وقدره. وسخر له الكون بأسره ، يكون عند أمره ونهيه «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك» ، يقول اللّه تعالى ، فى بعض كلامه : «يا عبدى كن لى كما أريد ، أكن لك كما تريد». قال القشيري : ذو القرنين مكّن له فى الأرض جهرا ، فكانت تطوى له إذا قطع أحوازها ، وسهل له أن يندرج فى مشارقها ومغاربها ، ويحظر أقطارها ومناكبها ، ومن كان فى محل الإعانة من الأولياء فالحق سبحانه يمكنه فى المملكة ، ليحصل عند همته ما أراد من حصول طعام أو شراب ، أو غيره من قطع مسافة ، أو استتار عن أبصار ، وتصديق مأمول ، وتحقيق سؤال ، وإجابة دعاء ، وكشف بلاء ، وفوق ذلك تمكينه من تحقيق همه له فى أمره ، ثم فوق ذلك فى التمكين فى أن يحضر بهمتهم قوما بما شاءوا ، ويمنع قوما عما شاءوا ، فلهم من الحق تحقيق أمل ، إذا تصرفوا فى المملكة بإرادات فى سوانح وحادثات ، وفوق هذا التمكين فى المملكة إيصال قوم إلى منازل ومحالّ ، فاللّه يحقق فيهم همتهم. هـ. قلت : وفوق ذلك كله تمكينهم من شهود ذاته ، فى كل وقت وحين ، حتى لو طلبوا الحجاب لم يجابوا ، ولو كلفوا أن يروا غيره لم يستطيعوا ، وهؤلاء هم الذين لهم التمكين فى الإيصال إلى منازل السائرين ومحالّ الواصلين. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر سير ذى القرنين إلى جهة المشرق ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٨٩ الى ٩١]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (٩٠) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (٩١)

قلت : مَطْلِعَ فيه لغتان : الكسر والفتح ، وكَذلِكَ : خبر عن مضمر ، أي : أمر ذى القرنين كما وصفنا لك ، أو صفة مصدر محذوف لوجد ، أو نَجْعَلْ أي : وجدا أو جعلا كذلك ، أو صفة لقوم ، أي : على قوم مثل ذلك القبيل ، الذي تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم ، أو صفة لستر ، أي : سترا مثل ستركم.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَتْبَعَ ذو القرنين سَبَباً : طريقا راجعا من مغرب الشمس ، موصلا إلى مشرقها ، حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أي : الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض ، قيل : بلغه فى اثنتي عشرة سنة ، وقيل : فى أقل من ذلك.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٤

وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ عراة لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً من اللباس والبنيان ، قيل : هم الزنج ، وفى اللباب : قيل : إنهم بنو كليب ، وقيل : إن بنى كليب طائفة منهم ، وهم قوم بآخر صين الصين ، على صور بنى آدم ، إلّا أنهم لهم أذناب كأذناب الكلاب ، ووجوه كوجوه الكلاب ، وأكثر قوتهم الحوت ، ومن مات منهم أكلوه ، وملأوا موضع دماغه مسكا وعنبرا ، وحبسوه عندهم تبركا بآبائهم وأبنائهم. ثم قال : وليس لهم لباس إلا الجلود على عورتهم. هـ.

وعن كعب : أن أرضهم لا تمسك الأبنية ، وبها أسراب ، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر ، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم ، يتراعون فيها كما ترعى البهائم. قال رجل من سمرقند : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقالوا لى : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فاستأجرت رجلا حتى بلغتهم ، فإذا أحدهم يفرش أذنه ، ويلبس الأخرى ، وكان صاحبى يحسن لسانهم ، فسألهم فقالوا : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس. قال : فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشى علىّ ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء ، إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلونا سربا لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضج «١». هـ.

وعن مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض. هـ.

وقوله تعالى : كَذلِكَ أي : أمر ذى القرنين كما وصفنا ، فى رفعة المحل وبسط الملك ، أو أمره فيهم كأمره فى أهل مغرب الشمس ، من التخيير والاختيار ، أو وجد قوما عند مطلع الشمس كذلك ، وحكم فيهم ، بحكم أولئك.

أو : (لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ) سترا مثل ستركم من اللباس والأكنان والجبال. قال الحسن : كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، ولا تحمل البناء ، فإذا طلعت الشمس هربوا إلى البحر. هـ. قال تعالى : وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ من الأسباب والعدد ، وما صدر عنه وما لاقاه خُبْراً : علما تعلق بظواهره وخفايا أمره ، يعنى : أن ذلك بلغ من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

الإشارة : كان ذو القرنين فى الظاهر يلتمس مطلع الشمس الحسية ، وفى الباطن يلتمس مطلع الشمس المعنوية ، وهى شمس القلوب ، التي تكشف أستار الغيوب ، ثم أتبع سببا يوصل إلى شمس العيان ، فوجدها تطلع على قلوب أهل العرفان ، لم يجعل لهم من دونها سترا على الدوام ، لما أتحفهم به من غاية الوصال والإكرام ، حتى قال قائلهم :

لو حجب عنى الحق تعالى طرفة عين ما أعددت نفسى من المسلمين ، وكذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو تقول : وجدها تطلع على أهل التجريد ، الخائضين فى بحار التوحيد ، وأسرار التفريد ،

وفيهم قال المجذوب رضي اللّه عنه :

أقارئين علم التّوحيد هنا البحور إلىّ تنبى

هذا مقام أهل التّجريد الواقفين مع ربّى

---

(١) قال الآلوسى معقبا : (و أنت تعلم أن مثل هذه الحكايات لا ينبغى أن يلتفت إليها ويعول عليها ، وما هى إلا أخبار عن هيان بن بيان ، تحكيها العجائز لصغار الصبيان). انظر روح المعاني (١٦/ ٣٦).

قد تجردوا من لباس الزينة والافتخار ، ولبسوا لباس المسكنة والافتقار ، فعوضهم اللّه تعالى فى قلوبهم لباس الغنى والعز والاقتدار ، صبروا قليلا ، واستراحوا زمنا طويلا ، تذللوا قليلا ، وعزّوا عزا طويلا ، جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم أخذ ذو القرنين من الجنوب إلى الشمال ، كما قال تعالى :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٩٢ الى ١٠١]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١)

. قلت : بَيْنَ السَّدَّيْنِ : مفعول ، لا ظرف لأنه يستعمل متصرفا.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَتْبَعَ ذو القرنين سَبَباً : طريقا ثالثا بين المشرق والمغرب ، سالكا من الجنوب إلى الشمال ، حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ : بين الجبلين ، اللذين سدّ ما بينهما ، وهو منقطع أرض الترك ، مما يلى المشرق ، لا جبال أرمينية وأذربيجان ، كما توهم ، وفيه لغتان : الضم والفتح ، وقيل : ما كان من فعل اللّه فهو مضموم ، وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح. وَجَدَ مِنْ دُونِهِما أي : من ورائهما : مما يلى بر الترك ، قَوْماً : أمة من الناس لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ : يفهمون قَوْلًا لغرابة لغتهم ،

وقلة فطنتهم ، وقرئ بالضم رباعيا ، أي : لا يفصحون بكلامهم ، واختلف فيهم ، قيل : هم جيل من الترك قال السدى : الترك سربة من يأجوج ومأجوج ، خرجت ، فضرب ذو القرنين السد ، فبقيت خارجة. قلت : ولعلهم طلبوا منه ذلك ، حين اعتزلوا قومهم ، ثم قال : فجميع الترك منهم. وعن قتادة : أنهم ، – أي : يأجوج ومأجوج – اثنتان وعشرون قبيلة ،

(٣٠٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٦

سد ذو القرنين على إحدى وعشرين ، وبقيت واحدة ، فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين. قال أهل التاريخ : أولاد نوح عليه السّلام ثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب والعجم والروم ، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ، ويافث أبو الترك والخرز والصقالبة ويأجوج ومأجوج. هـ.

وقرئ بالهمز فيهما لأنه من أجيج النار ، أي : ضوؤها وشررها ، شبهوا به فى كثرتهم وشدتهم ، وهو غير منصرف للعجمة والعلمية.

قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ ، إما أن يكون قالوه بواسطة ترجمان ، أو يكون فهم كلامهم ، فيكون من جملة ما آتاه اللّه تعالى من الأسباب ، فقالوا له : إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ «١» ، قد تقدم أنهم من أولاد يافث. وما يقال : إنهم من نطفة احتلام آدم لم يصح ، واختلف فى صفاتهم ، فقيل : فى غاية صغر الجثة وقصر القامة ، لا يزيد قدمهم على شبر ، وقيل : فى نهاية عظم الجسم وطول القامة ، تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا ، وفيهم من عرضه كذلك.

قال عبد اللّه بن مسعود : سألت النبي صلى اللّه عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج ، فقال : «هم أمم ، كل أمة أربع مائة ألف ، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح» ، قيل : يا رسول اللّه صفهم لنا ، قال : «هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز – وهو شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع – وصنف عرضه وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع ، وصنف يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى ، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدّمتهم بالشام ، وساقتهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق ، وبحيرة طبرية». «٢».

فقالوا له : إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أي : فى أرضنا ، بالقتل ، والتخريب ، وإتلاف الزرع ، قيل : كانوا يخرجون أيام الربيع ، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابسا إلا احتملوه ، وكانوا يأكلون الناس أيضا.

فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً أي : جعلا من أموالنا عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا بالفتح وبالضم ، أي : حاجزا يمنعهم منا؟

قالَ ما مَكَّنِّي – بالفك وبالإدغام – أي : ما مكننى فِيهِ رَبِّي ، وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الأسباب ، خَيْرٌ من جعلكم ، فلا حاجة لى به ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ الأبدان وعمل الأيدى ، كصنّاع يحسنون البناء والعمل ، وبآلات لا بد منها فى البناء ، أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً أي : حاجزا حصينا ، وبرزخا مكينا ، وهو أكبر من السد وأوثق ، يقال : ثوب مردم إذا كان ذا رقاع فوق رقاع ، وهذا إسعاف لهم فوق ما يرجون.

---

(١) هذه قراءة الجماعة (بدون همز) ، وقرأ عاصم بالهمز .. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٢٥).

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٤/ ٤٥٠) لابن أبى حاتم ، وابن مردويه وابن عدى ، وابن عساكر ، وابن النجار ، وفيه أن السائل هو حذيفة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٠٧

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ : جمع زبرة ، وهى القطعة الكبيرة ، وهذا لا ينافى رد خراجهم لأن المأمور الإيتاء بالثمن أو المناولة ، كما ينبئ عنه قراءة : «ائتوني» بوصل الهمزة ، أي : جيئونى بزبر الحديد ، على حذف الباء ، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة ، دون الخراج على العمل.

قال القشيري : استعان بهم فى الذي احتاج إليه منهم ، ولم يأخذ منهم عمالة لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المكنة. هـ.

ولعل تخصيص الأمر بالإتيان بها دون سائر الآلات من الفحم والحطب وغيرهما لأن الحاجة إليها أمس لأنها الركن فى السد ، ووجودها أعز. قيل : حفر الأساس حتى بلغ الماء ، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب ، والبنيان من زبر الحديد ، وجعل بينهما الفحم والحطب ، حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، وكان بينهما مائة فرسخ ، وذلك قوله تعالى : حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ، وقرئ بضمهما «١» ، أي : مازال يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل ما بين ناصيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السّمك. قيل : كان ارتفاعه : مائتى ذراع ، وعرضه : خمسون ذراعا. وقرئ (سوّى) بالتشديد ، من التسوية.

فلما سوّى بين الجبلين بالبناء ، قالَ للعملة : انْفُخُوا النيران فى الحديد المبنى ، ففعلوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ أي : المنفوخ فيه ناراً أي : كالنار فى الحرارة والهيئة. وإسناد الجعل إلى ذى القرنين ، مع أنه من فعل العملة للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك ، وهم بمنزلة الآلة. قالَ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها :

آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً أي : آتوني نحاسا مذابا أفرغه عليه ، وإسناد الإفراغ إلى نفسه ، لما تقدم.
فَمَا اسْطاعُوا أي : استطاعوا أَنْ يَظْهَرُوهُ أي : يعلوه بالصعود لارتفاعه ، والفاء فصيحة ، أي : ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر ، فأفرغوه عليه ، فاختلط والتصق بعضه ببعض ، فصار جبلا صلدا ، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ لارتفاعه وملاسته ، وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً لصلابته ، وهذه معجزة له لأن تلك الزبر الكبيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر أحد أن يجول حولها ، فضلا عن إفراغ القطر عليها ، فكأنه تعالى صرف النار عن أبدان المباشرين للأعمال. واللّه على كل شيء قدير.
قالَ ذو القرنين ، لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم : هذا أي : السد ، أو تمكينه منه ، رَحْمَةٌ عظيمة مِنْ رَبِّي على كافة العباد ، لا سيما على مجاوريه ، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق ، بل هو إحسان إلهى محض ، وإن ظهر بمباشرتى. والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة.

---

(١) أي : الصاد والدال فى «الصدفين». وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب. وقرأ أبو بكر : بضم الصاد وإسكان الدال ، وقرأ الباقون بفتحهما .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢٧).

فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي : وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج ، أو بقيام الساعة بأن شارف قيامها ، جَعَلَهُ أي : السد المذكور ، مع متانته ورصانته ، دَكَّاءَ : مدكوكا مبسوطا مستويا بالأرض ، وفيه بيان عظمة قدرته تعالى ، بعد بيان سعة رحمته ، وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا : كائنا لا محالة.
روى عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إنّ يأجوج ومأجوج يحفرون السد ، حتّى إذا كادوا يرون شعاع الشّمس ، قال الّذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعيده اللّه كأشدّ ما كان ، حتّى إذا بلغت مدّتهم ، حفروا ، حتّى إذا كادوا يرون شعاع الشّمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء اللّه ، فيعودون إليه ، وهو على هيئته كما تركوه ، فيحفرونه فيخرجون على النّاس» «١». وسيأتى فى الأنبياء تمام قصة خروجهم ، إن شاء اللّه ، وهذا آخر كلام ذى القرنين.
قال تعالى : وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ : يوم مجيء الوعد ، ويخرجون ، يَمُوجُ فِي بَعْضٍ يزدحمون فى البلاد ، أو : يموج بعض الخلق فى بعض ، فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم ، حيارى من شدة الهول.
روى أنهم يأتون البحر فيشربونه ويأكلون دوابه ، ثم يأكلون الشجر وما ظفروا به ، ممن لم يتحصن

منهم من الناس ، ولا يقدرون على دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ، ثم يبعث اللّه عليهم مرضا فى رقابهم ، فيموتون مرة واحدة ، فيرسل اللّه طيرا فترميهم فى البحر ، ثم يرسل مطرا تغسل الأرض منهم ، ثم توضع فيها البركة ، وهذا بعد خروج الدجال ونزول عيسى عليه السّلام ، ثم تنقرض الدنيا ، كما قال تعالى :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ لقيام الساعة ، فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ، وسكت الحق تعالى عن النفخة الأولى اكتفاء بذكرها فى موضع آخر ، أي : جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم ، وتمزقت أجسادهم ، فى صعيد واحد للحساب والجزاء ، جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه ، وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ أظهرناها وأبرزناها يَوْمَئِذٍ أي : يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ، لِلْكافِرِينَ منهم ، بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ، عَرْضاً فظيعا هائلا لا يقدر قدره ، وخص العرض بهم ، وإن كان بمرأى من أهل الموقف قاطبة لأن ذلك لأجلهم.

ثم ذكر وصفهم بقوله : الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ وهم فى الدنيا فِي غِطاءٍ كثيف وغشاوة غليظة عَنْ ذِكْرِي : عن سماع القرآن وتدبره ، أو : عن ذكرى بالتوحيد والتمجيد ، أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى ، وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً أي : وكانوا مع ذلك لفرط تصاممهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول صلى اللّه عليه وسلم ، لا يستطيعون استماعا منه لذكرى وكلامى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

---

(١) أخرجه بنحوه ، مطولا ، أحمد فى المسند (٢/ ٥١٠) ، والترمذي فى (التفسير) ، وابن ماجة فى (الفتن ، باب فتنة الرجال) ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

الإشارة : السياحة فى أقطار الأرض مطلوبة عند الصوفية فى بداية المريد ، أقلها سبع سنين ، وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضي اللّه عنه : أقلها أربع عشرة سنة. وفيها فوائد ، منها : زيارة الإخوان ، والمذاكرة معهم ، وهى ركن فى الطريق ، ومنها : نفع عباد اللّه ، إن كان أهلا لتذكيرهم ، (فلأن يهدى اللّه به رجلا واحدا خير له مما طلعت عليه الشمس). ومنها : تأسيس باطنه وتشحيذ معرفته ، ففى كل يوم يلقى تجليا جديدا ، وتلوينا غريبا ، يحتاج معه إلى معرفة كبيرة وصبر جديد ، فالمريد كالماء ، إذا طال مكثه فى مكانه أنتن وتغيّر ، وإذا جرى عذب وصفي. ومنها :

أنه قد يلقى فى سياحته من يربح منه ، أو يزيد به إلى ربه.

روى أن ذا القرنين بينما هو يسير فى سياحته إذ رفع إلى أمة صالحة ، يهدون بالحق وبه يعدلون ، يقسمون بالسوية ، ويحكمون بالعدل ، وقبورهم بأبواب بيوتهم ، وليست لبيوتهم أبواب ، وليس عليهم أمراء ، وليس بينهم قضاة ، ولا يختلفون ولا يتنازعون ، ولا يقتتلون ، ولا يضحكون ولا يحزنون ، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس ، أطول الناس أعمارا ، وليس فيهم مسكين ولا فظ ولا غليظ ، فعجب منهم ، وقال : خبّرونى بأمركم ، فلم أر فى مشارق الأرض ومغاربها مثلكم ، فما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قالوا : لئلا ننسى الموت ليمنعنا ذلك من طلب الدنيا ، قال : فما بال بيوتكم لا أبواب لها؟ قالوا : ليس فيها متهم ، ولا فينا إلا أمين مؤتمن. قال : فما بالكم ليس فيكم حكّام؟ قالوا : لا نختصم ، قال : فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا : لا نتكاثر. قال : فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا : لا نفتخر ، قال : فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا : من ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا ، قال : فما بال طريقتكم واحدة وكلمتكم مستقيمة؟ قالوا : من أجل أننا لا نتكاذب ، ولا نتخادع ، ولا يغتاب بعضنا بعضا. قال :

أخبرونى من أين تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم؟ قالوا : صلحت صدورنا فنزع منها الغل والحسد ، قال : فما بالكم ليس فيكم فقير ولا مسكين؟ قالوا : من قبل أنّا نقسم بيننا بالسوية. قال : فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قالوا : من قبل الذلة والتواضع ، قال : فما جعلكم أطول الناس أعمارا؟ قالوا : من قبل أنّا لا نتعاطى إلا الحق ونحكم بالسوية.

قال : فما بالكم لا تضحكون؟ قالوا : لا نغفل عن الاستغفار. قال : فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا : من قبل أنّا وطّنّا أنفسنا للبلاء. فقال : فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس؟ قالوا : لأنا لا نتوكل على غير اللّه ، قال : هل وجدتم آباءكم هكذا؟ قالوا : نعم ، وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ، ويعفون عمن ظلمهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون عمن جهل عليهم ، ويصلون أرحامهم ، ويؤدون أمانتهم ، ويحفظون وقت صلاتهم ، ويوفون بعهدهم ، ويصدقون فى مواعدهم ، فأصلح اللّه تعالى بذلك أمرهم وحفظهم ، ما كانوا أحياء ، وكان حقا علينا أن نخلفهم فى تركتهم. فقال ذو القرنين : لو كنت مقيما لأقمت فيكم ، ولكن لم أومر بالمقام. هـ. ذكره الثعلبي.

(٣٠٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٠

وقال فى القوت : قوله تعالى ، فى صفة أعدائه المحجوبين : كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي : دليل الخطاب فى تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه مكاشفون بذكره ، ناظرون إلى غيبه ، قال تعالى فى ضده : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ «١» ، وقال : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ... «٢»

الآية. هـ.

وسبب غطاء القلوب عن الاستماع والاستبصار هو اتباع الهوى ومحبة غير المولى ، فلذلك أنكره الحق تعالى على الكفار بقوله :

[سورة الكهف (١٨) : آية ١٠٢]

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢)

قلت : أَنْ يَتَّخِذُوا : سد مسد المفعولين ، أو حذف الثاني ، أي : أحسبوا اتخاذهم نافعهم ونُزُلًا : حال من جهنم.

يقول الحق جل جلاله منكرا على الكفار المتقدمين : أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا حين أعرضوا عن ذكرى ، وكانت أعينهم فى غطاء عن رؤية دلائل توحيدى ، أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي كالملائكة والمسيح وعزير ، أو الشياطين لأنهم عباد ، مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ أي : معبودين من دونى ، يوالونهم بالعبادة ، أن ذلك ينفعهم ، أو :

ألا نعذبهم على ذلك ، بل نعذبهم على ذلك ، إِنَّا أَعْتَدْنا يسّرنا وهيأنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا أي : شيئا يتمتعون به أول ورودهم القيامة. والنزل : ما يقدم للنزيل أي : الضيف ، وعدل عن الإضمار ذما لهم على كفرهم ، وإشعارا بأن ذلك الاعتداد بسبب كفرهم ، وعبّر بالإعتاد تهكما بهم ، وتخطئة لهم ، حيث كان اتخاذهم أولياء من قبيل العتاد ، وإعداد الزاد ليوم المعاد ، فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذّخر ، جهنم عدة لهم. وفى ذكر النزل : إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له ، وتستحقر دونه ، وقيل :

النزل : موضع النزول ، أي : أعتدناها لهم منزلا يقيمون فيه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما أحببت شيئا إلا وكنت له عبدا ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا ، فأفرد قلبك للّه ، وأخرج منه كلّ ما سواه ، فحينئذ تكون عبدا للّه ، حرا مما سواه ، فكل ما سوى اللّه باطل ، وظل آفل ، فكن إبراهيميا ، حيث قال :

لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ «٣» ، فارفع أيها العبد همتك عن الخلق ، وعلقها بالملك الحق ، فلا تحب إلا اللّه ، ولا تطلب شيئا

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة هود.

(٢) الآية ٢٤ من سورة هود.

(٣) من الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

سواه ، كائنا ما كان ، من جنس الأشخاص ، أو من جنس الأحوال أو المقامات أو الكرامات لئلا تنخرط فى سلك من اتخذ من دون اللّه أولياء ، فتكون كاذبا فى العبودية.

روى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه أنه قال : قرأت الفاتحة ، فقلت : الحمد للّه رب العالمين. فقال لى الهاتف من قبل اللّه تعالى : صدقت ، فقلت : الرحمن الرحيم ، فقال : صدقت. فقلت : مالك يوم الدين ، فقال : صدقت.

فلما قلت : إياك نعبد ، قال كذبت لأنك تعبد الكرامات ، قال : ثم أدبنى ، وتبت للّه تعالى. ذكره ابن الصباغ مطولا.

قلت : ولعله قبل ملاقاة الشيخ ، ولذلك عاتبه بقوله : يا أبا الحسن عوض ما تقول : «سخّر لى خلقك» ، قل : يا رب كن لى ، أرأيت إن كان لك أيفوتك شى ء؟ نفعنا اللّه بجميعهم.

وهذا الغلط يقع للمتوجهين ولغيرهم ، يظنون أنهم يحسنون صنعا ، وهم يسيئون ، كما قال تعالى :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٠٣ الى ١٠٦]

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦)

. قلت : أَعْمالًا : تمييز ، وفِي الْحَياةِ : متعلق بسعيهم.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ يا معشر الكفرة بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا أي : بالذين خسروا من جهة أعمالهم كصدقة ، وعتق ، وصلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، حيث عملوها فى حال كفرهم فلم تقبل منهم ، وهم : الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ

أي : بطل بالكلية فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي : بطل ما سعوا فيه فى الحياة الدنيا وعملوه ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ : يظنون أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أي : يأتون بها على الوجه الأكمل ، وقد تركوا شرط صحتها وكمالها ، وهو الإيمان ، واختلف فى المراد بهم ، فقيل : مشركو العرب ، وقيل : أهل الكتابين ، ويدخل فى الأعمال ما عملوه فى الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات. وقيل : الرهبان الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة.

والمختار : العموم فى كل من عمل عملا فاسدا ، يظن أنه صحيح من الكفرة ، بدليل قوله : أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ : بدلائل التوحيد ، عقلا ونقلا ، وَلِقائِهِ : البعث وما يتبعه من أمور الآخرة ، فَحَبِطَتْ لذلك أَعْمالُهُمْ المعهودة حبوطا كليا ، فَلا نُقِيمُ لَهُمْ أي : لأولئك الموصوفين بحبوط

الأعمال ، يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً أي : فنهينهم ، ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لأن مدار التكريم : الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرة قال صلى اللّه عليه وسلم : «يؤتى بالرّجل السّمين العظيم يوم القيامة ، فلا يزن جناح بعوضة اقرأوا إن شئتم :

فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً «١». أو : لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانا لأن الكفر أحبطها. أو : لا نقيم لهم وزنا نافعا. قال أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه : يأتى أناس بأعمالهم يوم القيامة ، هى عندهم فى العظم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لا تزن شيئا ، فذلك قوله : فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً. ثم بيّن مآل كفرهم بعد أن بيّن مآل أعمالهم ، فقال : ذلِكَ الصنف الذين حبطت أعمالهم جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ، أو الأمر ذلك ، ثم استأنف بقوله : جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا أي : بسبب كفرهم المتضمن لسائر القبائح ، التي من جملتها ما تضمنه قوله : وَاتَّخَذُوا آياتِي الدالة على توحيدى أو كلامى ، أو معجزاتى ، وَرُسُلِي هُزُواً أي : مهزوا بهم ، فلم يقتنعوا بمجرد الكفر ، بل ارتكبوا ما هو أعظم ، وهو الاستهزاء بالآيات والرسل. عائذا باللّه من ذلك.

الإشارة : كل آية فى الكفار تجر ذيلها على الغافلين ، فكل من قنع بدون عبادة فكرة الشهود والعيان ، ينسحب عليه من طريق الباطن أنه ضل سعيه ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، فلا يقام له يوم القيامة وزن رفيع ، فتنسحب الآية على طوائف ، منها : من عبد اللّه لطلب المنزلة عند الناس ، وهذا عين الرياء روى عن عثمان أنه قال على المنبر : (الرياء سبعون بابا ، أهونها مثل نكاح الرجل أمه). ومنها : من عبد اللّه لطلب العوض والجزاء عند الخواصّ ، ومنها : من عبد اللّه لطلب الكرامات وظهور الآيات ، ومنها : من عبد اللّه بالجوارح الظاهرة ، وحجب عن الجوارح الباطنة ، وهى عبادة القلوب ، فإن الذرة منها تعدل أمثال الجبال من عبادة الجوارح ، ومنها : من وقف مع الاشتغال بعلم الرسوم ، وغفل عن علم القلوب ، وهو بطالة وغفلة عند المحققين ، ومنها : من قنع بعبادة القلوب ، كالتفكر والاعتبار ، وغفل عن عبادة الأسرار ، كفكرة الشهود والاستبصار ، والحاصل : أن كل من وقف دون الشهود والعيان فهو بطّال ، وإن كان لا يشعر ، وإنما ينكشف له هذا الأمر عند الموت وبعده ، وسيأتى عند قوله تعالى :

وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ «٢» ، زيادة بيان على هذا إن شاء اللّه. فقد يكون الشيء عبادة عند قوم وبطالة عند آخرين حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا يفهم هذا إلا من ترقى عن عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب والأسرار. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الكهف) ، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفة القيامة والجنة والنار) ، عن أبى هريرة رضي اللّه عنه

(٢) الآية ٤٧ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٣

ثم ذكر ضد من تقدم من الكفرة ، فقال :

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (١٠٨) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)

.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بآيات ربهم ولقائه ، وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ ، كانَتْ لَهُمْ فيما سبق من حكم اللّه تعالى ووعده ، جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ، وهى أعلى الجنان. وعن كعب : أنه ليس فى الجنة أعلى من جنة الفردوس ، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، أي : أهل الوعظ والتذكير من العارفين. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «فى الجنّة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السّماء والأرض ، أعلاها الفردوس ، ومنها تفجّر أنهار الجنّة ، فوقها عرش الرحمن ، فإذا سألتم اللّه فسلوه الفردوس» «١».

وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم : «جنان الفردوس أربع : جنتان من فضّة ، أبنيتهما وآنيتهما ، وجنّتان من ذهب ، أبنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه» «٢» ، وقال قتادة : الفردوس : ربوة الجنة. وقال أبو أمامة : هى سرة الجنة. وقال مجاهد : الفردوس : البستان بالرومية. وقال الضحاك : هى الجنة الملتفة الأشجار.

كانت لهم نُزُلًا أي : مقدمة لهم عند ورودهم عليه ، على حذف مضاف ، أي : كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلا ، أو جعلنا نفس الجنة نزلا مبالغة فى الإكرام ، وفيه إيذان بأن ما أعدّ اللّه لهم على ما نطق به الوحى على لسان النبوة بقوله : «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر».

هو بمنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة وما بعدها ، وإن جعل النزل بمعنى المنزل فظاهر. خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا أي : لا يطلبون تحولا عنها إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم ، وأرفع منها ، حتى تنزع إليه أنفسهم ، أو تطمح نحوه أبصارهم. ونعيمهم مجدد بتجدد أنفاسهم ، لا نفاد له ولا نهاية لأنه مكون بكلمة «كن» ، وهى لا تتناهى.

(١) أخرجه ، بنحوه ، البخاري فى (كتاب التوحيد ، باب : وكان عرشه على الماء) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الرحمن ، باب ومن دونهما جنتان) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى) ، من حديث عبد الله بن قيس.

قال تعالى : قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ أي : جنس البحر مِداداً ، وهو ما تمد به الدواة من الحبر ، لِكَلِماتِ رَبِّي وهى ما يقوله سبحانه لأهل الجنة ، من اللطف والإكرام ، مما لا تكيفه الأوهام ، ولا تحيط به الأفكار ، فلو كانت البحار مدادا والأشجار أقلاما لنفدت ، ولم يبق منها شيء ، قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي لأن البحار متناهية ، وكلمات اللّه غير متناهية. ثم أكده بقوله : وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً أي : لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى ، هذا لو لم يجئ بمثله مددا ، بل ولو جئنا بمثله مَدَداً عونا وزيادة لأن ما دخل عالم التكوين كله متناه.

قُلْ لهم : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يتناهى كلامى ، وينقضى أجلى ، وإنما خصصت عنكم بالوحى والرسالة يُوحى إِلَيَّ من تلك الكلمات : أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا شريك له فى الخلق ، ولا فى سائر أحكام الألوهية ، فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ : يتوقعه وينتظره ، أو يخافه ، فالرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، فمن جعل الرجاء على بابه ، فالمعنى : يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضى وقبول. ومن حمله على معنى الخوف ، فالمعنى : يخاف سوء لقائه. قال القشيري : حمله على ظاهره أولى لأن المؤمنين قاطبة يرجون لقاء اللّه ، فالعارفون باللّه يرجون لقاءه والنظر إليه ، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم. هـ بالمعنى.

والتعبير بالمضارع فى (يَرْجُوا) للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين : الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء ، أي : فمن استمر على رجاء لقاء كرامة اللّه ورضوانه فَلْيَعْمَلْ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة عَمَلًا صالِحاً ، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله ، ومدارها على الإتقان ظاهرا ، والإخلاص باطنا. وقال سهل :

العمل الصالح : المقيد بالسنّة ، وقيل : هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها. وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً إشراكا جليا ، كما فعل الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه ، أو إشراكا خفيا ، كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به عوضا أو ثناء حسنا.

قال شهر بن حوشب : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أرأيت رجلا يصلى يبتغى وجه اللّه ،

ويحب أن يحمد عليه ، ويتصدق يبتغي وجه اللّه ويحب أن يحمد عليه ، ويحج كذلك؟ قال عبادة : ليس له شيء ، إن اللّه تعالى يقول : «أنا خير شريك ، فمن كان له شريك فهو له». وروى أن جندب بن زهير قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنّى لأعمل العمل للّه تعالى ، فإذا اطّلع عليه سرّنى ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «لك أجران : أجر السّرّ ، وأجر العلانية» «١»

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب عمل السر) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب الثناء الحسن) ، عن أبى هريرة بدون ذكر جندب ابن زهير.

(٣/٣١٤)

وذلك إذا قصد أن يقتدى به ، وكان مخلصا فى عمله. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء» «١».

وقال صلى اللّه عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية - : «إن أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الخفي ، وإياكم وشرك السرائر ، فإنّ الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء» ، فشق ذلك على القوم ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ألا أدلكم على ما يذهب اللّه عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا : بلى ، قال : قولوا : «اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك من كل ما لا أعلم».

وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «من قرأ آخر سورة الكهف - يعنى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ... إلى آخره - كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلّها كانت له نورا من الأرض إلى السّماء» «٢». وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ عند مضجعه :

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ... إلخ ، كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكّة ، حشو ذلك النّور ملائكة يصلّون حتّى يقوم ، وإن كان بمكة كان له نورا إلى البيت المعمور». قلت : ومما جرّب أن من قرأ هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ...)

إلخ ، ونوى أن يقوم فى أي ساعة شاء ، فإن اللّه تعالى يوقظه بقدرته. وانظر الثعلبي.

الإشارة : إن الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وعملوا عمل الخصوص - وهو العمل الذي يقرب إلى الحضرة - كانت لهم جنة المعارف نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا لأنّ من تمكن من المعرفة لا يعزل عنها ، بفضل اللّه وكرمه ، كما قال القائل :

مذ تجمّعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

ثم يترقون فى معاريج التوحيد ، وأسرار التفريد ، أبدا سرمدا ، لا نهاية لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية ، وهى كلمة التكوين ، التي لا تنفد (قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي ...) الآية. هذا مع كون وصف البشرية لا يزول عنهم ، فلا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وحي إلهام ، ويلقى فى روعى أنما إلهكم إله واحد ، لا ثانى له فى ذاته ولا فى أفعاله ، فمن كان يرجو لقاء ربه فى الدنيا لقاء الشهود والعيان ، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان فليعمل عملا صالحا ، الذي لا حظ فيه للنفس عاجلا ولا آجلا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، واللّه تعالى أعلم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم «٣».

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٤٢٨) ، والبغوي فى شرح السنة (١٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٤٣٩) ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ فى اليوم والليلة) من حديث معاذ. قال الحافظ ابن حجر : وفى إسناده ابن لهيعة.

(٣) فى آخر نسخة د. حسن عباس : انتهى الجزء الثاني من تفسير القرآن المجيد ، للعلامة الأديب ، فريد عصره ، ووحيد دهره ، سيدى أحمد بن عجيبة الشريف ، غفر الله له ، ولكاتبه ، وللمسلمين أجمعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .. أمين.

(٣١٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٦

(٣١٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣١٧

سورة مريم

مكية – وهى ثمان وتسعون آية. والمقصود من السورة الرد على النصارى فى إشراكهم عيسى عليه السّلام لله تعالى فى ألوهيته ، فهى كالتتميم لقوله : وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً «١».

قال تعالى :

[سورة مريم (١٩) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١)

قيل : هى مختصرة من أسماء الله تعالى ، فالكاف من كاف ، والهاء من هاد ، والياء من يمين ، والعين من عليم أو عزيز ، والصاد من صادق. قاله الهروي عن ابن جبير.

قال أبو الهيثم : جعل الياء من يمين ، من قولك : يمن الله الإنسان ييمنه يمنا فهو ميمون. هـ. ولذا ورد الدعاء بها ، فقد روى عن علىّ – كرم الله وجهه – أنه كان يقول : (يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تغير النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك العصم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء ، وأعوذ بك من الذنوب التي تديل الأعداء ، انصرنا على من ظلمنا) «٢». كان يقدم هذه الكلمات بين يدى كل شدة. فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف ، أو تكون الجملة ، عنده ، اسما واحدا من أسماء الله تعالى ، وقيل : هو اسم الله الأعظم. ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه ، فالكاف كفايته لهم ، والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته ، والياء يمنه وبركته عليهم وعلى من تعلق بهم ، والعين عنايته بهم فى سابق علمه ، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام. والله تعالى أعلم.

وقيل : هى مختصرة من أسماء الرسول – عليه الصلاة والسلام – أي : يا كافى ، يا هادى ، يا ميمون ، يا عين العيون ، أنت صادق مصدق. وعن ماضى بن سلطان تلميذ أبى الحسن الشاذلى – رضى الله عنهما – : [أنه رأى فى منامه أنه اختلف مع بعض الفقهاء فى تفسير قوله : (كهيعص. حم. عسق) ، فقلت : هى أسرار بين الله تعالى وبين رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وكأنه قال : «كاف» أنت كهف الوجود ، الذي يؤم إليه كلّ موجود ، «ها» هبنا لك الملك ، وهيأنا لك الملكوت ، «يع» يا عين العيون ، «ص» صفات الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، «حاء» حببناك ، «ميم»

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (١/ ١١٢).

ملّكناك ، «عين» علمناك ، «سين» ساررناك ، «قاف» قربناك. فنازعونى فى ذلك ولم يقبلوه ، فقلت : نسير إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ليفصل بيننا ، فسرنا إليه ، فلقينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال لنا : الذي قال محمد بن سلطان هو الحق]. وكأنه يشير إلى أنها صفات أفعال.

قال تعالى :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٢ الى ٦]

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (٣) قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

قلت : (ذِكْرُ) : خبر عن مضمر ، أي : هذا ذكر ، والإشارة للمتلو فى هذه السورة لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر فى حكم الحاضر الشاهد. وقيل : مبتدأ حذف خبره ، أي : فيما يتلى عليك ذكر رحمت ربك. وقيل : خبر عن (كهيعص) ، إذا قلنا هى اسم للسورة ، أي : المسمى بهذه الحروف ذكر رحمة ربك ، و(عَبْدَهُ) : مفعول لرحمة ربك ، على أنها مفعول لما أضيف إليها ، أو لذكر ، على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع. ومعنى ذكر الرحمة : بلوغها إليه ، و(زَكَرِيَّا) : بدل منه ، أو عطف بيان ، و(إِذْ نادى) : ظرف لرحمة ، وقيل : لذكر ، على أنه مضاف إلى فاعله ، وقيل : بدل اشتمال من زكريا ، كما فى قوله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ ...

«١» ، و(مِنِّي) : حال من العظم ، أي : كائنا منى ، و(شَيْئاً) : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : هذا الذي نتلوه عليك فى هذه السورة هو ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا.

قال الثعلبي : [فيه تقديم وتأخير]. أي : ذكر ربك عبده زكريا برحمته ، إِذْ نادى رَبَّهُ وهو فى محرابه فى طلب الولد نِداءً خَفِيًّا : سرا من قومه ، أو فى جوف الليل ، أو مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله. ولقد راعى عليه السّلام حسن الأدب فى إخفاء دعائه ، فإنه أدخل فى الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من كلام الناس ، حيث طلب الولد فى غير إبّانه ومن غائلة مواليه الذين كان يخافهم.

قالَ فى دعائه : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي أي : ضعف بدني وذهبت قوتى. وإسناد الوهن إلى العظم لأنه عماد البدن ودعامة الجسد ، فإذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله ، وإفراده للقصد إلى الجنس المنبئ عن شمول الوهن إلى كل فرد من أفراده. ووهن بدنه عليه السّلام : لكبر سنه ، قيل : كان ابن سبعين ، أو خمسا وسبعين ، وقيل :

مائة ، وقيل : أكثر.

---

(١) الآية١٦ من السورة نفسها.

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً أي : ابيضّ شمطا. شبه عليه السّلام الشيب من جهة البياض والإنارة بشواظ النار ، وانتشاره فى الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرجه مخرج التمييز ، ففيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى ، حيث كان الأصل : واشتعل شيب رأسى ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة شموله لكلها ، فإن وزانه : اشتعل بيته نارا بالنسبة إلى اشتعلت النار فى بيته ، ولزيادة تقريره بالإجمال أولا ، والتفصيل ثانيا ، ولمزيد تفخيمه بالتكثير من جهة التنكير.

ثم قال : وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا أي : لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كنت كلما دعوتك استجبت لى. توسل إلى اللّه بسابق حسن عوائده فيه ، لعله يشفع له ذلك بمثله ، إثر تمهيد ما يستدعى ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال. والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع ، ولذلك قيل : من أراد أن يستجاب له فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته.

ثم قال : وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ أي : الأقارب ، وهم : بنو عمه ، وكانوا أشرار بنى إسرائيل ، فخاف ألا يحسنوا خلافته فى أمته ، فسأل الله تعالى ولدا صالحا يأمنه على أمته. وقوله : مِنْ وَرائِي : متعلق بمحذوف ، أي :

جور الموالي ، أو مما فى الموالي من معنى الولاية ، أي : خفت أن يلوا الأمر من ورائي ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً : لا تلد من حين شبابها ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أي : أعطنى من محض فضلك الواسع ، وقدرتك الباهرة ، بطريق الاختراع ، لا بواسطة الأسباب العادية لأن التعبير بلدنّ يدل على شدة الاتصال والالتصاق ، وَلِيًّا : ولدا من صلبى ، يلبى الأمر من بعدي.

والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن ما ذكره عليه السّلام من كبر السن وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عن الولد بتوسط الأسباب ، فاستوهبه على الوجه الخارق للعادة ، ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور ، من مشاهدته للخوارق الظاهرة عند مريم ، كما يعرب عنه قوله تعالى : هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ «١». وعدم ذكره هنا اكتفاء بما تقدم ، فإن الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكتة التنزيلية. وقوله : يَرِثُنِي : صفة لوليّا ، وقرئ بالجزم هو وما عطف عليه جوابا للدعاء ، أي : يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة ، فإن الأنبياء – عليهم السلام – لا يورثون من جهة المال. قال : صلى اللّه عليه وسلم «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» «٢». وقيل : يرثنى فى الحبورة ، وكان عليه السّلام حبرا.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٤٦٣).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٠

وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ النبوة والملك والمال. قيل : هو يعقوب بن إسحاق. وقال الكلبي ومقاتل : هو يعقوب ابن ماثان ، أخو عمران بن ماثان ، أبى مريم ، وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم ، وماثان من نسل سليمان عليه السّلام ، فكان آل يعقوب أخوال يحيى. قال الكلبي : كان بنو ماثان رؤوس بنى إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ ، فأراد أن يرث ولده حبورته ، ويرث من بنى ماثان ملكهم. هـ.

وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا أي : مرضيا ، فعيل بمعنى مفعول ، أي : ترضى عنه فيكون مرضيا لك ، ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل ، أي : راضيا بتقديرك وأحكامك التعريفية والتكليفية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : طلب الوارث الروحاني – وهو وارث العلم والحال – جائز ليبقى الانتفاع به بعد موته. وقيل : السكوت والاكتفاء باللّه أولى ، ففى الحديث : «يرحم اللّه أخانا زكريّا ، وما كان عليه من يرثه» «١». وقوله تعالى : نِداءً خَفِيًّا. الإخفاء عند الصوفية أولى فى الدعاء والذكر وسائر الأعمال ، إلا لأهل الاقتداء من الكملة ، فهم بحسب ما يبرز فى الوقت.

وقوله تعالى : وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. فيه قياس الباقي على الماضي ، فالذى أحسن فى الماضي يحسن فى الباقي ، فهذا أحد الأسباب فى تقوية حسن الظن باللّه وأعظم منه من حسّن الظن باللّه لما هو متصف به تعالى من كمال القدرة والكرم ، والجود والرأفة والرحمة ، فإن الأول ملاحظ للتجربة ، والثاني ناظر لعين المنّة.

قال فى الحكم : «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه ، حسّن ظنك به لوجود معاملته معك ، فهل عوّدك إلا حسنا؟

وهل أسدى إليك إلا مننا؟».

ثم ذكر إجابته لزكريا عليه السّلام ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧ الى ١١]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/ ٣) ، وابن جرير (١٦/ ٤٨) عن قتادة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢١

قلت : «عِتِيًّا» : مصدر ، من عتا يعتو ، وأصله : عتوو ، فاستثقل توالى الضمتين والواوين ، فكسرت التاء ، فقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء ، وسبق إحداهما بالسكون. (قالَ كَذلِكَ) : خبر ، أي : الأمر كذلك ، فيوقف عليه ، ثم يقول : (قالَ رَبُّكَ) ، أو مصدر لقال الثانية ، أي : مثل ذاك القول قال ربك. و(سَوِيًّا) : حال من فاعل (تُكَلِّمَ).

يقول الحق جل جلاله : يا زَكَرِيَّا ، كلمه بواسطة الملك : إِنَّا نُبَشِّرُكَ ونجيب دعوتك بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لأنه حيى به عقم أمه. أجاب نداءه فى الجملة ، لا من كل وجه ، بل على حسب المشيئة ، فإنه طلب ولدا يرثه ، فأجيب فى الولد دون الإرث فإن الجمهور على أن يحيى مات قبل موت أبيه – عليهما السلام – وقيل : بقي بعده برهة ، فلا إشكال حينئذ. وفى تعيين اسمه تأكيد للوعد وتشريف له ، وفى تخصيصه به – كما قال تعالى : لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا أي : شريكا فى الاسم ، حيث لم يتسم به أحد قبله – مزيد تشريف وتفخيم له عليه السّلام فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة»

. وقيل : (سَمِيًّا) : شبيها فى الفضل والكمال ، كما قال تعالى : هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا «٢» فإنه عليه السّلام لم يكن قبله أحد مثله فى بعض أوصافه ، لأنه لم يهم بمعصية قط ، وأنه ولد لشيخ فان ، وعجوز عاقر ، وأنه كان حصورا ، ولم تكن هذه الخصال لغيره.

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ أي : من أين وكيف يحدث لى غلام ، وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً : عقيمة ، وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا : يبسا فى الأعضاء والمفاصل ، ونحولا فى البدن ، لكبره ، وكان سنّه إذ ذاك مائة وعشرين ، وامرأته ثمان وتسعين. وتقدم الخلاف فيه. وإنما قاله عليه السّلام مع سبق دعائه وقوة يقينه ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى ، وتعجيبا منها ، واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك ، بإظهار أنه من محض فضل الله وكرمه ، مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة. وقيل : كان دهشا من ثمرة الفرح ، وقيل : كان ذلك منه استفهاما عن كيفية حدوثه. وقيل : بل كان ذلك بطريق الاستبعاد ، حيث كان بين الدعاء والبشارة ستّون سنة ، وكان قد نسى دعاءه ، وهو بعيد.

قالَ كَذلِكَ أي : الأمر كما ذكر من كبر السن وعقم المرأة ، لكن هو على قدرتنا هين ، ولذلك قال : قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، أو مثل ذلك القول البديع قال ربك ، ثم فسره بقوله : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، أو «مثل» مقحمة ، أي : ذلك قال ربك. والإشارة إلى مصدره ، الذي هو عبارة عن إيجاد الولد السابق ، أو كذلك قضى ربك.

(١) وجه الفضيلة : أن اللّه تعالى تولى تسميته ، ولم يكل ذلك إلى أبويه ، فسمّاه باسم لم يسبق إليه ... راجع : زاد المسير (٥/ ٢١٠).

(٢) من الآية ٦٥ من سورة مريم.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٢

ثم قال : هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً أي : وقد أوجدت أصلك «آدم» من العدم ، ثم نشأت أنت من صلبه ، ولم تك شيئا ، فإن نشأة آدم عليه السّلام وتصويره منطوية على نشأة أولاده ، ولذلك قال فى آية أخرى :

وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ «١» الآية. انظر تفسير أبى السعود.

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أي : علامة تدلنى على تحقق المسئول ، وبلوغ المأمول ، وهو حمل المرأة بذلك الولد ، لأتلقى تلك النعمة العظيمة بالشكر حين حدوثها ، ولا أؤخر الشكر إلى وقت ظهورها ، وينبغى أن يكون سؤاله الآية بعد البشارة ببرهة من الزمان لما يروى أن (يحيى كان أكبر من عيسى – عليهما السلام – بستة أشهر ، أو بثلاث سنين) ، ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه السّلام كان فى صغر مريم ، لقوله تعالى : هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ «٢» ، وهى إنما ولدت عيسى عليه السّلام وهى بنت عشر سنين ، أو ثلاث عشرة سنة ، أو يكون تأخر ظهور الآية إلى قرب بلوغ مريم – عليها السلام.

قالَ له تعالى : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ أي : أن لا تقدر على أن تكلم الناس مع القدرة على الذكر ، ثَلاثَ لَيالٍ بأيامهن ، للتصريح بها فى آل عمران «٣» ، حال كونك سَوِيًّا أي : سوىّ الخلق سليم الجوارح ، مابك شائبة بكم ولا خرس ، وإنما منعت بطريق الاضطرار مع كمال الأعضاء. وحكمة منعه لينحصر كلامه فى الشكر والذكر فى تلك الأيام.

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ : من المصلّى ، وكان مغلقا عليه ، فالمحراب مكان التعبد ، أو من الغرفة ، وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب ، ليدخلوا ويصلوا ، إذ خرج عليهم متغيرا لونه ، فأنكروه ، وقالوا له : مالك؟ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أي : أومأ إليهم ، وقيل : كتب فى الأرض : أَنْ سَبِّحُوا أي : صلوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا : صلاة الفجر وصلاة العصر ، ولعلها كانت صلاتهم. أو : نزهوا ربكم طرفى النهار ، ولعله أمر أن يسبح فيها شكرا ، ويأمر قومه بذلك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إجابة الدعاء مشروطة بالاضطرار ، قال تعالى : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ «٤» وفى الحكم :

«ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا اضطررت إلى مولاك ، فلا محالة يجيب دعاك ، لكن فيما يريد لا فيما تريد ، وفى الوقت الذي يريد ، لا فى الوقت الذي تريد. فلا تيأس ولا تستعجل (وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ). فإذا رأيت مولاك أجابك فيما سألته ، فاجعل كلامك كله فى شكره وذكره ، واستفرغ أوقاتك ، إلا من شهود إحسانه وبره. وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف. [.....]

(٢) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٣) فى قوله تعالى : قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً الآية ٤١.

(٤) من الآية ٦٢ من سورة النمل.

ثم ذكر وصيته ليحيى عليه السّلام ونعوته ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ١٢ الى ١٥]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً وَكانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

. قلت : «صَبِيًّا» : حال من مفعول «آتَيْناهُ» ، و«حَناناً» و«زَكاةً» : عطف على «الْحُكْمَ». و«مِنْ لَدُنَّا» : متعلق بمحذوف ، صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية ، أي : وآتيناه الحكم وتحنّنا عظيما واقعا من جنابنا ، أو شفقة فى قلبه ورحمة على أبويه وغيرهما. قال ابن عباس : (ما أدرى ما حنانا إلا أن يكون تعطف رحمة الله على عباده). ومنه قولهم : «حنانيك» ، مثل سعديك ، وأصله : من حنين الناقة على ولدها ، و(بَرًّا)

: عطف على «تَقِيًّا».

يقول الحق جل جلاله : يا يَحْيى أي : قلنا يا يحيى ، وهذا استئناف طوى قبله جمل كثيرة ، مما يدل على ولادته ونشأته ، حتى أوحى إليه ، ثم قال له : يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ أي : التوراة ، وقيل : كتاب خص به ، فدلت الآية على رسالته. وفى تفسير ابن عرفة : أن يحيى رسول كعيسى. هـ. وقوله : بِقُوَّةٍ أي : بجد واجتهاد ، وقيل :

بالعمل به ، وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، قال ابن عباس : (الحكم هنا النبوة ، استنبأه وهو ابن ثلاث سنين) ، قلت : كون الصبى نبيا جائز عقلا ، واقع عند الجمهور ، وأما بعثه رسولا فجائز عقلا ، وظاهر كلام

الفخر «١» هنا أنه واقع ، وأن يحيى وعيسى بعثا صغيرين. وقال ابن مرزوق فى شرح البخاري ما نصه : (الأعم : بعث الأنبياء بعد الأربعين) لأنه بلوغ الأشد ، وقيل : أرسل يحيى وعيسى – عليهما السلام – صبيين. وقال ابن العربي : يجوز ، ولم يقع.

وقول عيسى عليه السّلام : (إنى عبد اللّه) إخبار عما وجب فى المستقبل ، لا عما حصل. واستشكل جواز بعث الصبى بأنه تكليف ، وشرطه : البلوغ ، إن كانت الشرائع فيه سواء. انظر المحشى الفاسى.

قلت : والذي يظهر أن يحيى وعيسى – عليهما السلام – تنبئا صغيرين ، وأرسلا بعد البلوغ. والله تعالى أعلم. وقيل : الحكم : الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين. روى أنه دعاه الصبيان إلى اللعب ، فقال : ما للعب خلقت.

وَآتيناه حَناناً أي : تحنّنا عظيما مِنْ لَدُنَّا : من جناب قدسنا ، أو تحننا من الناس عليه. قال عوف : الحنان المحبّب ، وَزَكاةً : طهارة من العيوب والذنوب ، أو صدقة تصدقنا به على أبويه ، أو : وفّقناه للتصدق على الناس. وَكانَ تَقِيًّا مطيعا للّه ، متجنبا للمعاصى ، وَبَرًّا بِوالِدَيْهِ

: لطيفا بهما محسنا إليهما ،

---

(١) أي الفخر الرازي فى تفسيره.

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا

متكبرا عاقا ، فالجبّار : هو المتكبر ، لأنه يجبر الناس على أخلاقه. وقيل : من لا يقبل النصيحة ، أو عاصيا اللّه تعالى. وَسَلامٌ عَلَيْهِ

أي : سلامة من اللّه تعالى عليه ، يَوْمَ وُلِدَ

من أن يناله الشيطان بما ينال بنى آدم ، وَيَوْمَ يَمُوتُ

من عذاب القبر ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا

من هول القيامة وعذاب النار.

روى أن يحيى وعيسى – عليهما السلام – التقيا ، فقال له يحيى : استغفر لى ، فأنت خير منى ، فقال له عيسى :

أنت خير منى ، أنا سلمت على نفسى وأنت سلم الله عليك.

الإشارة : أخذ الكتاب بالقوة – وهو الجد والاجتهاد فى قراءته – هو أن يكون متجردا لتلاوته ،

منصرف الهمة إليه عن غيره ، فلا يصدق على العبد أن يأخذ كتاب ربه بقوة ، حتى يكون هكذا عند تلاوته. قال الورتجبي :

خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ أي : خذ كتابنا بنا لابك ، والكتاب كلام الحق الأزلى ، أي : خذ الكتاب الأزلى بالقوة الأزلية. هـ. ومعناه أن يكون التالي فانيا عن نفسه ، متكلما بربه ، ويسمعه من ربه ، فهذا حال المقربين.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة مريم – عليها السلام – فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ١٦ الى ٢١]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (١٧) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (١٩) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (٢١)

قلت : (إِذِ انْتَبَذَتْ)

: بدل اشتمال من مريم ، على أن المراد بها نبؤها ، فإن الظرف مشتمل على ما فيها ، وقيل :

بدل الكل ، على أن المراد بالظرف ما وقع فيه. وقيل : «إِذِ»

ظرف لنبأ المقدر ، أي : اذكر نبأ مريم حين انتبذت لأن الذكر لا يتعلق بالأعيان ، لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط ، بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ. و(مَكاناً)

: مفعول بانتبذت ، باعتبار ما فيه من معنى الإتيان ، أي : اعتزلت وأتت مكانا شرقيا ، أو ظرف له ، أي : اعتزلت فى مكان شرقى. و(بَشَراً)

: حال. وجواب (إِنْ كُنْتَ)

: محذوف ، أي : إن كنت تقيا فإنى عائذة بالرحمن منك. و(بَغِيًّا) أصله : بغوي ، على وزن فعول ،

فأدغمت الواو – بعد قلبها ياء – فى الياء ، وكسرت الغين للياء «١» ، و(لِنَجْعَلَهُ) : متعلق بمحذوف ، أي : ولنجعله آية فعلنا ذلك ، أو معطوف على محذوف ، أي : لنبين لهم كمال قدرتنا ولنجعله .. إلخ. أو على جملة : (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) لأنها فى معنى العلة ، أي : كذلك قال ربك لقدرتنا على ذلك

ولنجعله .. إلخ.
يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ
يا محمد فِي الْكِتابِ
: القرآن ، والمراد هذه السورة الكريمة لأنها هى التي صدرت بذكر زكريا ، واستتبعت بذكر قصة مريم لما بينهما من الاشتباك. أي : اذكر فى الكتاب نبأ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ
حين اعتزلت مِنْ أَهْلِها
وأتت مَكاناً شَرْقِيًّا
من بيت المقدس ، أو من دارها لتتخلى فيه للعبادة ، ولذلك اتخذت النصارى المشرق قبلة. وقيل : قعدت فى مشربة لتغتسل من الحيض ، محتجبة بشىء يسترها ، وذلك قوله تعالى : فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً
، وكان موضعها المسجد ، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها ، وإذا طهرت عادت إلى المسجد. فبينما هى تغتسل من الحيض ، محتجبة دونهم ، أتاها جبريل عليه السّلام فى صورة آدمي ، شاب أمرد ، وضىء الوجه.
قال تعالى : فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا
:
جبريل عليه السّلام ، عبّر عنه بذلك توفية للمقام حقه. وقرىء بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد ، يعنى اتباعه والاهتداء به ، الذي هو عدة المقربين فى قوله : فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ «٢». فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا
: سوىّ الخلق ، كامل البنية ، لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا ، وقيل : تمثل لها فى صورة شاب ترب «٣» لها ، اسمه يوسف ، من خدم بيت المقدس ، وإنما تمثل لها فى تلك الصورة الجميلة لتستأنس به ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلامه تعالى إذ لو ظهر لها على صورة الملكية ، لنفرت منه ولم تستطع مقاومته.
وأما ما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها ، فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، فغلط فاحش ، ينحو إلى مذهب الفلاسفة ، ولعلها نزعة مسروقة من مطالعة كتبهم ، يكذبه قوله تعالى : قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها ميل إليه ، فضلا عن ما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة. نعم يمكن أن يكون ظهر على ذلك الحسن الفائق والجمال اللائق لابتلائها واختبار عفّتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه. وذكر عنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى ، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة ، التي هى العصمة مما دهمها. قاله أبو السعود.
وقولها : إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا

أي : تتقى الله فتبالى بالاستعاذة به.

---

(١) أي لمناسة الياء.

(٢) الآيتان ٨٨ – ٨٩ من سورة الواقعة.

(٣) أي : فى مثل سنها : فالتّرب : اللّدة والسّنّ ... انظر : اللسان (ترب ١/ ٤٢٥).

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٦

قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ

أي : لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر ، وإنما أنا رسول من استعذت برحمانيته لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً

أي : لأكون سببا فى هبة الغلام ، أو : ليهب لك ربك غلاما – فى قراءة الياء – .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها ، والإشعار بعلية الحكم فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها. وقوله : زَكِيًّا

أي : طاهرا من العيوب صالحا ، أو تزكو أحواله وتنمو فى الخير ، من سن الطفولية إلى الكبر.

قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ كما وصفت ، وَالحال أنه لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ بالنكاح ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا زانية فاجرة تبتغى الرجال؟ قالَ لها الملك : كَذلِكِ أي : الأمر كما قلت لك قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ أي : هبة الغلام من غير أن يمسسك بشر هين سهل على قدرتنا ، وإن كان مستحيلا عادة لأنى لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ، بل أمرنا بين الكاف والنون ، وَإنما فعلنا ذلك لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ يستدلون به على كمال قدرتنا. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ، وَلنجعله رَحْمَةً عظيمة كائنة مِنَّا عليهم ، ليهتدوا بهدايته ، ويرشدوا بإرشاده. وَكانَ ذلك أَمْراً مَقْضِيًّا فى الأزل ، قد تعلق به قضاء الله وقدره ، وسطّر فى اللوح المحفوظ ، فلا بدّ من جريانه عليك ، أو : كان أمرا حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة وأسرارا عجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباذ عن الفجار ، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار ، أو عن الشهود والاستبصار ، فإذا اعتزل مكانا شرقيا ، أي : قريبا من شروق الأنوار والأسرار ، بحيث يكون قريبا من أهل الأنوار ، أو بإذنهم ، أرسل الله إليه روحا قدسيا ، وهو وارد ربانى تحيا به روحه وسره وقلبه وقالبه ، فيهب له علما لدنيا ، وسرا ربانيا ، يكون آية لمن بعده ، ورحمة لمن اقتدى به وتبعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حملها وولادتها وما كان من شأنها مع قومها ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٢٢ الى ٣٣]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (٢٢) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (٢٣) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا (٢٧) يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (٣١)

وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٢٧

قلت : (رُطَباً) : تمييز ، فيمن أثبت التاءين «١» ، أو حذف إحداهما ، ومفعول به ، فيمن قرأ بتاء واحدة مع كسر القاف.

يقول الحق جل جلاله : فَحَمَلَتْهُ بأن نفخ جبريل فى درعها ، فدخلت النفخة فى جوفها. قيل : إن جبريل عليه السّلام رفع درعها فنفخ فى جيبه ، وقيل : نفخ عن بعد ، فوصل الريح إليها فحملت فى الحال ، وقيل : إن النفخة كانت فى فيها ، وكانت مدة حملها سبعة أشهر ، وقيل : ثمانية. ولم يعش ولد من ثمانية. وفى ابن عطية :

تظاهرت الروايات أنها ولدت لثمانية أشهر ، ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظا لخاصية عيسى ، فتكون معجزة له. هـ. وقيل : تسعة أشهر. وقيل : ثلاث ساعات ، حملته فى ساعة ، وصور فى ساعة ، ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس. وقيل : ساعة ، ما هو إلا أن حملت فوضعت ، وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة ، وقيل : عشر سنين ، وقد حاضت حيضتين.

فَانْتَبَذَتْ بِهِ أي : فاعتزلت ملتبسة به حين أحست بقرب وضعها ، مَكاناً قَصِيًّا : بعيدا من أهلها وراء الجبل ، وقيل : أقصى الدار. فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ فألجأها المخاض. وقرئ بكسر الميم. وكلاهما مصدر ، محضت المرأة : إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج ، إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ لتستتر به ، أو لتعتمد عليه عند الولادة ، وهو ما بين العرق والغصن. وكانت نخلة يابسة ، لا رأس لها ولا قعدة ، قد جيىء بها لبناء

بيت ، وكان الوقت شتاء ، والتعريف فى النخلة إما للجنس أو للعهد ، إذ لم يكن ثمّ غيرها ، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها ، وليطعمها الرطب ، الذي هو من طعام النفساء الموافق لها.

قالَتْ حين أخذها وجع الطلق : يا لَيْتَنِي مِتُّ «٢» بكسر الميم ، من مات يمات ، وبالضم ، من مات

---

(١) فى قوله تعالى : (تُساقِطْ).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف : «مت» بكسر الميم ، والباقون بالضم.

يموت ، قَبْلَ هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت ، وإنما قالته ، مع أنها كانت تعلم ما جرى لها مع جبريل عليه السّلام من الوعد الكريم استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر ، كما روى عن عمر رضي اللّه عنه أنه أخذ تبنة من الأرض ، فقال : «ليتني هذه التبنة ولم أكن شيئا». وقال بلال : (ليت بلالا لم تلده أمه). ثم قالت : وَكُنْتُ نَسْياً «١» أي : شيئا تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به ، مَنْسِيًّا لا يخطر ببال أحد من الناس. وقرئ بفتح النون ، وهما لغتان نسى ونسى ، كالوتر والوتر. وقيل : بالكسر : اسم ما ينسى ، وبالفتح : مصدر.

فَناداها أي : جبريل عليه السّلام مِنْ تَحْتِها ، قيل : إنه كان يقبل الولد من تحتها ، أي : من مكان أسفل منها ، .

وقيل : من تحت النخلة ، وقيل : ناداها عيسى عليه السّلام ، ويرجحه قراءة من قرأ بفتح الميم ، أي : فخاطبها الذي تحتها :

أَلَّا تَحْزَنِي ، أو : بألا تحزنى ، على أنّ «أن» مفسرة ، أو مصدرية ، حذف عنها الجار. قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ أي : بمكان أسفل منك سَرِيًّا أي : نهرا صغيرا ، حسبما روى مرفوعا. «٢» قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : (إن جبريل عليه السّلام ضرب برجله الأرض ، فظهرت عين ماء عذب ، فجرى جدولا).

وقيل : فعله عيسى ، أي : ضرب برجله فجرى ، وقيل : كان هناك نهر يابس – أجرى اللّه تعالى فيه الماء ، كما فعل مثله بالنخلة ، فإنها كانت يابسة لا رأس لها ، فأخرج لها رأسا وخوصا وتمرا. وقيل : كان هناك نهر ماء. والأول أظهر لأنه الموافق لبيان إظهار الخوارق ، والمتبادر من النظم الكريم.

وقيل : (سَرِيًّا) أي : سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا ، وهو عيسى عليه السّلام ، والتنوين حينئذ للتفخيم. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها

لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

ثم قال : وَهُزِّي إِلَيْكِ أي : حركى النخلة إليك ، أي : جاذبة لها إلى جهتك. فهزّ الشيء : تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا ، والمراد هنا ما كان بطريق الجذب والدفع. والباء فى قوله : بِجِذْعِ النَّخْلَةِ :

صلة للتأكيد ، لقول العرب : هزّ الشيء وهز به ، أو للإلصاق. فإذا هززت النخلة تُساقِطْ «٣» أي : تتساقط.

وقرئ : تساقط ، وتسقط ، أي : النخلة عليك إسقاطا متواترا بحسب تواتر الهز رُطَباً جَنِيًّا أي : طريا ، وهو ما قطع قبل يبسه. فعيل بمعنى مفعول ، أي : مجنيا صالحا للاجتناء. فَكُلِي من ذلك الرطب

---

(١) قرأ حفص وحمزة بفتح النون ، والباقون بكسرها .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٣٥).

(٢) أخرج المرفوع الطبراني فى المعجم الصغير (١/ ٢٤٤) من حديث البراء بن عازب ، وأخرجه فى الكبير (١٢/ ٣٤٦ ح ١٣٣٠٣) من حديث ابن عمر.

(٣) هذه قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وابن عمرو ، والكسائي. وقرأ حفص «تساقط» بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف.

وقرأ حمزة «تساقط» بفتح التاء والقاف وتخفيف السين ، والأصل : تتساقط. انظر : التبصرة/ ٢٥٦ ، والإتحاف (٢/ ٢٣٥).

وَاشْرَبِي من ذلك السرى ، وَقَرِّي عَيْناً وطيبى نفسا وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك ، فإنه تعالى قد نزه ساحتك عن التهم ، بما يفصح به لسان ولدك من التبرئة. أو : وقرى عينا بحفظ اللّه ورعايته فى أمورك كلها.

وقرة العين : برودتها ، مأخوذ من القرّ ، وهو البرد لأن دمع الفرح بارد ، ودمع الحزن سخن ، ولذلك يقال : قرة العين للمحبوب ، وسخنة العين للمكروه.

فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً آدميا كائنا من كان فَقُولِي له إن استنطقك أو لامك : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً أي : صمتا ، وقرىء كذلك ، وكان صيامهم السكوت ، فكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام. وذكر ابن العربي فى الأحوذى : أن نبينا – عليه الصلاة والسلام – اختص بإباحة الكلام لأمته فى الصوم ، وكان محرما على من قبلنا ، عكس الصلاة. هـ. قالت : فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا أي :

بعد أن أخبرتكم بنذرى ، وإنما أكلم الملائكة أو أناجى ربى. وقيل : أمرت بأن تخبر عن نذرها بالإشارة. قال الفراء : العرب تسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاما ، ما لم يؤكّد بالمصدر ، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. هـ. وإنما أمرت بذلك ونذرته لكراهة مجادلة السفهاء ومقاولتهم ، وللاكتفاء بكلام عيسى عليه السّلام فإنه نص قاطع فى قطع الطعن.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها عند ما طهرت من نفاسها ، تَحْمِلُهُ أي : حاملة له. قال الكلبي : احتمل يوسف النجار – وكان ابن عمها – مريم وابنها عيسى ، فأدخلهما غارا أربعين يوما ، حتى تعلّت من نفاسها ، ثم جاءت به تحمله بعد أربعين يوما ، وكلمها عيسى فى الطريق ، فقال : يا أمه ، أبشرى ، فإنى عبد الله ومسيحه. فلما رآها أهلها ، بكوا وحزنوا ، وكانوا قوما صالحين. قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ أي : فعلت شَيْئاً فَرِيًّا : عظيما بديعا منكرا ، من فرى الجلد : قطعه. قال أبو عبيدة : (كل فائق من عجب أو عمل فهو فرىّ). قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : فى حق عمر رضي اللّه عنه : «فلم أر عبقريا من النّاس يفرى فريّه» «١» أي : يعمل عمله.

يا أُخْتَ هارُونَ ، عنوا هارون أخا موسى لأنها كانت من نسله ، أي : كانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الأخوة ، وكان بينها وبينه ألف سنة. أو يا أخت هارون فى الصلاح والنسك ، وكان رجلا صالحا فى زمانهم اسمه هارون ، فشبهوها به. ذكر لما مات تبع جنازته أربعون ألفا ، كلهم يسمى هارون من بنى إسرائيل. وقيل : إن هارون الذي شبهوها به كان أفسق بنى إسرائيل ، فشتموها بتشبيهها به. ما كانَ أَبُوكِ عمران امْرَأَ سَوْءٍ

---

(١) أخرجه البخاري فى مواضع ، منها : (فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه) عن عبد اللّه بن عمر ، وأخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر رضي اللّه عنه) عن أبى هريرة ، ولفظ الحديث كاملا كما فى البخاري : قال صلى اللّه عليه وسلم :

«أريت فى المنام أنى أنزع بدلو على بكرة على قليب ، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، واللّه يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب ، فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفرى فريه ، حتى روى الناس وضربوا بعطن».

وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ، فمن أين لك هذا الولد من غير زوج؟. هذا تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا ، أو تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش الفواحش.

فَأَشارَتْ إِلَيْهِ أي : إلى عيسى أن كلموه ، ولم تكلمهم وفاء بنذرها ، وإشارتها إليه من باب الإدلال ، رجوعا لقوله لها : (وَ قَرِّي عَيْناً) ، ولا تقر عينها إلا بالوفاء بما وعدت به من العناية بأمرها والكفاية لشأنها ، وذلك يقتضى انفرادها بالله وغناها به ، فتدل بالإشارة. وكان ذلك طوع يدها ، وتذكّر قضية جريج. قاله فى الحاشية.

قالُوا منكرين لجوابها : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، ولم يعهد فيما سلف صبى يكلمه عاقل. و«كانَ» هنا : تامة. و«صَبِيًّا» : حال. وقيل : زائدة ، أي : من هو فى المهد.

قالَ عيسى عليه السّلام : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، أنطقه اللّه تعالى بذلك ، تحقيقا للحق ، وردا على من يزعم ربوبيته.

قيل كان المستنطق لعيسى زكريا – عليهما السلام – وعن السدى : (لما أشارت إليه ، غضبوا ، وقالوا : لسخريتها بنا أشدّ علينا مما فعلت). روى أنه عليه السّلام كان يرضع ، فلما سمع ذلك ترك الرضاع ، وأقبل عليهم بوجهه ، واتكأ على يساره ، وأشار بسبابته ، فقال ما قال. وقيل : كلمهم بذلك ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان.

ثم قال فى كلامه : آتانِيَ الْكِتابَ : الإنجيل : وَجَعَلَنِي مع ذلك نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبارَكاً : نفّاعا للناس ، معلما للخير أَيْنَ ما كُنْتُ أي : حيثما كنت ، وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ : أمرنى بها أمرا مؤكدا ، وَالزَّكاةِ زكاة الأموال ، أو بتطهير النفس من الرذائل ما دُمْتُ حَيًّا فى الدنيا. وَجعلنى بَرًّا بِوالِدَتِي فهو عطف على مُبارَكاً. وقرئ بالكسر ، على أنه مصدر وصف به مبالغة ، وعبّر بالفعل الماضي فى الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم ، أو بجعل ما سيقع واقعا لتحققه. ثم قال :

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا عند اللّه تعالى ، بل متواضعا لينا ، سعيدا مقربا ، فكان يقول : سلونى ، فإن قلبى لين ، وإنى فى نفسى صغير ، لما أعطاه اللّه من التواضع.

ثم قال : وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ، كما تقدم على يحيى. وفيه تعريض بمن خالفه ، فإن إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضده لأضداده ، كما فى قوله تعالى : وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى «١» فإنه تعريض بأن العذاب على من كذّب وتولى.

فهذا آخر كلام عيسى عليه السّلام ، وهو أحد من تكلم فى المهد ، وقد تقدم ذكرهم فى سورة يوسف نظما ونثرا. وكلهم معروفون ، غير أن ماشطة ابنة فرعون لم تشتهر حكايتها. وسأذكرها كما ذكرها الثعلبي. قال : قال ابن عباس :

(لما أسرى بالنبي صلى اللّه عليه وسلم مرت به ريح طيبة فقال : يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال : رائحة ماشطة بنت فرعون ، كانت

---

(١) الآية ٤٧ من سورة طه. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣١

تمشطها ، فوقع المشط من يدها ، فقالت : بسم الله ، فقالت ابنته : أبى؟ فقالت : لا ، بل ربى وربك ورب أبيك. فقالت :

أخبر بذلك أبى؟ قالت : نعم ، فأخبرته فدعاها ، وقال : من ربك؟ قالت : ربى وربك فى السماء ، فأمر فرعون ببقرة – أي : آنية عظيمة من نحاس – فأحميت ، ودعاها بولدها ، فقالت : إن لى إليك لحاجة ، قال : وما حاجتك؟ قالت :

تجمع عظامى وعظام ولدي فتدفنها جميعا ، قال : وذلك لك علينا من الحقّ ، سأفعل ذلك لك ، فأمر بأولادها واحدا واحدا ، حتى إذا كان آخر ولدها ، وكان صبيا مرضعا ، قال : اصبري يا أمه .. فألقاها فى البقرة مع ولدها «١». هـ.

الإشارة : يؤخذ من الآية أمور صوفية ، منها : أن الإنسان يباح له أن يستتر فى الأمور التي تهتك عرضه ، ويهرب إلى مكان يصان فيه عرضه ، إلا أن يكون فى مقام الرياضة والمجاهدة ، فإنه يتعاطى ما تموت به نفسه ، ومنها : أنه لا بأس أن يلجأ الإنسان إلى ما يخفف آلامه ويسهل شدته ، ولا ينافى توكله.

ومنها : أن لا بأس أن يتمنى الموت إذا خاف ذهاب دينه أو عرضه ، أو فتنة تحول بينه وبين قلبه.

ويؤخذ أيضا من الآية : أن فزع القلب عند الصدمة الأولى لا ينافى الصبر والرضا لأنه من طبع البشر ، وإنما ينافيه تماديه على الجزع.

ومنها : أن تحريك الأسباب الشرعية لا ينافى التوكل ، لقوله تعالى : (وَ هُزِّي إِلَيْكِ). لكن إذا كانت خفيفة مصحوبة بإقامة الدين ، غير معتمد عليها بقلبه ، فإن كان متجردا فلا يرجع إليها حتى يكمل يقينه ، ويتمكن فى معرفة الحق تعالى. وقد كانت فى بدايتها تأتى إليها الأرزاق بغير سبب كما فى سورة آل عمران «٢» ، وفى نهايتها قال لها : (وَ هُزِّي إِلَيْكِ). قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كانت فى بدايتها متعرفا إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب ، فلما تكمل يقينها رجعت إلى الأسباب ، والحالة الثانية أتم من الحالة الأولى ، وأما من قال : إن حبها أولا كان للّه وحده ، فلما ولدت انقسم حبها ، فهو تأويل لا يرضى ولا ينبغى أن يلتفت إليه ، لأنها صدّيقة ، والصدّيق والصدّيقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها.

ومنها : أن الإنسان لا بأس أن يوجب على نفسه عبادة ، إذا كان يتحصن بها من الناس ، أو من نفسه ، كالصوم أو الصمت «٣» أو غيرهما ، مما يحجزه عن العوام ، أو عن الانتصار للنفس.

وقوله تعالى : (وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ...) الآية : قال : الورتجبي : سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية. ثم قال : وسلام عيسى من عين الجمع ، سلام فيه مزية ظهور الربوبية فى معدن

العبودية. وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحا فى وصاله وكشف جماله ، ولو سلّم عليه بلسانه كان بلسان الحدث ، ولا يبلغ رتبة سلامه بوصف قدمه. هـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٠٩) مرفوعا. والحديث فى مجمع الزوائد (١/ ٦٥) وعزاه لأحمد والبزار والطبراني فى الكبير والأوسط.

(٢) فى قوله تعالى : كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. الآية ٣٧.

(٣) قلت : ما قاله جائز فى الصوم ، وغير جائز فى الصمت لما ورد فى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الذي نذر الصوم والصمت أن يتم صومه ، وأن يتكلم. فتأمله فإنه دقيق.

ثم شرع فى الرد على النصارى ، وعلى من أشرك معه غيره ، فقال تعالى :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٣٤ الى ٤٠]

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٨)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (٤٠)

قلت : وَإِنَّ اللَّهَ : عطف على قوله : (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) فيمن كسر ، وعلى حذف اللام فيمن فتح ، أي : ولأن الله ربى وربكم. وقال الواحدي وأبو محمد مكى : عطف على قوله : (بِالصَّلاةِ) أي : أوصانى بالصلاة وبأن الله ... إلخ : وقال المحلى :

بالفتح ، بتقدير اذكر ، وبالكسر بتقدير «قل». و(قَوْلَ الْحَقِّ) : مصدر مؤكد لقال ، فيمن نصب ، وخبر عن مضمر ، فيمن رفع ، أي : هو ، أو هذا. و(إِذا قَضى) : بدل من (يَوْمَ الْحَسْرَةِ) ، أو ظرف للحسرة. و(هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) : جملتان حاليتان من الضمير المستقر فى الظرف فى قوله : (فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي : مستقرين فى الضلال وهم فى تينك الحالتين.

يقول الحق جل جلاله : ذلِكَ المنعوت بتلك النعوت الجليلة ، والأوصاف الحميدة هو عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

، لا ما يصفه النصارى به من وصف الألوهية ، فهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني ، حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه به. وأتى بإشارة البعيد للدلالة على علو رتبته وبعد منزلته ، وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ، ونزوله منزلة المشاهد المحسوس.

هذا قَوْلَ الْحَقِّ ، أو قال عيسى قَوْلَ الْحَقِّ الذي لا ريب فيه ، وأنه عبد الله ورسوله ، الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ أي : يشكون أو يتنازعون ، فيقول اليهود : ساحر كذاب ، ويقول النصارى : إله ، أو ابن اللّه. ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ أي : ما صح ، أو ما استقام له أن يتخذ ولدا ، سُبْحانَهُ وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، فهو تنزيه عما بهتوه ، ونطقوا به من البهتان ، وكيف يصح أن يتخذ الله ولدا ، وهو يحتاج إلى أسباب ومعالجة ، وأمره تعالى أسرع من لحظ العيون ، إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

ثم قال لهم عيسى عليه السّلام : وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، فهو من تمام ما نطق به فى المهد ، وما بينهما اعتراض ، للمبادرة للرد على من غلط فيه ، أي : فإنى عبد ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره ، هذا الذي ذكرت لكم من التوحيد صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا يضل سالكه ولا يزيغ متبعه.

(٣٣٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٣

قال تعالى : فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، تنبيها على سوء صنيعهم ، بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشا للاختلاف ، فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السّلام ، مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله ، قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط ، وفرّق النصارى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعقوبية : هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وهم : المختلفون فيه بأنواع الضلالات. وأظهر الموصول فى موضع الإضمار إيذانا بكفرهم جميعا ، وإشعارا بعلّيّة الحكم ، مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أي : ويل لهم من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ، أو : من وقت شهوده أو مكانه ، أو من شهادة اليوم عليهم ، وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء – عليهم السلام – وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، بالكفر والفسوق.

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ أي : ما أسمعهم وما أبصرهم ، تعجب من حدة سمعهم وإبصارهم يومئذ. والمعنى : أن أسماعهم وأبصارهم يَوْمَ يَأْتُونَنا للحساب والجزاء جدير أن يتعجب منها ، بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا. أو :

ما أسمعهم وأطوعهم لما أبصروا من الهدى ، ولكن لا ينفعهم يومئذ مع ضلالهم عنه اليوم ، فقد سمعوا

وأبصروا ، حين لم ينفعهم ذلك. قال الكلبي : لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر ، حين يقول اللّه لعيسى : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ «١». هـ. ويحتمل أن يكون أمر تهديد لا تعجب ، أي : أسمعهم وأبصرهم مواعيد ذلك اليوم ، وما يحيق بهم فيه ، فالجار والمجرور ، على الأول ، فى موضع رفع ، وعلى الثاني : نصب. لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ أي : فى الدنيا ، فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : لا يدرك غايته ، حيث غفلوا عن الاستماع والنظر بالكلية. ووضع الظالمين موضع الضمير للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم حيث تركوا النظر.

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ يوم يتحسر الناس قاطبة ، أما المسيء فعلى إساءته ، وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ، إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ أي : فرغ من يوم الحساب ، وتميز الفريقان ، إلى الجنة وإلى النار.

روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن ذلك ، فقال : «حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، فيذبح ، والفريقان ينظرون ، فينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ، وأهل النار غما إلى غمهم ، ثم قرأ صلى اللّه عليه وسلم : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وأشار بيده إلى الدنيا» «٢» قال مقاتل : (لو لا ما قضى اللّه من تعميرهم فيها ، وخلودهم لماتوا حسرة حين رأوا ذلك). وَهُمْ فى

---

(١) الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، باب : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ). ومسلم فى (الجنة وصفة نعيمها ، باب : النار يدخلها الجبارون) ، من حديث أبى سعيد الخدري – رضى اللّه عنه – .

هذا اليوم فِي غَفْلَةٍ عما يراد بهم فى الآخرة ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بهذا لاغترارهم ببهجة الدنيا ، فلا بد أن تنهد دعائمها ، وتمحى بهجتها ، ويفنى كل ما عليها ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها لا ينبغى لأحد غيرنا أن يكون له عليها وعليكم ملك ولا تصرف ، أو : إنا نحن نتوفى الأرض ومن عليها ، بالإفناء والإهلاك ، توفى الوارث لإرثه ، وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ يردون إلى الجزاء ، لا إلى غيرنا ، استقلالا أو اشتراكا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد المعتنى بشأن نفسه أن يحصّن عقائده بالدلائل القاطعة ، والبراهين الساطعة ، على وفاق أهل السنّة ، ثم يجتهد فى صحبة أهل العرفان ، أهل الذوق والوجدان ، حتى يطلعوه على مقام الإحسان ، مقام أهل الشهود والعيان. فإذا فرط فى هذا ، لحقه الندم والحسرة ، فى يوم لا ينفع

فيه ذلك. فكل من تخلف عن مقام الذوق والوجدان فهو ظالم لنفسه باخس لها ، يلحقه شيء من الخسران ، ولا بد أن تبقى فيه بقية من الضلال ، حيث فرط عن اللحوق بطريق الرجال ، قال تعالى : (لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

(وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) أي : يوم يرفع المقربون ويسقط المدعون. فأهل الذوق والوجدان حصل لهم اللقاء فى هذه الدار ، ثم استمر لهم فى دار القرار. روى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه قال يوما بين يدى أستاذه :

(اللهم اغفر لى يوم لقائك). فقال له شيخه – القطب ابن مشيش – رضى اللّه عنهما : هو أقرب إليك من ليلك ونهارك ، ولكن الظلم أوجب الضلال ، وسبق القضاء حكم بالزوال عن درجة الأنس ومنازل الوصال ، وللظالم يوم لا يرتاب فيه ولا يخاتل ، والسابق قد وصل فى الحال ، «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين». هـ. كلامه رضي اللّه عنه.

ثم استتبع بذكر قصص الأنبياء ، تتمة للرد على أهل الشرك ، بأن الملل كلها متفقة على إبطاله ، وقدّم الخليل لأنه إمام أهل التوحيد ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٤١ الى ٤٥]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٤١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (٤٤) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (٤٥)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٥

قلت : (إِذْ قالَ)

: بدل اشتمال من (إِبْراهِيمَ) ، وما بينهما : اعتراض ، أو متعلق بكان.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ القرآن أو السورة ، إِبْراهِيمَ أي : أتل على الناس نبأه وبلغه إياهم ، كقوله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ «١» لأنهم ينتسبون إليه عليه السّلام ، فلعلهم باستماع قصته يقلعون عما هم عليه من الشرك والعصيان. إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر ، أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب اللّه تعالى وآياته وكتبه ورسله ، فالصدّيق مبالغة فى الصدق ، يقال : كل من صدق بتوحيد اللّه وأنبيائه وفرائضه ، وعمل بما صدق به فهو صدّيق ، وبذلك سمى أبو بكر الصدّيق ، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه عند الصوفية ، إن شاء اللّه.

والجملة : استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فإن وصفه عليه السّلام بذلك من دواعى ذكره ، وكان أيضا نَبِيًّا ، أي : كان جامعا بين الصديقية والنبوة ، إذ كل نبى صدّيق ، ولا عكس. ولم يقل : نبيا صديقا لئلا يتوهم تخصيص الصديقية بالنبوة.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ

آزر ، متلطفا فى الدعوة مستميلا له : يا أَبَتِ

، التاء بدل من ياء الإضافة ، أي : يا أبى ، لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ

ثناءك عليه حين تعبده ، ولا جؤارك إليه حين تدعوه ، وَلا يُبْصِرُ

خضوعك وخشوعك بين يديه ، أو : لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمبصرات ، فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا أوليا ، وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً

أي : لا يقدر أن ينفعك بشيء فى طلب نفع أو دفع ضرر.

انظر لقد سلك عليه السّلام فى دعوته وموعظته أحسن منهاج وأقوم سبيل ، واحتج عليه بأبدع احتجاج ، بحسن أدب ، وخلق جميل ، لكن وقع ذلك لسائر ركب متن المكابرة والعناد ، وانتكب بالكلية عن محجة الصواب والرشاد ، أي :

فإنّ من كان بهذه النقائص يأبى من له عقل التمييز من الركون إليه ، فضلا عن عبادته التي هى أقصى غاية التعظيم ، فإنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام ، الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المثيب المعاقب ، والشيء لو كان مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر ، لكنه ممكن ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته ، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر.

ثم دعاه إلى اتباعه لأنه على المنهاج القويم ، مصدّرا للدعوة بما مرّ من الاستعطاف والاستمالة ، حيث قال :

يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ، لم يسم أباه بالجهل المفرط ، وإن كان فى أقصاه ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، وإن كان فى أعلاه ، بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له ، أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق ،

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الشعراء.

فاستماله برفق ، حيث قال : فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا أي : مستقيما موصلا إلى أسمى المطالب ، منجيا من الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عما كان عليه من عبادة الأصنام ، فقال : يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ، فإن عبادتك للأصنام عبادة له ، إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها ، ثم علل نهيه فقال : إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ، فهو تعليل لموجب النهى ، وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك ، الذي أنعم عليك بفنون النعم ، وسينتقم منه فكيف تعبده؟.

والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير ، والاقتصار على ذكر عصيانه بترك السجود من بين سائر جناياته لأنه ملاكها ، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم وذريته ، فتذكيره به داع لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرض لعنوان الرحمانية لإظهار كمال شناعة عصيانه.

وقوله : يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان ، وهو اقترانه معه فى الهوان الفظيع. و(مِنَ الرَّحْمنِ) : صفة لعذاب ، أي : عذاب واقع من الرحمن ، وإظهار (الرَّحْمنِ) للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب ، كما فى قوله تعالى : ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ «١» ، فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا أي : فإذا قرنت معه فى العذاب تكون قرينا له فى اللعن المخلد. فهذه موعظة الخليل لأبيه ، وقد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه :

الأول : ندائه : بيا أبت ، ولم يقل يا آزر ، أو يا أبى.

الثاني : قوله : (ما لا يَسْمَعُ ...)

إلخ ، ولم يقل : لم تعبد الخشب والحجر.

الثالث : قوله : (إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ) ، ولم يقل له : أنك جاهل ضال.

الرابع : قوله : (إِنِّي أَخافُ) ، حيث عبّر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب.

الخامس : فى قوله : (أَنْ يَمَسَّكَ) ، حيث عبّر بالمس ولم يعبر باللحوق أو النزول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد جمع الحق تبارك وتعالى لخليله مقام الصدّيقية والنبوة مع الرسالة والخلة ، وقدّم الصديقية لتقدمها فى الوجود فى حال الترقي ، فالصديقية تلى مرتبة النبوة ، كما تقدم فى سورة النساء. فالصدّيق عند الصوفية هو الذي يعظم صدقه وتصديقه ، فيصدّق بوجود الحق وبمواعده ، حتى يكون ذلك نصب عينيه ، من غير تردد ولا تلجلج ، ولا توقف على آية ولا دليل. ثم يبذل مهجته وماله فى مرضاة مولاه ، كما فعل الخليل ، حيث قدم

---

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار.

بدنه للنيران وطعامه للضيفان وولده للقربان. وكما فعل الصدّيق ، حيث واسى النبي صلى اللّه عليه وسلم بنفسه فى الغار ، وخرج عن ماله خمس مرار. وكما فعل الغزالي حيث قدم نفسه للخراب ، حين اتصل بالشيخ وخرج عن ماله وجاهه فى طلب مولاه. ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : فى حقه : «إنا لنشهد له بالصدّيقية العظمى» ، وناهيك بمن شهد له الشاذلى بالصدّيقية.

ومن أوصاف الصدّيق أنه لا يتعجب من شيء من خوارق العادة ، مما تبرزه القدرة الأزلية ، ولا يتعاظم شيئا ولا يستغربه ، ولذلك وصف الحق تعالى مريم بالصديقية دون سارة ، حيث تعجبت ، وقالت : أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ «١» وأما مريم فإنما سألت عن وجه ذلك ، هل يكون بنكاح أم لا ، واللّه تعالى أعلم.

وفى الآية إشارة إلى حسن الملاطفة فى الوعظ والتذكير ، لا سيما لمن كان معظما كالوالدين ، أو كبيرا فى نفسه.

فينبغى لمن يذكره أن يأخذه بملاطفة وسياسة ، فيقر له المقام الذي أقامه اللّه تعالى فيه ، ثم يذكره بما يناسبه فى ذلك المقام ، ويشوقه إلى مقام أحسن منه ، وأما إن أنكر له مقامه من أول مرة ، فإنه يفرّ عنه ولم يستمع إلى وعظه ، كما هو مجرب. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر جواب أبيه له ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)

قلت : هذا استئناف بيانى ، مبنى على سؤال نشأ عن صدر الكلام ، كأنه قيل : فماذا قال أبوه عند ما سمع هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقال مصرا على عناده : أراغب ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : قالَ له أبوه فى جوابه : أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي أي : أمعرض ومنصرف أنت عنها فوجّه الإنكار إلى نفس الرغبة ، مع ضرب من التعجب ، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلا عن ترغيب الغير عنها ، ثم هدده فقال : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عن وعظك لَأَرْجُمَنَّكَ بالحجارة ، أي : واللّه لئن لم تنته عما أنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجر ، وقيل باللسان ، وَاهْجُرْنِي أي : واتركني مَلِيًّا أي : زمنا طويلا ، أو ما دام الأبد ، ويسمى الليل والنهار ملوان ، وهو عطف على محذوف ، أي : احذرنى واهجرني.

---

(١) الآية ٧٢ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٨

قالَ له إبراهيم عليه السّلام : سَلامٌ عَلَيْكَ منى ، لا أصيبك بمكروه ، وهو توديع ومتاركة على طريق مقابلة السيئة بالحسنة ، أي : لا أشافهك بما يؤذيك ، ولكن سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي أي : أستدعيه أن يغفر لك. وقد وفى عليه السّلام بقوله فى سورة الشعراء : وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ «١». أو : بأن يوفقك للتوبة ويهديك للإيمان. والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه ، وإنما المحظور استدعاء المغفرة مع بيان شقائه بالوحى ، وأما الاستغفار له بعد موته فالعقل لا يحليه. ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم لعمه أبى طالب : «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنك». ثم نهاه عنه كما تقدم فى التوبة. فالنهى من طريق السمع ، ولا اشتباه أن هذا الوعد من إبراهيم ، وكذا قوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ «٢» وقوله : وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ «٣» إنما كان قبل انقطاع رجائه من إيمانه ، بدليل قوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «٤».

وقوله تعالى : إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا أي : بليغا فى البر والألطاف ، رحيما بي فى أمورى ، قد عوّدنى الإجابة. أو عالما بي يستجيب لى إن دعوته ، وفى القاموس : حفى كرضى ، حفاوة. ثم قال : واحتفا : بالغ فى إكرامه وأظهر السّرور والفرح به ، وأكثر السؤال عن أحواله ، فهو حاف وحفي. هـ.

وَأَعْتَزِلُكُمْ أي : أتباعد عنك وعن قومك ، وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بالمهاجرة بديني ، حيث لم تؤثر فيكم نصائحى ، وَأَدْعُوا رَبِّي : أعبده وحده ، أو أدعوه بطلب المغفرة لك – أي قبل النهى – أو : أدعوه بطلب الولد ، كقوله : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ «٥» ، عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا أي : عسى ألا أشقى بعبادته ، أو : لا أخيب فى طلبه ، كما شقيتم أنتم فى عبادة آلهتكم وخبتم. ففيه تعريض بهم ، وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع وحسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة من طريق الفضل والكرم ، لا من طريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة والسعادة ، وفى ذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى.

الإشارة : انظر كيف رفض آزر من رغب عن آلهته ، وإن كان أقرب الناس إليه ، فكيف بك أيها المؤمن ألّا ترفض من يرغب عن إلهك ويعبد معه غيره ، أو يجحد نبيه ورسوله ، بل الواجب عليك أن ترفض كل ما يشغلك عنه ، غيرة منك على محبوبك ، وإذا نظرت بعين الحقيقة لم تجد الغيرة إلا على الحق ، إذ ليس فى الوجود إلا الحق ، وكل ما سواه باطل على التحقيق.

---

(١) الآية ٨٦ من سورة الشعراء.

(٢) فى الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(٣) من الآية ٨٦ من سورة الشعراء.
(٤) الآية ١١٤ من سورة التوبة.
(٥) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٣٩
فمن اعتزل كل ما سوى اللّه ، وأفرد وجهته إلى مولاه ، لم يشق فى مطلبه ومسعاه ، بل يطلعه اللّه على أسرار ذاته ، وأنوار صفاته ، حتى لا يرى فى الوجود إلا الواحد الأحد الفرد الصمد. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر نتيجة الانفراد عمن يصد عن اللّه ، فقال :
[سورة مريم (١٩) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]
فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)
قلت : (وَ كُلًّا) : مفعول أول لجعلنا ، و(عَلِيًّا) : حال من اللسان.
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ أي : اعتزل إبراهيم قومه وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بأن خرج من «كوثى» بأرض العراق ، مهاجرا إلى الشام واستقر بها ، وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ ولده وَيَعْقُوبَ حفيده ، بعد أن وهب له إسماعيل من أمته هاجر ، التي وهبت لزوجه سارة ، ثم وهبتها له ، فولد له منها إسماعيل ، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت منها سارة ، فخرج بها مع ولدها إسماعيل حتى أنزلهما مكة ، فكان سبب عمارتها. ثم حملت سارة بإسحاق ، ثم نشأ عنه يعقوب ، وإنما خصمها بالذكر لأنهما كانا معه فى بلده ، وإسحاق كان متصلا به يسعى معه فى مآربه ، فكانت النعمة بهما أعظم.
ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعمة التي أعطاها اللّه تعالى إياه ، فى مقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب ، فإنهما شجرة الأنبياء ، لهما أولاد وأحفاد ، لكل واحد منهم شأن خطير وعدد كثير.
وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا أي : وكل واحد منهما أو منهم جعلناه نبيا ورسولا.
وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا هى النبوة ، وذكرها بعد ذكر جعلهم أنبياء للإيذان بأنها من باب الرحمة والفضل. وقيل : الرحمة : المال والأولاد ، وما بسط لهم من سعة الرزق ، وقيل : إنزال الكتاب ، والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى. وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا : رفيعا فى أهل الأديان ، فكل أهل دين يتلونهم ، ويثنون عليهم ، ويفتخرون بهم استجابة لدعوته بقوله : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ «١».

والمراد باللسان : ما يوجد به الكلام فى لسان العرب ولغتهم ، وإضافته إلى الصدق ، ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار ، وتبدل الدول ، وتحول الملل والنحل. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء. [.....]

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤٠

الإشارة : كل من اعتزل عن الخلق وانفرد بالملك الحق ، طلبا فى الوصول إلى مشاهدة الحق ، لا بد أن تفيض عليه المواهب القدسية والأسرار الوهبية والعلوم اللدنية ، وهى نتائج فكرة القلوب الصافية ، وفى الحكم : «ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة». قال الجنيد رضي اللّه عنه : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه : (ثمار العزلة : الظفر بمواهب المنة ، وهى أربعة : كشف الغطاء ، وتنزل الرحمة ، وتحقق المحبة ، ولسان الصدق فى الكلمة ، قال اللّه تعالى : فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ ... الآية). وقال بعض الحكماء : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا ، فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية : قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى اللّه : كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال : لا تنظر إلى الخلق ، فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تسمع كلامهم ، فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى ، قال : لا تعاملهم ، فإن معاملتهم خسران ووحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم ، لا بد لى من معاملتهم ، قال : لا تسكن إليهم ، فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعله يكون ، قال : يا هذا أتنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ، وتسكن إلى الهلكى ، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع اللّه؟! هيهات .. هذا لا يكون أبدا ، ثم غاب عنى.

وقال القشيري رضي اللّه عنه : فأرباب المجاهدات ، إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المستحسنات – أي : من الدنيا – . قال : وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضة. هـ. وقال فى «القوت» : ولا يكون المريد صادقا حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية ، وحتى يكون أنسه فى الواحدة ، وروحه فى الخلوة ، وأحسن أعماله فى السر. هـ.

قلت : العزلة عن الخلق والفرار منهم شرط فى بداية المريد ، فإذا تمكن من الشهود ، وأنس قلبه

بالملك الودود ، واتصل بحلاوة المعاني ، ينبغى له أن يختلط بالخلق ويربى فكرته لأنهم حينئذ يزيدون فى معرفته ويتسع بهم لأنه يراهم حينئذ أنوارا من تجليات الحق ، ونوارا يرعى فيهم ، فيجتنى حلاوة الشهود ، وفى ذلك يقول شيخ شيوخنا المجذوب :

الخلق نوار وأنا رعيت فيهم هم الحجاب الأكبر والمدخل فيهم.

وفى مقطعات الششترى :

عين الزحام هم الوصول لحيّنا.

وباللّه التوفيق.

(٣٤٠/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤١

ثم ذكر قصة موسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥١) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (٥٣)

قلت : «نَجِيًّا» : حال من أحد الضميرين فى (نادَيْناهُ) أو (قَرَّبْناهُ) ، وهو أحسن. و«هارُونَ» : عطف بيان.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى ، قدّم ذكره على ذكر إسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب لأنه من نسله ، إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً «١» : موحدا ، أخلص عبادته من الشرك والرياء ، وأسلم وجهه للّه تعالى ، وأخلص نفسه عما سواه. وقرئ بالفتح ، على أن اللّه تعالى أخلصه من الدنس. قال القشيري أي : خالصا للّه ، لم يكن لغيره بوجه. ثم قال : ولم يغض فى اللّه على شيء. هـ.

وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا أرسله اللّه تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه ، ولذلك قدّم رسولا مع كونه أخص وأعلى ، وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، الطور : جبل بين مصر ومدين ، أي : ناديناه من ناحيته اليمنى ، وهى التي تلى يمين موسى عليه السّلام ، فكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى ، أو من أيمن ، أي : من جانبه الميمون ، ومعنى ندائه منه : أنه سمع الكلام من تلك الناحية ، وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا أي : مناجيا لنا نكلمه بلا واسطة ، فالتقريب :

تقريب تكرمة وتشريف ، مثّل حاله عليه السّلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته.

وقيل : (نَجِيًّا) من النجو ، وهو العلو والارتفاع ، أي : رفعناه من سماء إلى سماء ، حتى سمع صريف القلم يكتب له فى الألواح.

وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أي : من أجل رحمتنا ورأفتنا به ، أو من بعض رحمتنا أَخاهُ هارُونَ ، أي : وهبنا له مؤازرة أخيه ومعاضدته ، إجابة لدعوته : وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هارُونَ أَخِي «٢» لا نفسه لأنه كان أكبر منه ، وجد قبله ، حال كونه نَبِيًّا : رسولا مشركا معه فى الرسالة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما وصف الحق تعالى خليله بالصديقية وصف كليمه بالإخلاص ، وكلاهما شرط فى حصول سر الخصوصية ، سواء كانت خصوصية النبوة أو الولاية ، فمن لا تصديق عنده لا سير له ، ومن لا إخلاص له لا وصول له. وحقيقة الإخلاص : إخراج الخلق من معاملة الحق ، وهى ثلاث طبقات سفلى ، ووسطى ، وعليا.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (مخلصا) بفتح اللام.

(٢) الآيتان ٢ – ٣ من سورة طه.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤٢

فالسفلى : أن يفعل العبادة للّه تعالى ، طالبا لعوض دنيوى ، كسعة الأرزاق ، وحفظ الأموال والبدن ، فهذا إخلاص العوام ، وإنما كان إخلاصا لأنهم لم يلاحظوا مخلوقا فى عملهم.

والوسطى : أن يعبد اللّه مخلصا ، طالبا لعوض أخروى ، كالحور والقصور.

والعليا : أن يفعل العبادة قياما برسم العبودية ، وأدبا مع عظمة الربوبية ، غير ملتفت لجنة ولا نار ، ولا دنيا ولا آخرة ، مع تعظيم نعيم الجنان ، لأنه محل اتصال الرؤية كما قال ابن الفارض رضي اللّه عنه :

ليس شوقى من الجنان نعيما غير أنى أريدها لأراك

فإذا تحقق للعبد مقام الإخلاص الكامل ، صار مقربا نجيا فى محل المشاهدة والمكالمة. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر نبيه إسماعيل عليه السّلام فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥٤ الى ٥٥]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ ، فصل ذكره عن أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، لإيراده مستقلا بترجمته ، إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ ، هذا تعليل لموجب الأمر بذكره. وإيراده عليه السّلام بهذا الوصف لكمال شهرته به.

روى أنه واعد رجلا أن يلقاه فى موضع ، فجاء إسماعيل ، وانتظر الرجل يومه وليلته – وقيل : ثلاثة أيام – فلما كان فى اليوم الآخر ، جاء الرجل ، فقال له إسماعيل : ما زلت هنا من أمس. وقال الكلبي : انتظره سنة ، وهو بعيد.

قال ابن عطية : وقد فعل مثل هذا نبينا صلى اللّه عليه وسلم قبل مبعثه ، ذكره النقاش وأخرجه الترمذي وغيره ، وذلك فى مبايعة وتجارة «١» هـ. وقال القشيري : وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه ، فصبر على ذلك ، إلى أن ظهر الفداء ، وصدق الوعد دلالة حفظ العهد. هـ.

وقال ابن عطاء : وعد لأبيه من نفسه الصبر ، فوفى به ، فى قوله : سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ «٢». هـ. وهذا مبنى على أنه الذبيح ، وسيأتى تحقيق المسألة إن شاء اللّه «٣».

---

(١) أخرج أبو داود فى (الأدب ، باب فى العدة) عن عبد اللّه بن أبى الحمساء ، قال : بايعت النبي صلى اللّه عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو فى مكانه ، فقال : «يافتى ، لقد شققت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك».

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(٣) سبق التعليق على هذه المسألة عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا أي : رسولا لجرهم ومن والاهم ، مخبرا لهم بغيب الوحى ، وكان أولاده على شريعته ، حتى غيرها عمرو بن لحى الخزاعي ، فأدخل الأصنام مكة. فمازالت تعبد حتى محاها نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم بشريعته المطهرة.

وَكانَ إسماعيل يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ، قدّم الأهل اشتغالا بالأهم ، وهو أن يقبل بالتكميل على نفسه ، ومن هو أقرب الناس إليه ، قال تعالى : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «١» ، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ «٢» ، قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً «٣» ، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم. وقيل : أهله : أمته لأن الأنبياء – عليهم السلام – آباء الأمم. وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جملتها ما ذكر من الخصال الحميدة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد وصف الحق – جل جلاله – نبيه إسماعيل بثلاث خصال ، بها كان عند ربه مرضيا ، فمن اتصف بها كان مرضيا مقربا : الوفاء بالوعد ، والصدق فى الحديث لأنه مستلزم له ، وأمر الناس

بالخير. أما الوفاء بالعهد فهو من شيم الأبرار ، قد مدح اللّه تعالى أهله ، ورغّب فيه وأمر به ، قال تعالى : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا «٤». وقال تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ «٥» فإخلاف الوعد من علامة النفاق ، قال صلى اللّه عليه وسلم :

«آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» وخلف الوعد إنما يضر إذا كان نيته ذلك عند عقده ، أو فرط فيه ، وأما إن كان نيته الوفاء ، ثم غلبته المقادير ، فلا يضر ، لا سيما فى حق أهل الفناء ، فإنهم لا حكم لهم على أنفسهم فى عقد ولا حل ، بل هم مفعول بهم ، زمامهم بيد غيرهم ، كل ساعة ينظرون ما يفعل اللّه بهم ، فمثل هؤلاء لا ميزان عليهم فى عقد ولا حل. فمثلهم مع الحق كمثل الأطفال المحجر عليهم فى التصرف ، ولذلك قالوا : (الصوفية أطفال فى تربية الحق تعالى). فإياك أن تطعن على أولياء اللّه إذا رأيت منهم شيئا من ذلك ، والتمس أحسن المخارج ، وهو ما ذكرته لك ، فإنه عن تجربة وذوق. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر نبيه إدريس عليه السّلام ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (٥٧)

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه.

(٣) الآية ٦ من سورة التحريم.

(٤) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(٥) الآية ٩١ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ وهو سبط شيث ، وجدّ أبى نوح ، فإنه نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وهو إدريس عليه السّلام ، واشتقاقه من الدرس لكثرة دراسته لما أوحى إليه ، وكثرة ذكره للّه تعالى.

روى أنه كان خياطا فكان لا يدخل الإبرة ولا يخرجها إلا بذكر اللّه. وروى أنه جاء إليه الشيطان يفتنه بفستق ، فقال له : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى هذه الفستقة؟ فقال له عليه السّلام : (اللّه قادر على أن يدخل الدنيا كلها فى سم هذه الإبرة ، ونخس عينه) ذكره السنوسى فى شرح مقرأه. قال ابن

وهب : إنه دعا قومه إلى لا إله إلا اللّه ، فامتنعوا فهلكوا. وفى حديث أبى ذر : أنه رسول ، وجمع بينه وبين حديث الشفاعة ، وقولهم لنوح : إنك أول رسول ، بأن تكون رسالته لقومه خاصة ، كهود وصالح ، وكذا آدم وشيث ، فإنه أرسل لبنيه لتعليم الشرائع والإيمان ، ولم يكونوا كفارا ، وخلفه فى ذلك شيث ، قال المحشى الفاسى : والأظهر عندى فى نوح أنه أول رسول من أهل العزم ، لا مطلقا.

قال ابن عطية : والأشهر أن إدريس عليه السّلام لم يرسل ، وإنما هو نبى فقط ، وذهب إلى ذلك ابن بطال ، ليسلم من المعارضة ، وهى مدفوعة بما ذكرنا. هـ. فالمشهور أن إدريس رسول إلى قومه. روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة ، وأنه أول من خط بالقلم ، ونظر فى علم النجوم والحساب ، وخاط الثياب. قيل : وهو أول نبى بعث إلى أهل الأرض.

قال تعالى فى وصفه : إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا : خبران لكان ، والثاني مخصص للأول إذ ليس كل صدّيق نبى. وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ، هو شرف النبوة والزلفى عند اللّه تعالى. وقيل : علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا ، كما قال تعالى فى حق نبينا : وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ «١» ، وقيل : الجنة ، وقيل : السماء الرابعة ، وهو الصحيح.

روى عن كعب وغيره فى سبب رفعه أنه مشى ذات يوم فى حاجته ، فأصابه وهج الشمس وحرها ، فقال : يا رب أنا مشيت يوما ، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد! ، اللهمّ خفّف عنه من ثقلها ، واحمل عنه حرها ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف ، فقال : يا رب كلفتنى بحمل الشمس ، فما الذي قضيت فيه؟ فقال : إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرّها فأجبته ، قال : يا رب اجعل بينى وبينه خلّة ، فأذن له ، حتى أتى إدريس ، فقال له إدريس : أخبرت أنك أكرم الملائكة عند ملك الموت ، فاشفع لى ليؤخر

---

(١) الآية ٤ من سورة الشرح.

أجلى ، لأزداد شكرا وعبادة ، فقال له الملك : لا يؤخر اللّه نفسا إذا جاء أجلها ، فقال : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى ، قال : نعم ، ثم حمله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء «١».

روى أنه مات هناك وردت إليه روحه بعد ساعة ، فهو فى السماء الرابعة حى. وهذه قصص اللّه أعلم بصحتها. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ارتفاع المكان والشأن يكون على قدر صفاء الجنان ، والإقبال على الكريم المنان ، فبقدر

التوجه والإقبال يكون الارتفاع والوصال.

بقدر الكد تكسب المعالي ومن رام العلا سهر الليالى

أتبغي العز ثم تنام ليلا يغوص البحر من طلب اللآلى

قال بعضهم : من عامل اللّه على بساط الأنس : رفع ، لا محالة ، إلى حضرة القدس. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مدحهم فى الجملة ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : آية ٥٨]

أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا (٥٨)

قلت : «أُولئِكَ» : مبتدأ ، و«الَّذِينَ» : خبره ، أو «الَّذِينَ» : صفته ، و«إِذا تُتْلى » : خبره. والإشارة إلى المذكورين فى السورة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ، و(مِنَ النَّبِيِّينَ) : بيان للموصول ، و(مِنْ ذُرِّيَّةِ) : بدل منه بإعادة الجار ، و(سُجَّداً وَبُكِيًّا) : حالان من الواو ، و(بُكِيًّا) : جمع باك ، كمساجد وسجود ، وأصله : بكوى ، فاجتمع الواو والياء ، وسبق إحداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت فى الياء ، وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء.

يقول الحق جل جلاله : أُولئِكَ المذكورون فى السورة الكريمة هم الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بفنون النعم الدينية والدنيوية ، مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وهو إدريس عليه السّلام ونوح ، وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ أي : ومن ذرية من حملناهم فى السفينة ، وهو إبراهيم لأنه من ذرية سام بن نوح ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ ، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وقوله : وَإِسْرائِيلَ أي : ومن ذرية إسرائيل ، وهو يعقوب ، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. وَمِمَّنْ هَدَيْنا أي : ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم إلى النبوة من غير هؤلاء.

---

(١) عقّب ابن كثير على هذه الرواية وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة ، وهى من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات.

إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا ، هذا استئناف لبيان خشيتهم من اللّه تعالى وإخباتهم له ، مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب ، وكمال النفس والزلفى من اللّه عز وجل ،

أي :

إذا تتلى عليهم ، آيات الرحمن ، إما عند نزولها عليهم ، أو بسماعها من غيرهم ، لحديث : «أحب أن أسمعه من غيرى». ثم بكى صلى اللّه عليه وسلم عند قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً «١» فكان الأنبياء عليهم السلام مثله ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا ساجدين وباكين. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا» «٢». وعن عمر رضي اللّه عنه أنه قرأ سورة مريم ، فسجد فيها ، فقال : (هذا السجود ، فأين البكاء)؟

قال بعضهم : ينبغى أن يدعو الساجد فى سجوده بما يليق بآيتها ، فهاهنا يقول : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم ، المهديين الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك. وفى الإسراء يقول : اللهم اجعلنى من الخاضعين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك ، وهكذا. والذي ورد فى الخبر : يقول :

«سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشقّ سمعه وبصره ، بحوله وقوته ، اللهم اكتب لى بها أجرا ، وضع عنى بها وزرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السّلام». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد أثنى اللّه تعالى على هؤلاء السادات المنعم عليهم بكونهم إذا سمعوا كلام الحبيب خضعوا ورقّت قلوبهم ، وهو أول درجة المحبة ، وفوقه الفرح بكلام الحبيب من مكان قريب ، وفوقه الفرح بشهود المتكلم ، وهنا ينقطع البكاء لدخول صاحب هذا المقام جنة المعارف ، وليس فى الجنة بكاء. وأيضا : من شأن القلب فى أول أمره الرطوبة ، يتأثر بالواردات والأحوال ، فإذا استمر عليها اشتد وصلب بحيث لا يؤثر فيه شىء من الواردات الإلهية. وفى هذا المعنى قال أبو بكر رضي اللّه عنه ، حين رأى قوما يبكون عند سماع القرآن : (كذلك كنا ثم قست القلوب) «٣» ، فعبّر عن تمكنه بالقسوة ، تواضعا واستتارا ، وإنما أثنى على هؤلاء السادات بهذه الخصلة لأنها سلّم لما فوقها. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٤١ من سورة النساء ، والحديث : أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة النساء) ، ومسلم فى (الصلاة ، باب : فضل استماع القرآن) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه.

(٢) الحديث أخرجه بنحوه ابن ماجة فى (إقامة الصلاة ، باب فى حسن الصوت بالقرآن) من حديث سعد بن أبى وقاص. [.....]

(٣) قال الحافظ أبو نعيم : «.. عن أبى صالح : لما قدم أهل اليمن – زمان أبى بكر – وسمعوا القرآن ، جعلوا يبكون ، قال : فقال أبو بكر :

[هكذا كنا ، ثم قست القلوب]. قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله : «ومعنى قوله : قست القلوب :

قويت ، واطمأنت بمعرفة الله تعالى.

أ. هـ. الحلية ، ج ١ ، ص ٣٣ – ٣٤ ويحتمل أن يكون المعنى : أنهم كانوا أرقاء القلوب بمشاهدتهم لحضرة النبي صلى اللّه عليه وسلم .. ثم طال الأمد .. فقست القلوب .. وهذا منه تواضع ، رضي اللّه عنه.

(٣٤٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤٧

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٥٩ الى ٦٣]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (٦٣)

قلت : (جَنَّاتِ عَدْنٍ) : بدل من الجنة ، بدل بعض لاشتمالها عليها ، وما بينهما اعتراض ، أو نصب على المدح. و(إِلَّا سَلاماً) : منقطع ، أي : لكن يسمعون سلاما ، ويجوز اتصاله ، على أن المراد بالسلام الدعاء بالسلامة ، فإن أهل الجنة أغنياء عنه ، فهو داخل فى اللغو. و(بِالْغَيْبِ) : حال من عائد الموصول ، أي : وعدها ، أو من العباد ، و(مَأْتِيًّا) : أصله مأتوى ، فأبدل وأدغم كما تقدم.

يقول الحق جل جلاله : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ أي : جاء بعد أولئك الأكابر ، خَلْفٌ أي : عقب سوء ، يقال لعقب الخير «خَلْفٌ» بفتح اللام ، ولعقب الشر «خَلْفٌ» بسكون اللام ، أي : فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ، أَضاعُوا الصَّلاةَ أي : تركوها وأخروها عن وقتها ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ من شرب الخمر ، واستحلال نكاح الأخت ، من الأب ، والانهماك فى فنون المعاصي ، وعن على رضي اللّه عنه : هم من بنى المشيد ، وركب المنضود ، ولبس المشهور. قلت : ولعل المنضود : السرج المرصعة بالجواهر والذهب. وقال مجاهد : هذا عند اقتراب الساعة ، وذهاب صالح أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ينزو بعضهم على بعض فى السكك والأزقة. هـ. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا : شرا ، فكل شر عند العرب غى ، وكل خير رشاد. قال ابن عباس : الغىّ : واد فى جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرّه ، أعد للزانى المصرّ ، ولشارب الخمر المدمن ، ولأهل الرياء والعقوق والزور ، ولمن أدخلت على زوجها ولدا من غيره. هـ.

إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، هذا يدل على أن الآية فى الكفار. فَأُولئِكَ المنعوتون بالتوبة والإيمان

والعمل الصالح ، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بموجب الوعد المحتوم ، أو يدخلهم الله الجنة ، وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً : لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا ، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ، ولا ينقص أجورهم ، إذا صححوا المعاملة مع ربهم.

(٣٤٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٣٤٨

جَنَّاتِ عَدْنٍ أي : إقامة ، لإقامة داخلها فيها على الأبد ، الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ أي : ملتبسين بالغيب عنها لم يروها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ، أو ملتبسة بالغيب ، أي : غائبة عنهم غير حاضرة. والتعرض لعنوان الرحمانية للإيذان بأن وعده وإنجازه لكمال سعة رحمته تعالى ، إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا يأتيه من وعد به لا محالة ، وقيل : هو مفعول بمعنى فاعل ، أي : آتيا لا محالة ، وقيل : مأتيا : منجزا ، من أتى إليه إحسانا ، أي : فعله.

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً أي : فضول كلام لا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها. وفيه تنبيه على أن اللغو ينبغى للعبد أن يجتنبه فى هذه الدار ما أمكنه. وفى الحديث : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» «١». وهو عامّ فى الكلام وغيره. إِلَّا سَلاماً ، أي : لا يسمعون لغوا ، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا أي : على قدرهما فى الدنيا ، إذ ليس فى الجنة نهار ولا ليل ، بل ضوء ونور أبدا. قال القرطبي : ليلهم إرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، أي : ونهارهم رفع الحجب وفتح الأبواب.

قال القشيري : الآية ضرب مثل لما عهد فى الدنيا لأهل اليسار ، والقصد : أنهم أغنياء مياسير فى كل وقت. هـ.

وسيأتى عند قوله : يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ «٢» كيفية أرزاقهم.

قال تعالى : تِلْكَ الْجَنَّةُ : مبتدأ وخبر ، جيء بهذه الجملة لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها ، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها ، أي : تلك الجنة التي وصفت بتلك الأوصاف العظيمة هى الَّتِي نُورِثُ أي : نورثها مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا للّه بطاعته واجتناب معاصيه ، أي : نديمها عليهم بتقواهم ، ونمتعهم بها ، كما يبقى عند الوارث مال مورثه يتمتع به ، والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث إنها لا يعقبها فسخ ولا استرجاع ولا إبطال.

وقيل : يرث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار ، لو آمنوا وأطاعوا ، زيادة فى كرامتهم.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ... الآية تنسحب على من كان أسلافه صالحين ،

فتنكب عن طريقهم ، فضيّع الدين ، وتكبر على ضعفاء المسلمين ، واتبع الحظوظ والشهوات ، وتعاطى الأمور العلويات ، فإن ضم إلى ذلك الافتخار بأسلافه ، أو بالجاه والمال ، كان أغرق فى الغى والضلال ، يصدق عليه قول القائل :

إن عاهدوك على الإحسان أو وعدوا خانوا العهود ولكن بعد ما حلفوا

بل يفخرون بأجداد لهم سلفت نعم الجدود ، ولكن بئس ما خلّفوا

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد باب ١١) ، وابن ماجة فى (الفتن ، باب : كف اللسان فى الفتنة) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف.

إلا من تاب ورجع إلى ما كان عليه أسلافه ، من العلم النافع والعمل الصالح ، والتواضع للصالح والطالح ، فيرافقهم فى جنة الزخارف أو المعارف ، التي وعد الرحمن عباده المخصوصين بالغيب ، ثم صارت عندهم شهادة ، إنه كان وعده مأتيا ، لا يسمعون فيها لغوا لأن الحضرة مقدسة عن اللغو ، (إِلَّا سَلاماً) لسلامة صدورهم ، ولهم رزقهم فيها من العلوم والأسرار والمواهب ، فى كل ساعة وحين ، لا يرث هذه الجنة إلا من اتقى ما سوى اللّه ، وانقطع بكليته إلى مولاه. وباللّه التوفيق.

ولما أبطأ الوحى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل «١» :

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٥]

وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

قلت : وجه المناسبة لما قبله – واللّه أعلم – : أن الحق جل جلاله لما سرد قصص الأنبياء وما نشأ بعدهم ، وكان جبريل هو صاحب وحيهم الذي ينزل به عليهم ، ذكر هنا أن نزوله ليس باختياره ، فقال : وَما نَتَنَزَّلُ ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا لقول جبريل عليه السّلام : وَما نَتَنَزَّلُ عليك يا محمد إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، وذلك حين أبطأ الوحى عنه صلى اللّه عليه وسلم ، لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فلم يدر كيف يجيب ، ورجا أن يوحى إليه فيه ، فأبطا عليه أربعين يوما. قاله عكرمة. وقال مجاهد :

ثنتى عشرة ليلة ، أو خمس عشرة. فشقّ على النبي صلى اللّه عليه وسلم مشقة شديدة. وقال : يا جبريل قد اشتقت إليك ، فقال جبريل : إنى كنت أشوق ، ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فأنزل الله هذه الآية وسورة الضحى «٢» ، والتنزل : النزول على مهل ، وقد يطلق على مطلق النزول ، والمعنى : وما نتنزل وقتا غبّ وقت «٣» إلا بأمر الله تعالى ، على ما تقتضيه حكمته.

وقيل : هو إخبار عن أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها مخاطبين بعضهم لبعض بطريق التبجح والابتهاج ، أي : ما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر الله تعالى ولطفه ، وهو مالك الأمور كلها ، سالفها ومترقّبها وحاضرها ، فما وجدناه وما نجده هو من لطفه وفضله. هـ. قلت : ولا يخفى حينئذ مناسبته.

ثم قال : لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ أي : وما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ، فلا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان ، إلا بأمره ومشيئته ، وعن مقاتل : لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا من

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة مريم) وفى (التوحيد ، باب وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٦/ ١٠٣) ، وعزاه ابن حجر فى الكافي الشافي لأبى نعيم فى الدلائل.

(٣) غب بمعنى بعد ، ومنه قولهم : غب سلام.